الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري – قسنطينة -
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها
الرقم :
رقم التسجيل :

ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

(شعبة الأدب الحديث)

إعداد الباحث :
حمة دحماني

إشراف الأستاذ الدكتور :
عبد الله حمادي

أعضاء لجنة المناقشة

1- الدكتور	جامعة :	رئيسا
2- الأستاذ الدكتور : عبد الله حمادي	جامعة : منتوري (قسنطينة)	مشرفا ومقررا
3- الدكتور :	جامعة :	عضوا مناقشا
4- الدكتور :	جامعة :	عضوا مناقشا

السنة الجامعية
2006 - 2005

بسم الله الرحمان الرحيم

إهداء

إلى أبي وأمي

وكل من علمني حرفـا

من القلب كل الشكر والعرفان

المقـــــدمة

المقـــدمـــة

قبل الشروع في إنارة ممرات هذه المحاولة، أجدني مضطرا إلى الوقوف عند مفهوم **"الغربة"** وتحديد معانيها، بوصفها مصطلحا شاملا و متعدد التعريفات، وهو ما أرمي إليه من وراء هذه الدراسة، وانطلاقا مما جاء في المعاجم اللغوية والإستخدامات العديدة والإستعمالات المتنوعة الشائعة، فإنني وجدت من بين معاني **"الغربة" – البعد، النوى، التغريب، السطو، السلب- والإغتراب** بمختلف مفاهيمه واستعمالاته ومعانيه و صوره **الأخذ، مثل : الأخذ، الإستحواذ، الفصم...**

وبناء على هذه المعاني والإستعمالات العديدة المشكلة لظاهرة الغربة، فـــإن كـــلمة **" الغربة "** لا يبعد كثيرا عن مفاهيم هذه المعاني و الكلمات والإستعمالات، بل تشتمل - إلى حد بعيد-على مختلف هذه المعاني.

ومن خلال **ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريـــا** وحب التركيز- بالطبع- عليها باعتبارها ظاهرة بارزة، قد ولدت في أبعادها النفسية مأساة الشاعر، وأفرزت أشعاره صور البطش وألوان التعذيب داخل مختلف السجون، ومختلف المخططات الجهنمية التي رصدت للتشريد والإبادة الجماعية، وما تتركه هذه الجرائم والمخططات من فقر وجهل وخراب خلال قرن ونيف من الزمن، إذ كادت هذه الأعمال الوحشية، والمناهج الإستعمارية الإجرامية الفريدة من نوعها في تاريخ الإستعمارات، أن تزيل الشعب الجزائري كأمة من على خريطة البشرية فوق الأرض.

وقد كان لكلمة **"الغربة"** أثر عميق في تلك الظروف التاريخية الصعبة، في نفوس الأحرار في العالم، حيث لم يقصر رجال القلم من شعراء وكتاب وصحافة، ولم يتسنّ لكل محبي الحرية وحقـــوق الإنسان، إدراك أغـــوار وأبعاد هذه الظاهـــرة الإنسانية المأساوية، إذ هبوا جميعا بدون

تردد لدعم و مساندة الإنسان الجزائري، و الوقوف إلى جانب ثورته المباركة، وتقديم يد المساعدة في إسعاف أبناء الجزائر المحرومين من أرضهم، والمشردين في كل شعاب الأرض، ظلما وعدوانا.

وكانت الدول الشقيقة المجاورة، عند بداية المجزرة الإستعمارية الفرنسية، أول من فتحت ذراعيها لإحتضان بقايا من نجوا من مخططات الإبادة التي زرعها فوق أرض الجزائر مرتزقة الحلف الأطلسي. أما سبب إختياري" **ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريـــــا**" للدراسة، فذلك راجع لإيماني بأن في شعر الرجل مأساة عظيمة تحملها الكلمات، وهناك ماهو مخبأ بين السطوريحتاج إلى الغوص لإستجلائه، والإطلاع على أغواره البعيدة المسببة للهيبه، وهذا وفق نظرة جديدة ، تبرز جوانب إنسانية خفية هامة من المعاناة والآلام عاشها الشاعر، يجب الوقوف عندها، وإماطة اللثام عنها، لنخرجها لدنيا الناس في حلة قشيبة بهية.

وعلى الرغم من أن مفدي زكريـــا قد حــــاز على اهتمام الكثير من الدارسين، وتناولته العديد من الدراسات والبحوث الأكاديمية والرسائل العلمية الجامعية، إذ اعتنى بشعره ونثره- بشغف كبير- العديد من الباحثين والدارسين الذين أضاؤوا من خلال أعماله الخالدة وفنه المتميز الفــــريد، محطات عديدة هـــــــامة، وأناروا سبل الباحثين، وكشفوا عن زوايا مختلفة ومتنوعـــة - جازاهم الله خيرا-.ومع ذلك لا نزال نجد عند **لهيب** شعره وتحت **ظلال زيتونه** ومن وحي **أطلسه**، وداخل أمجاده الخالدة،وبين ملحمته النادرة، روافد متدفقة بالعطاء الذي لا ينضب، تنفث شرارات ملونة بالآهات، مشكلة مأساة الرجل الباطنية، وتحمل أنين أعماقه المتقطعة الحزينة، هذه الإضطرابات الباطنية، والمتناثرة بين الحروف وتحملها الكلمات،مصابيح وإضاءات، تفتح آفاقا جديدة رحبة، يأخذ كل باحث لجوج قبسا، ينير له دروب غياهب الإبداع الشعري.

من هـــذه الألسنة المتعامدة في شعره، المشحونة بالحزن والجراح الدامية، المحملة بالغربة المضنية، إقتبسنا " **ظاهرة الغربة**" التي وجدناها تتسع وتتلالأ في نماذج عديدة من أشعاره، و تتناثر هنا وهناك بين السطور، وتحتاج إلى تجميع وإلى نظرة ثاقبة، ودراسة نفسية وتوثيقية تاريخية، و فنية تحليلية، تخرجها إلى دنيا الناس في زيّ جديد، توضح بدقة صدق الظاهرة المأساوية التي عانى منها الشاعر، في علاقته الوطيدة الحميمية، وارتباطه الوثيق بالأرض والحياة.

وفــق هذا المنظور جاءت هذه الدراسة، كإستجابة لنداء بضرورة إعادة قراءة شعر **مفدي زكريـــا**، قراءة متأنية ورصينة، بعيدة عن الدراسات الوصفية المألوفة التي عرف بعضها الشعر الجزائري، ومتخذة المنهج التاريخي والفني والنفسي، لإبراز زوايا غائرة هامة في شعره، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريـــا لم تحض بالدراسة الوافية والعناية الكافية من الدارسين، ربما لأنهم صنفوا الظاهرة ضمن الشعر الثوري النضالي، لهذا نلحظ أن أكثر الدراسات، التي نهجت هذا الإتـــجاه إعتمدت على المنهج التاريخي والوصفي في رصد تطور وتنـــامي الأغراض الشعرية، والتي ساعدتها على التوثيق وإبراز الظـــــواهر الفنية، دون أن تسعى إلى استنفار العوالم الداخلية والحقيقية لتلك الزفرات الحادة و الحمم المحروقة، والحاوية لآلام والمعاناة، التي تتناثر في قصائده.

إن شعر **مفــــــدي زكريـــا** ينتابه إحساس مرهف بوطنه المحتل، وتجرفه تيارات العـــاطفة في مشاطرة ومجاراة الأحزان والآلام، وتدفعه بشدة للتضحية وتحمل التبعيات، وركب المخاطر والإستعـــــداد للسجن أو النفي والغـــــربة أو حتى القتل، مثل هذه الشخصية، ووفــــــق هذه الإرادة، لا تبقي في حياة **مفدي زكريـــا** مجالا للعبث واللهو، ولا تترك في قلمه منطقا للغو الكلام.

وإذا كان في شعر **مفـــدي زكريـــا** وحياته كثير من الغربة و المآسي، فإن هذه الدراسة **ظاهرة الغربة في شعر مفـــدي زكريـــا** تأخذ وتتبع الظاهرة - فقط - من خلال أشعاره، وترصدها، باعتبارها تجربة مأساوية واحدة تنمو و تتصاعد في قصائده، وتسترسل في شكل نماذج ذاتية واجتماعية وقومية وإنـــسانية.

والفضل كله يرجع إلى الدراسات التي تناولت شعر **مفدي زكريـــا** ونتائجها العديدة، والتي أنارت الطريق أمامي في هذه الدراسة، وأخص بالذكر دراسة الدكتور **محمد ناصر** في عمله القيم الشامل عن حياة وأعمال **مفدي زكريـــا** تحت عنوان **" مفدي زكريا شاعر النضال والثـــورة "**، وقد تضمن دراسة شافية عن سيرة **"مفدي"**ومقدمة حول معظم ما كتب الشاعر، لذا يعد هذا الكتاب مصدرا لكل باحث ودارس لشعر ونثر **مفدي زكريا**، أيضا دراسة الدكتور يحي الشيخ صالح بعنوان **" شعـــر الثورة عند مفـــدي زكريا وهي دراسة فـــنية تحليلية "**، بليغـــة وشامـــلة، كما وقف عند مراحل حياة الشاعر وأبرز أثرها في شعره، وفي دوره الجبار في حركة

الشعر النضالي والثوري في الجزائر والعالم العربي. وجاءت دراسة الأستاذ **حواس بري**، غيربعيدة عن دراسة الدكتور **يحي الشيخ صالح**، تحت عنوان **مـــفدي زكريـــا** " دراسة و تقويم " متناولة للتراث الشعري الذي خلفه الشاعر، والذي تركه مجموعا وبعض شعره المنثور وغير المجموع من مرحلة ما بعد الإستقلال، فكانت متابعة مضنية لخطى الشاعر من خلال أعماله الشعرية العديدة.

وهذه الدراسة التي تهدف معرفة **ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريـــا** في مرحلة عصيبة مهمة في تاريخ الشعر الجزائري، تمتد من الحرب العالمية الثانية حتى وفاة الشاعر، تقـــوم على ثلاثة مناهج تتداخل مع بعضها في كل مرحلة من مراحل الـــدراسة، وهذه المناهج هي **المنهج التاريخي** الذي يساعدنا على معرفة البواعث والنوايا الحقيقية التي أفرزت هذه المأساة، وكذلك **المنهج النفسي** المدعم بالإستقراء النافذ لخبايا الإنفعالات الداخلية، ويكون دعامة قوية ملحة لقراءة جديدة، وفهم سليم للنص الشعري، **والمنهج الفني التحليلي** الذي يكمل الدراسة من الناحية الفنية.

ولتحقيق غاية البحث، إقتضت الضرورة تقسيم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول خصص كل واحد لدراسة جانب من الظاهرة الخاصة بالموضوع .

تناولت في المقدمة، ما يمكن عدّه إضاءة حول **الظاهرة اللغوية** التي يتناولها الموضوع لتحديد خط سيره السوي .

أما **التمهيد،** فأختص بإنارة وافية، إذ يعد مدخلا مفسرا **لظاهرة الغربة**، وعلاقتها **بالإغتراب**، فكان سعيا و بحثا عن معناها، وموضوعها، وأثـــــرها ودورها في الشعر العربي. ثم تلاه **الفصل الأول**، وخصص لمتابعة **ظـــاهرة الغـــربة في الشعر العربي الحديث**، حيث قـــسمناه إلى جـــزئين رئـــيسين، في **الجـــزء الأول** : درســـنا **ظاهـــرة الغربة في الشعـــر الـــرومانسي ، العربي الحديث**، لما لهذا المذهب من آثار على الظاهرة موضوع الـــدراسة، فأبرزها عند بعض شعراء هذا الإتجاه، في موضوعات **كالحب، والغربة، والطبيعة.** وجاء **الجزء الثاني مكرسا لظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث**، لما للواقع من انعكاسات شرطية مفرزة للظاهرة المدروسة، وأبرزها من خلال مأساة شعراء هذا الإتجاه وفي اغترابهم المكاني والزماني، ونظرتهم الشاملة لقضايا الإنسان، من منظور تاريخي فاحصا بواعث الظاهرة موضوع الدراسة.

أما **الفصل الثاني :** فقد تضمن **ظاهرة الغربة بواعثها وأبعادها في شعر مفدي زكريـــا**، ضمناه تمهيدا، حوى نظرة عن الوضع التاريخي وإفرازاته، كما أسسنا للظاهرة نظرة عامة عن بواعثها التي نثرت في قصائده، ومواطنها الداخلية، ثم بينا أن الغربة والفاقة وسوء الطالع، والخيبة ، والتعثر، قد صاحبت الشاعر منذ الصغر. ثم تناولنا **بواعث الغربة الإجتماعية**، فكان **الجهل والفقر**، **والضياع**، صدى شعره، وزادها تأزما وتعقيدا في عوالمه الباطنية، مصاب الظاهرة الإجتماعية المركبة من جهل مدقع، وعـــدم وعي جماعي، وحـــالة من التخلف المميت، وضـــرب من الصراعات الهامشية **...**

كما أتينا إلى إبراز ظاهرة الغربة السياسية، والمخططات، والنوايا الإستعمارية الممارسة ضد الشعب الجزائري ، فكانت عن بواعث الغربة من زاوية **القمع والإبادة الجماعية والتشريد** التي وظفها المحتل، **وعن السجون والمحتشدات وألوان التعذيب** الممارسة ضد الأبرياء من المعتقلين، فجاءت أشعاره ملاحم معبرة عن معاناة شعب بأكمله، وشخصت مأساة فريدة قل نظيرها في تاريخ البشرية**...**

وكانت أبعاد ظاهـــرة الغـــربة من **بعد وطني**، **ومـــغربي**، **وإسلامي** ، **وإفريقي**، **وإنـــساني**، من خواتم بواعث ظاهرة الغربة في شعرمفدي زكريــــا ، حيث رصدت أشعاره وضع الإنسان المغربي والإفريقي والإنساني بصفة عامة، من حيث أنه وضع مأساوي لا يبشر إلا بالثورة على الظلم السائـــد فوق الأرض، وتحسر على فقدان الإنسان لإنسانيته.

أما الفصل الثالث **:** فقـــد خص **للـــمعطيات الفنية** التي طرحتها ظـــاهرة الغربة، فتمثلت في كيفية بناء القصيدة، من ناحية **اللغة الشعرية**، **والصورة الشعرية والموسيقي ...**

ثم كـــــانت **الخـــــاتمة**، التي تضمنت أهم نتائج الظاهرة وبواعثها في الــــدراسة **.**

ولا يمكنني أن أنـــسى عظيم المعروف، ووافر العـــناية والـــرعاية والصبر، التي أحـــاطني بها أستاذي الفاضل المحترم **الدكتور عبد الله حمادي**، أشــــكر شخصه الكريم كل الشكرعلى تكرمه وتفضله بالإشراف على هـــذه الدراسة، وعلى المساعدات الجمة التي قدمها لي **...** ، فمن الأعماق له كل الفضل والتقدير والعـــرفان.

مــــــدخل :

مفهوم الغـــربة والإغتراب

مفهوم الغربة والإغتراب

أولا : مفهوم الغربة

الغربة ظاهرة اجتماعية قديمة، عرفها الإنسان منذ أن وطئت قدماه أرض الأرض، ومازالت تلازمه وتصاحبه بمآسيها إلى يوم الناس هذا : لأنها ضمن طبائعه، بل هي دافع ضروري من دوافعه، وهي ظاهرة غريبة تتشكل وتتميز من إنسان إلى آخر، بأشكال وصفات سلوكية عديدة، وفق مسبباتها ومصادرها، وكانت ظاهرة الغربة واضحة المفاهيم، واضحة الإستخدامات والمصطلحات، لكن في عصرنا الحديث، نلحظ أنها أخذت أشكالا وصورا سلوكية وتعبيرية مركبة ومعقدة، إذ أصبحت ظاهرة الغربة، من أبرز الظواهر والمفاهيم إثارة للنقاش والجـــدل اللغوي، وذلك راجـــع إلى العديد من التعريفات الحديثة التي رصدت لتحديد أبعاد مفهومها، إضافة إلى أوضاع الإنسان المستحدثة المأساوية جراء نكبات الحروب العالمية والإقليمية التي لم تنقطع، وما يصاحبها من ويلات وخراب وإبادة... وبناء على هذا النحو، فإن الدراسة، ترتكز على ظاهرة الغربة وكيفية تداخلها اللغوي مع مصطلح الإغتراب الحديث، والمتداول بكثرة في الدراسات الأكادمية والبحوث اللغوية الغربية الحديثة.

فنحن سنوظف الغربة في هذه الدراسة للدلالة على **النفي والتهجير**، **والإقصاء**، **والنوى**، والإبتعاد **عنوة على الوطن والأهل** وأيضا عن : الإغتراب أو**التغريب**، لأن الفعل **يغترب** هو فعل لازم شأنه في العربية شأن معادليه في العديد من اللغات البشرية الأخرى، وهو يعني حرفيا "**يغدو غريبا، أو يجعل شيئا ملكا لآخر**"[1] والإسم المشتق منه هو **الإغتراب**..

أ- الغـــربة لغـــــــة :

معاني الغربة عديدة، حيث نثر في لسان العرب في مادة **(غ ر ب)** بمعنى الحركة الدائمة"...والغَرْبُ : الذَّهابُ والتَّنَحِّي عن الناس، وقد غَرَبَ، يَغْرَبُ، غُرْبًا وأَغْربَ، غَرَّبهُ وأغْرَبَهُ نَحَّاه"[2]

1- **ريتشارد شاخت** : الإغتراب. ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسةالعربية للدراسات والنشر،بيروت 1980 ، ص15

2- **ابن منظور**: لسان العرب. مادة (غ ر ب) المطبعة الأميرية ط1 بولاف 1300هـــ مصر.

كما تعني الغربة، التّواري والإختفاء عن الناظرين" **غَرُبَتِ الوحْشُ في مغاربها أي غابت في مكانـــيسها** "[1] أيضا تأتي الغربة في مواطن أخرى بمعنى" **الشؤم والشذوذ أو تحمل بـــعض الصفات النوعية لبعض المخلـــوقات التي كان يتطيّـــر منها الإنـــسان خـــاصة في الجاهلية** "[2] ومن كـــثرة " **تشاؤمهم بالغراب اشتقوا اسمه الغربة والإغتـــراب والتغريب والغُرَيْـــب**"[3]. ولـــهم أمـــــثال على هذا المنـــوال مثل قـــولهم " **أَغـــْربُ من غـــُرابٍ** " ومـــثله في أشعارهم عن" مضر بن لقيط قــــوله :

كأنّي وأصحابي وكرِّي عليهـــــم على كُلّ حال من نشاط ومن تشأُمِ
غُرابٌ من الغربانِ أيَّام قـــــــــُرَّةٍ رأيْنَ لِجَامًــا بالعـــراضِ على وضيمِ

لذا كان الغريب (صغير) الغراب نذير شؤم عند عرب الجاهلية"[4] ويحاول الجاحظ تفسير ظاهرة التشاؤم عند عرب الجاهلية بالغراب، والعلاقة المتداخلة بين لفظتي الغربة والتطيّر بالطيرالغراب بقوله " **لزمه هذا الاسم (غراب) إذا بان أهل الدّار للنجعة، وقع في مرا بيض بيوتهم يتلمس ويتقمم فيتشاءمون و يتطيرون منه إذا كان ليعتري منازلهم إلا إذا بانوا فسموه غراب البين**"[5].

كما تأتي الغربة بمعنى التهجير والتغريب أي الطرد والنفي من الأرض أو الوطن وضمن التغريب : النفي عن البلد...والغربة والغرب : النُزوح عن الوطن، والإغتراب... والتغريب كذلك، وغُرِيْبُ : بعيد عن وطنه، والجمع غرباء، والأنثى غُرَيْبَة"[6].

1- **الزمخشري** : أساس البلاغة، الجزء2 ، دار الكتب المصرية القاهرة، ب ت، ص .159
2- **الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر** : كتاب الحيوان- الجزء1 شرح و تحقيق يحي الشامي، منشورات مكتبة الهلال، بيروت، ط3 سنة 1990 ص516
3- **المصدر نفسه** : ص 518
4- **المصدر نفسه** : ص 315
5- **المصدر نفسه** : ص 315
6- **ابن مــــنظور** : لســـان العرب، مادة (غ ر ب)

وهناك كتاب قيم وضعه أبو فرج الإصفهاني في الأدب، تتبع فيه ظاهرة الغربة من الناحية اللغوية، سماه (أدب الغرباء) يقول عنه " جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار ما قيل شعرا في غُربة ونطق عما به كُربة"[1].

ب - الغربة في الدين الإسلامي :

إن ظاهرة الغربة عند الكائن الحي قديم قدم هذا الكائن الإنساني الذي ارتبطت به، فقد عرفها وعانى من ويلاتها أبو البشرية آدم -عليه السلام- وذاق من ينابيع مرارتها قبل وبعد نزوله الأرض " **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلآ إبليس لم يكن من الساجدين قال مامنعك ألآتسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"** (سورة الأعراف11-12)، كما أمتهن آدم - عليه السلام- في أصله ومركبات معرفه الأصيل" **قال يا إبليس مالك ألآ تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصل من حما مسنون** (سورة الحجر32-33)، وتعاظمت بعدها مأساة آدم - عليه السلام- وإزدادت غربته في الجنة، وما كان منه من أكله الشجرة التي نهى عنها " **وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"** (سورة البقرة 35-36)، فكانت مأساة وبداية البدايات لغربة الإنسان الأول الذي ظلم نفسه، ونسي

نواهي ربه فغوى، فترك الجنة بائسا مغتربا، وهبط الأرض جارًّا وراءه فراقها، إلى دنيا مليئة بالمتاعب والمآسي والأحزان.

يقول صالح الشرنوبي :

أتفـــاحة سرٌ هـــذا الشقاء ومن أجـــلها كل هـــذا البلاء [2]

1- **أبو فرج الاصفهاني** : أدب الغرباء، تحقيق د/ صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديدة، بيروت 1972، ص23

2- **صالح الشـــرنوبي** : الديوان : جمع وتقديم، علي أحمد باكثير، الدار المصرية للطباعة، ب ت، ص 26

وقد جاء في الأثرأن الرسول (ص) قال:" **قد بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء".**

أ- " بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس ".

ب- بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قالوا :يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال :الذين يزيدون خيرا وإيمانا وتقوى إذا نقص الناس من ذلك.

ج- بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا، فطوبى للغرباء، قالوا :يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال :" ناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم"(1).

يتضح لنا أن الغرباء فئة قليلة من أهل الورع والإيمان والإصلاح والتقوى استجابت للرسول **(ص)**، ونأت بنفسها عن الشبهات والشهوات حين أفتتن المسلمون بهاتين الفتنتين ، قال تعالى " **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب"** (سورة آل عمران 14).

كما ورد وصف جميل لأهل الدنيا وأهل الآخرة، أهل الجنة ونعيمها، التي وعد بها الله المتقين الذين زهدا في الدنيا، وأهل الدنيا الذين رضوا بها مستقرا ومقاما قال تعالى : " **يوم يتذكر الإنسان ما سعى، وبرِّزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى" (سورة النازعات 35-41).** فالزهد في دنيا المؤمن، والفقر والإملاق، والإنقطاع للعبادة واعتزال الناس في أغلب الأوقات أسلوب لحياة المغترب.

وعلى ذلك تكون الغربة بالمعنى الإسلامي غربة واغتراب عن الحياة ومظاهرها الإجتماعية الزائلة الزائفة، وإغتراب النظام الإجتماعي العادل، فالغرباء هم الذين جاهدوا النفس وتصدوا لمغرياتها.

1- **محمد علي بيوض** : الأحاديث القدسية الصحيحة، جمع وإعداد الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط2، 2002 ، ص 120
ينظر :أيضا ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين، ج 4 ، طبعة القاهرة 1292 ، ص 122.

ج- الغربة في المعاجم اللغوية الأجنبية :

إن الغربة في اللغة اللاتينية تستمد" معناها اللفظي من الإسم Aliénation وهي مأخوذة من الفعل Alienato الذي يعني تحويل شيء ما لمالكية شخص آخر أو يتعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد بدوره من صفة نهائية من لفظ Alius الذي يعني سواء كإسم أو صفة" [1].

كما نجد معنى الغربة والإغتراب يتداخلان في المعاجم الأجنبية عند الإستخدام" الحركي ألفوني Phono في اللغة الإنجليزية والألمانية، حيث المعنى يفيد التغريب أو السطو أو السلب أو عنوة. فاللفظ الألماني Fremd يماثل اللفظ اللاتيني Alienus واللفظ الإنجليزي Alien الذي يعني الإنتماء إلى الآخر أو التعلق به"[2].

ومما تقدم نخلص إلى أن معنى الغربة من الناحية اللفظية في المعاجم العربية تعني القهر والنفي والتشريد، وفي المعاجم الأجنبية تفيد التغريب والسطو والسلب، وهذه المعاني قريبة في معناها من بعضها السلوكي من بعض، وقد لازمت الإنسان منذ أول الخلق إلى يوم الناس هذا.

كما نجد أن لفظة غربة تتسع لكثير من المعاني الحسية والمعنوية، وإن تعددت استعمالتها، فذلك راجع إلى أبعادها اللغوية العديدة والمتنوعة.

~~فالمعنى اللفظي الدقيق" الألماني Fremd~~ يماثل من ناحية المعنى اللفظي اللاتيني Alienus ويعطي المعنى اللفظي الإنجليزي Alien نـفسه، الذي يفيد معنى الإنتماء إلى آخـــر أو التعلق به وقد وظف هذا المعنى اللفظي أصلا يشير بصورة حرفية إلى ما هو غريب وأجنبي، ويظهر من الكتابات أن استخدام هذا المعنى الحرفي للفظ الألماني Enfrendung الذي يفيد معنى الغربة والمعنى اللفظي الإنجليزي Alienation الذي يعني الإغتراب وما اشتق منهما من معاني متماثلة للغاية"[3].

1- ريتشارد شاخت : الإغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1980 ، ط1 ، ص.67

2- المرجع نفسه : ص.67

3- المرجع نفسه : ص.67.

واستعمل إصطلاح الغربة الألمانية شان إصطلاح الإغتراب في الإنجليزية في العصور الوســطى، وفي اللغتين كان يعني الملكية واستخدام مخالف من الناحية اللغوية، فالتغريب المتــضمن في هذا الإصطلاح لم يقصد نهائيا به النقل القانوني للملكية وإنما تلك الأنشطة التي أوردها العالم جريم أي (السطو والسلب والأخذ) وكان المقصود في اللغة الألمانية الوسطية، بذلك يتم تغريــبه هو بصفة عامة شيء ينتمي إلى شخص آخر و يتمثل التغريب في عملية أخذه أو ســرقته من ذلك الشخص، ومن بين الوصايا والشواهد التي تركها جريم، القول: " بأننا لا ينبغي أن نقوم بتــغريب أو إنتزاع ممتلكات جيراننا"[1].

كما استعمل إصطلاح " الغربة " في اللغة الألمانية الوسيطة أيضا بمعنى مماثل لإستعمال إصطلاح الإغتراب في اللغة الإنجليزية فيما يهم احتلال العقل وفيما يتعلق بغياب الوعي و الشلل المؤقت للحواس.

ومما تقدم يمكن القول إن إصطلاح الغربة قد تلاشى، و لم يصبح له وجود منذ القرن التاسع عشر، وقد أمكن استعمال لفظ الغربة في زمن يعود إلى القرن السادس عشر، وفيما يتعلق بالغربة التي تسود العلاقات بين الأشخاص، فقد استخدمه لوثر بهذا المعنى في ترجمته للعهد الجديد، لكن يبدو أنه في القرن التاسع عشر فحسب، بدأ فعلا استخدام هذا الإصطلاح يحرز رواجا ملحوظا، وعلى أية حال فإن " هايني " يشير في كتاباته لعام 1890 إلى أن هذا الإستخــدام كان مألوفا للغاية منذ بداية القرن وهو ما يؤكد أن هذا الإستخدام لم يكن مألوفا قبل ذلك[2]

هـــــذه هي الخلفية اللغوية العامة لهذين المصطلحين في المعـــــاجم الأجنبية التي يتعين في إطارها النظر إلى الاستخدامات الخاصة لهذين المصطلحين في المعاجم الأجنبية.

1- **ريتشارد شاخت** : الإغتراب، ص 68.
2- **المرجــع نــفسه** : ص 68.

ثانيا: مفهوم الإغتراب

لقدأفلحت مشكلة الإغتراب- بإعتبارها حالة مميزة للإنسان في المجتمع الحديث - في أن تفرض نفسها على كثير من مجالات النشاط الثقافي في الوقت الحالي، وأن تظهر كموضوع أساسي في الكتابات الأدبية والأعمال الفنية والبحوث الإجتماعية**...**

وأصبح المنطوي على نفسه يظهر في هذه الأعمال " **مغتربا من الناس، بل ومن نفسه ومشاعره وعواطفه، يعاني عذاب الوحدة والعجز عن الاتصال بالآخرين، وعدم القـــدرة على التعامل مع غيره"**[(1)].

والواقع أن مصطلح " **الإغتراب** " يعتبر اليوم من أكثر المصطلحات تداولا في الكتابات التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث، وبسبب تضارب الآراء والاتجاهات، فإن مفهوم الإغتراب لا يزال يعاني الكثير من الغموض، إذ من الصعب تحديد المفهومات الأساسية تحديدا دقيقا، ومن هنا تضاربت الأقوال و الآراء، ولكن على الرغم من هذا التباين والإختلاف في الرأي وأسلوب المعالجة فإن كل المحاولات التي بذلت حتى اليوم تدور حول " أمور معينة بالذات تشير كلها إلى دخول عناصر معينة في مفهوم الإغتراب، مثل الإنسلاخ عن المجتمع والعزلة أو الإنعزال، والعجز عن التـــلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائـــدة في المجتمع، واللامبالاة، وعدم الشعور بالإنتماء، بل، وأيضا، انعدام الشعور بمغزى الحياة"[(2)].

أ- الإغتـــــراب لــــــغة :

عند اطلاعنا على البحوث التي تناولت ظاهرة الاغتراب aliénation بالدراسة، تبين لنا تنوع استعمال المصطلح وتعدد معانيه وغموضه إلى درجة تكاد تنتفي معها قيمته العلمية، فكثير من الباحثين الميدانيين قد استثمروا هذا المصطلح " بمعنى انعدام السلطة والإنخلاع والإنفصام عن ألذات، و(الأنوميا) anomie، والإستياء أو التذمر والعداء، والعزلة وانعدام المغزى في واقع الحياة والإحباط، frustration"[(3)].

1- قيس النــوري : الإغتراب، (اصطلاحا ومفهوما وواقعا)، **مجلة عالم الفكر**، مج 10 أفريل- ماي- يونيو 1985، ص 3

2- المرجع نفـــسه : ص 68 وما بعدها

3- ريتشار شاخت : الإغتراب، ص 68

والواضح أن المضمون الجوهري يظهر فيها جميعا بشكل أو بآخر، ومما يسهم في تشتت معاني هذا المصطلح هو استعماله من قبل أناس غير المختصين، فقد تناول عدد من الفـــلاسفة وبعض المفكـــرين القـــدامى " كتوماس هو بز Thomas Hobbes وجـــان جـــــاك روسو ونيتشه وشيلر وهيجل"[1]. وحتى تتضح الصورة وتتبلور معاني هذا المصطلح نقف عند مضامينه.

1- الإغتراب بمعنى الإنفصال :

ويعني بالإنفصال " الحتمي المعرفي لكيانات أو عناصر معينة في واقع الحياة "[2] الشيء الذي يولد حالة من الإحتكاك والتوتر بين الأجزاء المنفصلة وقد برز هذا " المعنى في كتابات هيجل Hegel باعتبار الكون في نظره مكونا من أجزاء منفصلة ومتناقضة ومتفاعلة ولكنها متكاملة"[3].

2- الإغتراب بمعنى الإنتقال :

يكون في أو عند " إرتباطه بعملية التخلي renunciation عن حق من حقوق التعاقدية Contractuel right فإنه يكتسب معنى مختلفا عن معناه السابق"[4].

فالإغتراب في هذا المعنى، كان يقصد به نبذ أو مصادرة حقوق الملكية المتعلقة بأحد الأفراد، أو نـــقل هذه الحقوق من ذلك الفـــرد إلى شخص آخر، الشيء الذي يـــولد إحساسا بالغـــضب أو التسليم من جانب الأفراد الذين يواجهون مثل هذا الإعتداء.

3- الإغتراب الإجتماعي :

يمثل قمة الإضطرابات الإجتماعية من نـــاحية حـــركة ظواهرها وما تفرزه من " **تجـــارب مشبعة بالمرارة و الألم، ولدت هذه من رحم ظروف وأحداث لم يكن للإنسان يد فيها**"[5].

1- ريتشار شاخت : الإغتراب، ص 65

2- المرجـــع نفسه : ص 65

3- المرجـــع نفسه : ص 65

4- المرجـــع نفسه : ص 63
5- قيس النـــوري : الإغتراب، (اصطلاحا ومفهوما وواقعي)، ص 14

وإنما اصطلحت مجموعة عوامل على خلقها، وقد تجلت في كثير من الأحيان، في الغربة عن الأهل والنفي عن الوطن وفي الغربة عن المجتمع، ويمكن عد هذه الغربة **بغربة القهـــر.**

4- الإغتراب السياسي :

يشمل القضايا الإجتماعية، من الناحية السياسية، (فالفرد عادة ما يهجر بلادا كثر فيها الظلم والإستبداد)[1]، فيقرر أن يترك الأهل والوطن عنوة.

ب- الإغتـــــراب إصطـــلاحا :

إن الأصل اللاتيني لكلمة إغتراب هو alienatio أخذ هذا الإسم معناه اللغوي من فعل lienare بمعنى تحويل شيء ما لملكية شخص آخر أو الإنتـــــزاع، وهذا الفعل مستمد بـــدوره من فعل آخر هو alienus أي ينتمي إلى شخص آخر أو يتعلق به، وهذا الفعل الأخير مـــستمد بصفة نهائية من لفظ alius الذي يعني الآخر سواء كان إسمًا أو صفة[2].

وهـــــذه بعض معاني الإغتراب الإصطلاحية:

1- الإغتراب بمعنى نقل الملكية :

يرتبط أحد الإستعمالات اللاتينية الأساسية للفظي alienatio و alienare بما يتعلق بالملكية، وفي هذا الصدد فإن فعل alienare يعني نقل ملكية شيء ما إلى شخص آخر، والقيام بذلك يعني حرفيا جعل شيء ما منتميا إلى شخص آخر ومن هنا تأتي ملاءمة الإشتقاقات المستمدة من لفظ alienus، وبالمثل فـــإن بوسع المرء أن يعثر في اللغة الإنـــجليزية المنتمية إلى العصور الوسطى على فعل يفيد قيام شخص ما بتغريب شـــيء يمتلكه كالأراضي أو المنازل، وهكذا كان يمكن أن يؤثر شخص ما في القرن الخامس عشر بألاّ يقوم بتغريب قـــطعة أرض على سبيل المثال.[3]

1- فتـــح الله خـــلف : الإغتراب، مج 16، ع 2، سبتمبر 1985، ص 18
2- ريتشـــار شاخت : الإغتراب، ص 63
3- المرجـــع نــفسه : ص 63 وما بعدها.

ونجد في المعاجم الأجنبية لفظ الإغتراب والغربة يحملان هذا المعنى إلى اليوم، وما يزال الإصطلاح يعطي معنى النقل في كل من العمليتين.

2- الإغتراب بمعنى تلاشي المعايير:

يرجع الفضل لهذا المصطلح إلى " بحوث العالم الفرنسي دوركايم Durkheim عــن موضوع (الأنوميا) – التداعي - "anomie" [1]، ويشيــر بحثه إلى وضعية تنعــدم فيها المعـــــايير normes الإجتماعية لضبط سلوك الأفراد، ويمكن اعتبار فكرة الأنوميا التي نحتها المفكر دوركايم هي جزء يتكامل و مفهوم الإغتراب.

ج- الإغتــراب عند بــعض الفــلاسفة والمفكــرين:

ورد ذكر مفهوم الإغتراب بشكل أو بأخر في الكتابات الفلسفية واللاهوتية القديمة، وعند كثير من فلاسفة الإغريق منهم سقراط، وتظهر فكرة الإغتراب أيضا في سفر التكوين Genesis في الدراما الإنسانية المتعلقة بخلق و سقوط الإنسان، وإنفصاله المتمثل في قصة الإنسان والثمرة المحرمة والخروج من جنة عدن[2]. ولضخامة حجم ما كتب عن هذا الموضوع فإن هناك أسماء عديدة لمعت بإعتبارها تمثل الباحثين الذين تميزوا في بلورة هذا المفهوم، وأعطوه ما يتمتع به الآن من أهمية علمية.

1- الإغتراب عند هيجل :

يعد هيجل رائد من رواد موضوع الاغتراب، و يعتقد " أن العالم الذي يعيش فيه الإنسان هو إلى حد كبير من ابتكار أو إختراع الإنسان نفسه، وأن النظم السياسية والحضارية والإجتماعية تمثل الجوهر الإجتماعي الذي تمخض عنه هذا الدورالإنساني"[3].

1- ريتشـــار شاخت : الإغتراب، ص 249

2- المرجــع نــفسه : ص.79

3- المرجــع نــفسه : ص 120

ويلاحظ أن هيجل يستعمل مصطلح " الإغتراب entfrendung بصورة مزدوجة، فهو في بعض معالجاته يستعمله في سياق الإنفصال séparation، وفي مواقع أخرى من بحوثه يعطيه معنى التخلي أو التنازل relinquishment"[1].

وفكرة الإنفصال تفيد علاقة متحللة بين الفرد وأعضاء مجتمعه، ويؤدي هذا الإســتعمال إلى مفهوم الإنفصال عن النفس أو الإغتراب الذاتي self-alienation الناشىء من تفاوت بين ظروف الفرد الحقيقية و طبيعته الجوهرية، الأمر الذي يقود إلى الشعور بالإغتراب الذاتي.

2- الإغتراب عند كارل ماركس :

يعد كارل ماركس من رواد البحث الهادف لتحليل مفهوم الاغتراب الذي منحه طابعا " سوسيولوجيا، بعد أن كان مفهوما ميتافيزيقيا ولاهوتيا... وقد برز اهتمام ماركس بهذا المفهوم بصورة خاصة و قوية في مؤلفه (مسودات اقتصادية و فلسفية (Economic and philosophical manuscript) المنشورة في عام 1844"[2].

وربط مفهوم (الإغتراب) من زاوية الأشياء التي يتم إنتاجها، ويتساءل : كيف يستطيع العامل أن يقف في علاقة غريبة أو "مغتربة alienated relationship إلى الناتج الذي يصنعه إذا لم يكن قد عزل نفسه عن عملية الإنتاج نفسها"[3].

ومن هنا توصل ماركس إلى أن كل عمل هو بالضرورة عمل مغترب، لأن الإنسان سيكون محكوما عليه دائما بأن ينفصل عن نتائج عمله.

يتضح مما سبق أن الإغتراب في تفكير ماركس يميز تلك الحالات الخاصة بالفرد والمجتمع التي يرى دوركايم علاجا للأنوميا، الناجم من الوضعيات التي يوجدها تــقسيم العمل، وتعمل على الإنسجام والتطابق بين سلــوكهم والقواعد الإجتــماعية المستقلة عن إرادتهم وتــجعلهم يفكرون في حدود أدوار محدودة " فالفرد الذي يعاني من الأنوميا anomic mon في إعتقاد دوركــايم،

1- **ريتشار شاخت** : الإغتراب، ص 68

2- **المـــرجع نفسه** : ص 124 وما بعدها

3- **المـــرجع نفسه** : ص 125

هو الفرد الذي لا يخضع لمعايير من أي نوع، والذي تعوزه قـــواعد يعيش بها لتنظم رغباته و توجه أعماله، وأفـــاق محددة يهتـــدي بها فكريا وسلوكيا "[1].

بينما يرى ماركس" إن الفرد في هذا النظام، والذي لا يستطيع الهروب من مجال الفعاليات المحدودة والمحصورة والتي تفرض عليه، هو إنسان يعاني من الإغتراب"[2].

هكذا فإن الاغتراب عن الآخرين الذي يتحدث ماركس عنه يتعين أن يفهم باعتباره يتضمن غيابا شاملا للاحساس في الصحة وتقويما للآخرين باعتبار أنهم ليست هم أهمية إيجابية، تتجاوز أهميتهم كوسائل للغايات الشخصية وعداءا يقوم على الاحساس بالتنافس وتوقع الاستغلال المضـــاد، وهذا الاغـــتراب يضرب جدوره في التمحور حـــول الذات الذي لا يلتفت فـــحسب إلا إلى التمييز الخاص وكذلك في مفهوم عن الذات يستبعد أي فكرة للاجتماعية.

وفي هذا الصدد الأخير فإن الإنساني الأناني الذي يغترب عن الآخرين لدى ماركس مماثل للفرد المتمحور حول خصوصيته عند هيجل، والذي تتمثل علاقته بالبنية الاجتماعية في "الاغتراب "

ولـــعل الإختلاف بينهما يرجع لأسباب أهمها أنهما كتبا عبر مراحل مختلفة للصناعـــة.

1- **ريتشار شاخت** : الإغتراب، ص 146

2- **المرجع نـــفسه** : ص 148

الفصل الأول :

ظاهرة الغربة في الشعر العربي الحديث

ثار الشعراء على شكل الشعر ومضمونه، فمن جانب المضمون حاولوا أن يجعلوا منه رؤية لواقع الحياة الجديدة، كما يراها الشاعر و يحس بها، فكان الشعر في هذه المرحلة تشخيصا لهموم وآلام و أوجاع الإنسان العربي بصفة خاصة وصورة صادقة عن معاناة الإنسانية بصفة عامة، إنه انعطاف يعكس مشاكل القرن العشرين، و يبرز أدرانه وأمراضه الإجتماعية، وسلبياته الحضارية، وتحولات واقع الكائن الحي بين الحرب العالمية الأولى والثانية، وما صاحب هذه الأخيرة من ويلات وظروف تمثل أحلك فترة من فترات التاريخ العربي، على المستوى الثقافي، كان صراع الأفكار والآراء، وعلى المستوى السياسي كان تناحر الأحزاب، وعلى المستوى الإقتصادي كان التكتل الإيديولوجي، وعلى المستوى الإجتماعي كان المحتل الإستعماري ومشاكله.

في هذا الزخم وداخل هذه الفضاءات كان الشعر رصدا للغربة والتمزق والخيبة، وتعبيرا عن وضع الجيل والإنسان كله، فهو فضاء و دنيا من الإضطراب والقلق والاغتراب، إنه معايشة للإنسان الذي فقد الإيمان أمام كل القيم و المبادئ وإن تعددت واختلفت مصادرها.

ومع ذلك كان بصيصا لتآزر بين النضال الثوري والبراءة، والقوة والضعف، وبين الرجولة والطفولة، يقدمان عالما ثريا متنوعا، يهدف إلى استكشاف حركة الحياة ويتعرف على تناقضاتها، فانصهر الشاعر العربي في حماة الحياة، يود أن تكون حياته وفنه كما يقول عباس العقاد: " شيئا واحدا، لا ينفصل فيه الإنسان الحي عن الإنسان الناظم، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره، وموضوع شعره هو موضوع حياته، فديوانه ترجمة باطنية لنفسه...لا تخفي فيها ذكر خالجة أو هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان"[1].

فبقدر ما يعبر الشاعر عن الزفرات المكبوتة، فإنه يعبر كذلك عن إنسانية الإنسان بما تحويه من هموم ومعتقدات وضرورات الحياة.

1- **عباس محمود العقاد** : ابن الرومي، حياته وشعره، المكتبة التجارية، القاهرة، 1963، ط 5، ص5

وإذا كان التقدم العلمي قد أنار عقول الإنسانية وجعلها تعرف اليوم أكثر من ذي قبل، فإنه (التقدم العلمي) لم يوفق بعد في تقديم إجابات دقيقة مقنعة لما يمكن أن يكــون عليه الكائن الإنسان في ظرف زمني مستقبلي ما، فازداد خوف الإنسان من المستقبل ودفعه هذا الإفراز الاضطرابي المركب إلى التساؤل باستمرار عما يخفيه ويخبئه له المجهول أو القدر، ويولد لديه أنماطا من الغربة وإحساسا عميقا بالحزن والضياع، وهذا ما قصده جون فون زيلسكيJean Von Ziliski بقوله " إننا نبكي بكاء يتعذر ضبطه عند التفكير في الفرق بين الإنسان في تصرفه الشائع و بين ما يمكن أن يكون عليه... وفي وسط الفجوة مــباشرة يختفي الكشف الإنفعالي الجوهري للخلق المأساوي الفني"[(1)]

فالتشبث بالحياة يبقى دائما وأبدا القيمة العليا، فهو الأمل أو القانون العام الذي يتمسك به الإنسان منذ أول خلق و إلى أبد الآبدين فهو " أقدم فضيلة ملازمة للحياة، والفضيلة التي لا غنى عنها أبدا في الوقت ذاته"[(2)].

فجوهر الشعر هو رؤية الحياة فاعلة داخل أعماق الشاعر، ومنفعلة تجاه مراكز المد والجذب المحيطة به، إن الشعر هو " الصورة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه.... ليغذى شاعريته بجميع الأفكار النبيلة، ودواعي الإيثار التي تنبعث من الدوافع المقدسة، وأصول المرؤة النبيلة، وتشف عن جمال الطبيعة والنفس"[(3)].

ومع الإيمان بإختلاف الأجناس الأدبية، كل حسب طبيعته الفنية التي تتطلبها الرؤية والصياغة، فإنها – الأجناس الأدبية- كما يرى عز الدين إسماعيل " تصبو إلى التعبير الدرامي....أعلى صورة من صور التعبير الأدبي"[(4)].

1- جون فون زيلسيكي : (المأساة والخوف) ، طرجمة عارف الحديفة، وزارة الثقافة، دمشق، 1982، ص ص 35-.36

2- المرجــــع نــفسه : ص .39

3- غــنيمي هـــــلال : النقد الأدبي الحديث، دار النهضة مصر، 1979، ص 263.

4- عز الدــين إسماعيل : الشعرالعربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة بيروت، ط4 ،1981 ، ص278

فالشعر يكتب ويولد كل يوم منذ هوميروس ومع ذلك لم يتغير كثيرا، بل إن جوهره صراع الكائن الإنساني، وسعيه نحو ميادين الخير، والعدل والحق والجمال، فهو كما يقول علي محمود طه: رسالة كالرسالات الدينية تحفظ القيم الإنسانية النبيلة وتدافع عنها.

هبـــط الأرض كالشجاع الســـني   بعـــصا ساحـــر وقـــلب نبـــــي
لـــمحة من أشعة الروح حلـــــت   في تجالــــــــيد هيـــكل بشـــري
ألهــــــمت اصغريه في عالم الحكـــ   ـــة و النـــور كل معنى ســــري
وحبته البيان ريا من السحـــــــــر   به للعقــــــــول أعـــــــذب رٌي[1].

ومعظم الرومانسيين يرون تحديد مهمة الشعر بقيم الحق والعدل و الخير والجمال وذلك لارتباطها مع بعضها، يقول عباس محمود العقاد " إن استمتاعك بالحق لا ينفي استمتاعك بالجمال وكلاهما يسعيان في طريق واحد ويلطفان النفس بلذة متشابهة، فإذا بلغ الجمال أقصى أثره في النفس لم يصرفها عن الحق، وإذا بلغ أقصى أثره في النفس لم يصرفها عن الجمال، ولا موجب لترك أحـــديهما من أجل صاحبه أو التفريق بينهما في ذوق الفنان القدير والقـــارئ الخبير"[2]

فالظاهــــرة الشعرية والحالة هذه، حالة نفسية تتولد من إحساس الشاعــــــر بعد أن تعيش في عوالمه الباطنية، وكيانه الداخلي وتنمو كاليخضور اليانع فيه، حتى تؤدي معناها ومغزاها في صنع نسيج الحياة من حوله، لقد تطور الشعر واتجه بصورة لافتة إلـــى المنهج الدرامي الإغترابي المأساوي، أي إلى كتابة النماذج الشعرية الفكرية الحزينة، مستأنسا ومستنجدا بعناصر التجربة الشعرية ذاتها، كالموضوع والصورة واللغة والوزن، ومستنجدا بالعلوم الحديثة في ميدان العلوم الإنسانية أيضا.

فقد استطاعت الدراسات الجمالية والنفسية والإجتماعية المتعلقة بالفن، أن تضيق الهوة بين الفنون، وأن تجعل الأجناس الأدبية تستفيد من بعضها البعض، وذلك باعتبارها أبنية تدور في فـــلك

1- **علي محمـــــود طه** : الديوان، الأعمال الكاملة، مج1، دار العودة، بيروت 182، ص 9

2- **عباس محمود العقاد** : ساعات بين الكتب، دار نهضة مصر، ط3، 1950، ص 44.

واحدة، فقد يستفيد الشعر من استخدامه القصة في تعميق البعد الــدرامي لما لها من طــاقة وحيز في هذا الميدان، بيد أن استفادة الشاعر بتقنيات الأجناس الأخرى، طريق وعرة ومحفوفة بالمخاطر، لأن الصعوبة تكمن كما يقول محسن أطميش " في القدرة على الإمساك الواعي لمتطلبات الفنين فلكي يكون الشاعر قاصا أو مسرحيا في الوقت ذاته، فإن عليه أن لا يجعل أيا منهما على حساب الآخر "(1).

وهذا ما وقع فيه **مفدي زكريـــا** في قصيدته الحزينة التي مطلعها :

هو الدهر ما أبقى بمقلته دمـــعا — وتلك الليالي السود جرّ عَنَه النّزعا

فأصبح يبكي صامـــتا بقــريحة — تجمعت البلوى على وأدهاجـــمعا

كئيب يناغي كـــل تضو معذب — بمهجته الحرّى على وطـــــن يُنعى

وينظر مكلـــــوما إلى حظ أمه — ويصفعها، ويلاه، قادهًا صفـــعـــا(2)

فقد اجتهد الشاعر أن يكون في هذه القصيدة شاعرا وقاصا في الوقت نفسه، ولكن عند قراءة القصيدة ندرك مقدار افتقادها، عناصر الفن القصصي، وإلى دخولها في جزئيات مملة تبعد كثيرا عن الشعر.

إن استفادة الأجناس الأدبية من يعضها البعض لا يعني انصهار أحدها في الأخر بل يعني وحـــدة النـــظام الفـــني وحقيقته الـــالدة، فأرسطو مثلا عندما تحدث عن المأســـاة كأنه يـــشير إلى الخصائص الجوهرية للعمل الفني بصفة عامة، وهذا ما نتفهمه ونستشفه من قوله عن المسرحية " يجب أن تؤلف على نحو يجعل من يسمع وقائعها يفزع منها وتأخذه الرحمة بصراعها "(3).

فلابد من أن يثير أي عمل فني عاطفة الرحمة والخوف، وأن يحرك العواطف الإنسانية وأحـــزانها، ومع ميل التعبير الدرامي إلى التفـــاصيل، فإن الشعر لا يعتني بها إلا من حيث هي تعميق

1- محـــــسن أطميش : دير الملاك ،"دراسة نقدية "، منشورات وزارة الثقافة ،بغداد، 1982، ص 38.

2- مفدي زكريـــــا : أمجادنا تتكلم "جزائر ما أشقاك بالجهل " ، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر 2003، ص ص 82-83

3- ارسطو طـــاليس : فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص38.

للجوهر الشعري، لأن الحس الدرامي في الشعر يتفوق" على قدرة الشاعر على اختيار ما هـــو جوهري- على الأقـــل من منظوره الخاص-، والإستغناء عن التفصيلات غير الجوهرية"(1).

إن ظـــــاهرة الغربة في الشعـــر لا تتولد من الجـــزئيات و التفاصيل، وإن كـــانت تسهم في بلورتها بل تتولد من علاقة التأزم القائمة بين الشاعر والكون المحيط به، فهي ترتبط دوما بالغربة وبالحزن، وتبعث في بعض الأحيان، إلى التذمر والإحباط، لأنها تجسد الإنهيار الذي يعجز الشاعر عن التحكم فيه أو ترميمه، وفي هذا ما يعطي لها قيمة ودلالة ومغزى لدرجة الإحتذاء بها كغيرها من تجارب الأنبياء والرسل، الذين عانوا في سبيل تبليغ الدعوة أو الرسالة المنوطة بكل واحد منهم.

إن ما يهم في ظاهرة الغربة هو حالة الإنسان والموقف الذي يتخذه إزاء الأحداث والخطوب التي تعترض سبيله، إنطلاقا من صورة القدر أو المجهول- الذي لا راد له- التي لا تفجع الإنسان بمظاهرها المختلفة وتجعله يتساءل في كثير من الحيرة عن مصدر غربته وبواعث فواجعه.

والنظرة التاريخية تجعلنا ننطلق من الفلسفة اليونانية التي نظرت إلى الخطيئة، واعتبرتها بـــداية البـــدايات لنظام الكـــون، ومنها جاءت كل الأهوال والمتاعب والفجوات التي تضعف من الإنسان، وهذا ما ذهب إليه سقراط بقوله " إن مقامنا نحن بني الإنسان عبارة عن سجن و واجب الإنسان ألا يحرر نفسه أو يهرب منه "(2).

وداخل هذا الحيز كانت تدور أغلب الماسي والفواجع اليونانية، فأبطال سوفوكليس مثلا يتلقون العذاب حيث لا تتوفر الحرية يقول أحد أبطاله " لا تحاول أن تبدي لي أني كنت أستطيع أن أفعل خيرا مما فعلت "(3).

ولكن مع بداية العصر المسيحي توسع أفق المأساة، وارتبط بالخلاص الذي جاء به السيد المسيح-عليه السلام- في رسالته" الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن به قد دين"(4).

1- **عز الدين اسماعيل** : الشعر العربي المعاصر و ظواهره المعنوية و الفنية، ص283.

2- **أفـــلاطـــون** : كتاب الفيدون، ترجمة و تحقيق على سامي النشار و عباس الشربيني، دار المعارف، ط4، 1965، ص29.

3- **ســوفوكـــليس** : أوديب ملكا، ترجمة محمد صقر خفاجه، الهيئة العامة ، 1984، ص88.

4- **الكـــتاب المقدس** : انجيل يوحنا ، الإصحاح 3 (18) .

فما على الإنسان إلا أن يؤمن به ويحمل صليبه وإلا وقع في براثن الغربة والمأساة وأهوالهما ففي هذه النظرة ومثيلاتها ما يكشف عن القلق المظلم، وانطواء النفس وتساؤلها عن مصيرها واغترابها أمام تمزق الواقع، فالحياة البعيدة عن الإيمان باهتة لا طعم لها، فهي عقيمة، لذا وجب علينا - كما يرى سورين كيركغارد Soren kierkegard -" أنقفز بين يدي الله إن كان علينا أن نهزم خوفنا الميتافيزيقي "[1].

وقد حاول سورين – الذي يعد أبا الفلسفة الوجودية المسيحية، أن يحدد القنوات الأصلية التي " تمد الإنسان بأسباب لحزن، فوجدها في ثلاثة عناصر هي المفارقة. اليأس والقلق "[2].

نظرا إلى المفارقة من خلال نظرة الإنسان العقلية لمشكلة الوجود فهي الطرف المضاد لكل ما هو عقلي...لا يسيطر عليها الفكر لأن الإيمان القائم على المفارقة يبدأ من حيث ينتهي الفكر"[3]. وقد دلل على هذا القول بصورة السيد المسيح - عليه السلام- الذي يكشف في إنسانيته ورسالته " عن اللا تشابه المطلق في التشابه المطلق، كما أنه يكشف لنا عن طبيعتنا الحاصلة على الخطيئة وطبيعتنا الجديدة في نفس الوقت"[4]. فالعلاقة بين الفرد وخالقه تبدأ بالقفز بين يدي الله، لأن العقل عاجز عن التفكير في ذات الله أو الوصول إليه.

وبهذا تكون مخاطرة الإنسان نحو الإيمان هي الخطوة الأولى للقضاء على الغربة والإحساس باليأس والذعر المصاحب لهما اليأس والغربة منبعيهما الذات الإنسانية [5]

نظرا لاحتوائها على عناصر متضادة مثل الضرورة والحرية، والمتناهي واللاتناهي، وعندما يحاول المرء تحقيق ذاته بمعزل عن الله يقع في غربة دامسة على صورتين :

1- **علي عبد المعطي أحمد** : سورين كيركغارد،، مؤسس الوجودية المسيحية، دار المعرفة السامعية، الاسكندرية 1985، ص 244.
2- **المرجع نفسه** : ص 237، و ص 280.
3- **المرجع نفسه** : ص 238
4- **المرجع نفسه** : ص ص 238- 239.
5- **المرجع نفسه** : ص 366 وما بعدها

الأولى : عندما لا يرغب المرء في تحقيق ذاته.
الثانية : عندما يرغب المرء في تحقيق ذاته بمعزل عن الله.

ولعل أعظم صور الغربة هي الغربة المدركة الواعية، حيث الخوار التام، وإلقــــاء المســؤولية على الظــروف الخارجية، في الوقــت الــذي تكون فــــيه الذات المسئــولة الأولى عن هـــــذه الغــربة، وهــذا مصــداقا لقـــــوله تعالى" **إن الله لا يغيـــر ما بقـــوم حتى يغيـــروا ما بأنــفسهم**" (سورة الرعد الآية 249).

فتناسي دور العناصر الباطنية، وتأثيرها في تغيير شخصية الإنسان، يولد لديه مركبا للنقص، ويدفعه بالتالي إلى الغربة والإنعزال والإغتراب، وهذا ما سنجده عند معظم الكتاب والشعراء الرومانسيين ، أما القلق فيربطه سورين كيركغارد بالخطيئة والإختيار والحرية، ويعرفه بقوله " خوف وانجذاب في وقت واحد نحو بريق الإمكان.... فهو اشتهاء لما نخافه وخوف لما نشتهيه "[1].

فهو يبرز في صور شتى، وله علاقة وطيدة بالحرية التي هي فعل الممكن، والاختيار، وهـــنا تكون المخاطرة المثيرة المــــؤدية للقــــلق ذلك أن اتخاذ قـــرار الإختيار وبالتالي الفعل من أصعب الأمور، مهما كانت طبيعة هذا القرار وحجمه، غير أن سورين يركز على ثلاث قضايا هي :

1- الزواج باعتباره علاقة أبدية عند المسيحية.
2- الصداقة و كيفية المحافظة عليها، ووفق أي المعايير.
3- المهنة باعتبارها مستقبل الإنسان، وطريق استمراره في الحياة.

هذه هي منـــابع الغربة وبذور الحزن كما تراءت وحددها سورين كيرك غـــارد، وهي في مجملها تكشف القناع عن نسيج التوتر وخلايا الإنفعال ومواطن الصراع في حياة الإنسان : فالقلق والتوتر والخوف لا بد أن يعتري الإنسان لأنهما جزء من إشعاره بوجوده، فالقلق هو " الطـــابـــع

1- عـــلي عبد المــعطى : سورين كيركغارد ، ص 374.

الأصلي في الوجود حتى في أشد الناس طمأنينة بل و في السعادة نفســـها، و إن اختلف مقدار الشعور به فيما بين الناس"[1].

لقد عرضنا لهـــذه الأفكـــار باعتبارها منبع الفلسفة الـــجودية التي أثرت إلى حد كـــبير في الفكر والأدب الحديث والمعاصر، لكونها تنصب أساسا على الإنسان، وتميط النقاب عما يختلج النفس من مشاعر مبهمة، ويباغت الإنسان من مواقف لا يجد لها تبريرا منطقيا أو سببا ظاهريا، فالشعور بالغربة والحزن أصبح أحد مقومات الحياة اليومية ولصيقا بطبيعة الذات، يقول أندريه مالرو andre Malrau في رواية قدر الإنسان : " الجميع يتعذبون، وكل منا يتعذب لأنه يفكر... والواعي بالحياة لا يمكن أن يكون قلقا "[2].

ولا يفوتنا أن نشير إلى اهتمام الإنسان بقضية الزمن، ذلك أن أهم الحركات العلمية والأدبية والفلسفية جعلت منها محورا، وقاسما مشتركا، فالزمان " هو نسيج حياتنا الداخلية التي تنساب المياه في مجرى النهر سريعة عندما تكون زاخرة... وبطيئة عندما تكون ضحلة هكذا إيقاع واقعنا النفسي، يركض عندما يكون غنيا حافلا فيكر معه الزمان ويخبو عندما يكون فقيرا مجدبا، فيزحف معه الزمان الذي هو حبل يتجاذب به الحزن والفرح القلب البشري" [3].

ففي هذا المفهوم نشأ التفكير الحر عند الإنسان الحديث، ففتح أمامه طريقا صعبة نحو سلسلة عنيفة من التفاعلات النفسية والإجتماعية والثقافية والسياسية تجمعها خاصية واحدة هي الإحساس بالغربة في الحياة، وتمثل هذا الإحساس معناه الإلتزام بالقضية الإنسانية المتجسدة فـــيما يـــؤول إلى السقـــوط، فاحتقـــار المجرم – مثلا- لا يعني – بالضرورة - الجريمة في حـــد ذاتـــها وحسب بل الوعي بها الذي هو وعي بسقوط القيم والمفاهيم الخلقية، وبالتالي انهيار قواعد ودعائم المجتمع جملة، فالشاعر يتلمس في ظاهرة الغربة الخطر الذي يتعرض له المجتمع ويهدد كيانه، وإن كان منطلقه ذاتيا،

1- عبد الرحمن بـــدوي : الزمان الوجودي ،دار النهضة، مصر 1945، ص 153.

2- انـــــدريه مـــالرو : قدر الإنسان (رواية) ، ترجمة فؤاد كامل – الدار المصرية – 1965، ص 322.

3- ســـمير الحاج شاهين : الحـــظة الأبدية ،دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1980، ص 15.

فإنه يذكر الإنسان بضعفه وبالحلقة المبتورة في حياته، فالقيم الأخلاقية الكبرى التي تتشبث بها هي - في الحقيقة- ترميمات نسد بها الفتحات والفجوات التي لا نستطيع السيطرة أو التحكم فيها، لقد كانت مشكلة الأخلاق قائمة منذ القدم وستستمر ما دام في الوجود كائن اسمه الإنسان، إنها تبقى الينبوع الذي يعطي للحياة معناها، وفي زوالها واندثارها ما يولد جروحا غائرة و أحزانا عميقة وغربة أكيدة.

إن الفن الشعري يجب ألا ينصرف إلى الجمال فحسب، بل إلى الأسرار التي تختزنها النفس الإنسانية، والطبيعة والظواهر الإجتماعية، وينبغي أن يكون في الظاهرة الحركية الإبداعية النموذج الإنساني، فالشعر كما يراه كـولوردج " إدراك عـاطفي للـحـقيقة، وغايته أن يعرض التجربة الإنسانية... أن يعطينا قيما و يبصرنا بحقائق الطبيعة والنفس البشرية، وذلك ليس كما هي في خضم الحياة، وإنما بعد أن يحيلها الشـاعر إلى شكل موحـد ذي مغزى أو معنى للشـاعر والقـارئ على السواء"[(1)].

وهناك علاقة تربط بين الحس الإغترابي ونشوء الحضارة " تبدأ الحضارة منذ أن يعي الإنسان مكانته في العالم فيتبين الفجوات الفاجعة في وجوده، كالموت والألم والخطيئة، ويدرك في الوقت نفسه أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتمـرد على الواقع ويتدخل في صنع مصيره"[(2)]. في هذا المعنى يمكننا تفسير فكرة الرفض والإحتجاج التي تسبق كل بعث حضاري، ويمكننا أيضا الإقتراب من فكرة ابن خلدون في أصل نشأة الحضارة، فأوضاع البداوة هي التي تفرز الرفض وتدفع المرء إلى البحث عن حياة أفضل على الرغم من كون العصبية عنده أقوى الحوافز، فهي تتجاوز طبيعتها بالرفض استنادا إلى قول ابن خلدون" الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية"[(3)].

وقد ربـط عبد الرحمان بدوي بين الإحـساس بالغربة المأسوية، ودرجة التطور الحضاري

1- محمد مصطفى بـدوى : كولردج ،"نوابغ الفكر العربي "، دار المعارف، مصر، 1957، ص .75

2- صـدقي اسـماعيل : المؤلفات الكاملة ، المجلد1، مطابع وزارة الثقافة ، دمشق1977، ص .196

3- ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة ، دار الكتاب، بيروت، ط 2 ،1979 ، الجزء 1، ص 277.

عندما قال : " فمن الملاحظ أن الشعوب البدائية قليلة الشعور بالألم ... تراهم محتفظين دائما تقريبا بنوع من المرح الهادئ حتى إن موقفهم من الموت... موقف مليء بالإبتسام وعدم الإكتراث، والحال على عكس من هذا بالنسبة للمتحضر، فهو سريع التأثر بالتألم، مع أنه أقل تعرضا للأخطار الخارجية من البدائي... هذه الظاهرة تحتاج إلى تفسير... هو إن تحقيق الامكانات ضئيل لدى المتحضر، لذا كان الأول أقل تعرضا للمقاومة، وكان الثاني أكثر، فالألم يزداد بازدياد التحضر"[1].

فكلما ارتقى الإنسان في السلم الحضاري إزدادت مطالبه، وتجاوزت طاقته، فأزداد تألمه وظهرت غربته واشتد اغترابه، والشاعر بإعتباره الأندر والشاردة الذي يعاني هذه الظاهرة بحساسية متفاوتة، يكون إدراكه لها أعمق وأدق نفوذا من الإنسان العادي، لأنه على دراية بالصورة الكلية لدهره، وفي هذا المعنى يقول محمد العيد مخاطبا جبل (بومنقوش) ببسكرة:

رماني حول سفحك موج دهري   أسيـــــرا بعد أحداث طــــوال
فــعشت به كيونس في ســقام   لــدى قومي و لكن في انعــزال
أحال إقامتي حبــرا كـــــقبر   حملت إليه كالجثث البـــــوال[2]

وهذه النظرة القاتمة التي فرضتها ظروف الأدهر ونوائبه، لم تكن وليدة ظروف حياة الشعراء فحسب، وإنما كانت ظاهرة العصر وسمته المطلقة، وتعبيرا صادقا من الأعماق، عما كان يعانيه الإنسان من غربة وتمزق واضطراب، فكان الشعر، مرآة عاكسة، معبرة عن فواجع الحياة، وتعبيرا عما يقاسيه الوجدان الأخرص من بؤس وقهر وحرمان، لذلك تحولت نغمات الشعر إلى ألحان لمواكب جنائزية مفعمة بالغربة والحصر والإنصهار والضياع.

فلو عدنا إلى شعر العرب، حتى يوم الناس هذا، لتكشف لنا انكسار الإنسان أمام عوادي الدهـــر وخطوبه، فــمثلما يكون الإنــدثار واضحا على المجسمات المــادية بــما في ذلك جـــسم الإنـــسان، يكون أيضا إندثار الأفكار التي لا تخدم الإرادة الإنسانية فالبقاء يكون لما يقوّي

1- **عبد الرحمن بــدوي** : الزمان الوجودى، ص 140.

2- **محمد العيد آل خليفة** : الديوان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1965، ص 422.

أمل الإنسان إزاء الخطوب وأيضا لما يجعل الإنسان يستقبل المتاعب بالحبور والترحاب يقول يحي بن زياد :

ولما رأيت الشيب لاح بياضه بمفرق رأسي قلت للشيب مرحبا[1]

في هذا المعنى ما يفسر مواضع الزهو والفخر التي تطالعنا كثيرا في المراثي العربية بالرغم من أن الموقف يستدعي للحزن العميق أمام الفاجعة، ففي قصيد أبي ذؤيب الهذلي التي مطلعها :

أمن المنون و ريبها تتوجــــع والدهر ليس بمعتب من يـــجزع
والدهر لا يبقى على حدثانه مستشعر حـــلق الحديد*مقنـــع[2]

صور عديدة لما يستهدف الإنسان، وتجسيد حي لعبثية إنتصار الإنسان في هذه الدار الأولى، فقد أكد العبثية من خلال مواطن القوة والفتوة، ثم ما تلاهما من وقع الفاجعة أمام الزمن الذي هو كفيل بتغيير موازين الحياة مهما تراءت أنها في صالح الإنسان.

إن موقف الإنسان العربي من القدر، كما تجسد في الشعر، موقف مجالدة واحتمال، فالإنسان وجد و عليه أن يحمي قداسة هذا الوجود، وأن يتجلد ويعتصم بالصبر على ما ينتابــــه من مصائب، وأيام العرب ما هي إلا نوع من هذا المطلب، إذ الحرب غدت عندهم من أساسيات الوجود ومقوماته، لا نرى فيها غاية حاسمة للصراع إلا الحرب في حد ذاتها، فالانتصار لا قيمة له أمام استمرار الحرب، و بمجيء الإسلام تغيرت الموازين والمفاهيم وحلت نظرة جديدة للإنسان ومكانته في العالم. قال تعالى :" **ولقد كرمنا بني آدم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا** " (سورة الإسراء الآية 70). ومع ذلك بقي الإنسان مثقلا بالفجوات الحزينة، وعلى رأسها (مقدمتها) الموت، ثم التساؤل الإنساني- الذي لا ينقطع- عن الكيفية التي يراه الله عليها، وما هي، أو ما هو المصير الذي ينتظره؟

1- أبــو تمـــام : ديوان الحماسة، مراجعة، محمد عبد المنعم خفاجى، مطبعة صبيح، ج2، 1955، ص 7

*- لباس المقاتل مدجج بالحديد لحماية الجسم في ساحات الوغى.

2- حسين عطوان : الشعراء الصعاليك، في العصر العباسي الأول، دار الطليعة ، بيروت، ط2، ص 102.

من هنا كان منبع الغربة في الحياة الإسلامية فهي كما يقول إسماعيل صدقي " تجربة انتظار تزدحم بأعنف ألوان الشعور بالمسؤولية تجاه القيم الروحية التي تمثل المصير الخلقي للإنسان"(1).

لقد إرتبط الشعر منذ البداية بالدعوة و ركز على التقوى، والجهاد في سبيل الله، ولكن بعد انتشار الإسلام وتوسع أطراف الدولة الإسلامية، بدأت الفواجع تطل على الحياة العربية والإسلامية، ابتداء من موقعة صفين إلى مقتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما -. تقول زوجة الوليد (2) ترثي أخاها عمرو بن سعيد بحرقة، بعد أن قتله عبد الملك بن مروان وهي بذلك تعلي غربتها التي سببتها الفواجع السياسية.

أيا عين جودي بالدموع على عمرو ... عــشية أوتينا الخلافـــة بالقهــر
غــدرتم بعمر ويا بني خيط باطـــل* ... وكـــلكم يبني البيوت على الغــدر
كان بني مــــروان إذ يقتلــونـــه ... خشاش من الطير اجتمعن على صقر
لحا الله دنيا تعقب الذل أهـــلــها ... وتـــهتك ما بين القـــرابة من ســـتر.

وفي العصر العباسي، أسهم الشعر في تعميق تصدع الإنسان العربي أمام الحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية، وإن بدت الظواهر الإغترابية في الشعر أكثر وقوعا على الأفراد منها على المجتمع. فإبن الرومي (3) عمق فكرة الموت عندما فجع في إبنه الأوسط محمد، يقـــــول :

توخى حمام الموت أوسط صبيتي ... فالله كيف إخـــتار واسطة العقد
ألح عليه النـــزف حتى أحـــاله ... إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه ... تساقط ذرٌ من نـــظام بلا عـــقد

1- **اسماعيل صـــدقي** : المؤلفات الكاملة، مج1، ص 230 .
2- **عبد البديع صـــقر** : شاعرات العرب (تحقيق) ، منشورات الكتاب الإسلامي، ط 1 ،1967 ، ص 482.
*- **بنو خيط باطـــل** : كنية تطلق على الخليفة الأموي مروان بن الحكم، لطوله و إضطرابه...
3- **حـــسين نـــصار** : **ابن الـــــرومي** (تحقيق) ، الهيئة العامة بمصر ، الجزء 2، 1973، ص 624 وما بعدها

فالموت هو صاحب الكلمة، متى شاء جاء، وهي غربة الغُرَبِ، والشعر يسمو لإدراك معناه وما يماثله من قضايا، فقد استطاع أبو العلاء المعري كما يرى صالح حسن البظّى أن يتجاوز التخوم التقليدية للشعر العربي إلى التأمل المتأصل في مصير الكون و في هموم الإنسان الفكرية والروحية وعلاقته الملغزة بذاته وبالآخرين و بالحياة والموت وما بعد الموت"[1].

وإذا عرف أبو العلاء المعري[2] بالتشاؤم والغـــــربة، ومقته الدنيا، فليس معنى ذلك نفوره من الحياة، بل التشبث بها فهو القائل :

تخالفنا الدنيا على السخط و الرضا   فـــإن أوشك الإنسان قالت لـــه مهلا

هـــي الـــماء أنى بعلمي وردتـــه   لقلت لنفسي كان مورده جـــــــهلا

فما رئمت* طفلا و لا أكرمت فتى   ولا رحمت شيخا ولا وقرت كـــــهلا

ومع أن الظروف النفسية والإجتماعية التي عاشها أبو العلاء لها دخل كبيرا في إفراز فكره وفنه بهذه الصورة، فإن آراءه كانت أعمق و أصدق تعبيرًا عن الحياة العربية في عصره.

وبعد هذه الفترة كان عصر الإنحطاط الذي اتسم بروح القدرية والإستسلام للمعجزة، والخرافة، وبالتالي القلق على الحياة، والسلطة، والمستقبل، وبقي الوضع على حاله حتى جاء عصر النهضة الذي أيقظ الإنسان العربي من سباته على مصيره المجهول وأوضاعه المأساوية، فكان ارتباط ظاهرة الغربة أو الإغتراب بالمذهب الأدبي الرومانسي، ثم المذهب الأدبي الواقعي.

إن محاولة إعطاء تعريف شاف محدد لظاهرة الغربة في الشعر، أمر لا يخلو من صعوبة فالتعريف في هذا المجال يبقى ناقصا، واجتهادا نسبيا، ومع ذلك يبدو من استقصاء النصوص الشعرية والنثرية في هذا الميدان، والإقتراب من مفهومها واعتباره وعي الشاعر في صراعه مع الحياة و عجزه عن امتلاك مصيره كلما اهتزت القيم أمامه، مع التعبير عن هذا الوعي بلغة شاعرية، في صورها وموسيقاها.

1- صالح حسن اليظى : الفكر والفن في شعر أبي العلاء، دار المعارف، مصر، 1981، ص57 .

2- عبد العزيز الخانجى : أبو العــلاء المعري ،(تحقيق) ، القاهرة، الجزء 2، ب ت ، ص 199

***- رئمت** : من الرأم، يعني الحنان والعطف..

فما أن ينتصر الحزن على السرور، ويتحول الهناء إلى كدر- في دنيا الشعر- حتى تبدأ خيوط الغربة في نسج عباءتها، وغالبا ما تكون هذه الخيوط نابعة من علاقة الشاعر بعوالمه الباطنية، وبالظواهر الإجتماعية، والحياة، فظاهرة الغربة تنشأ عند التأزم النفسي، وفي الإحساس والشعور باللاأمن والفوضى والاضطراب، وعدم التوافق مع محيط الحياة بصفة عامة. وهذا ما يعرفه بالخواء الصهري Phobie والغربة aliénation و مع أن هذه المواضيع " ليست بريئة " على حد قول رولان بارث (1) Roland Barthes أيتحمل الكثير من ذاتية الشاعر ، فإن الشاعر يعطيها أبعادا اجتماعية ، ووطنية، وقومية، وإنسانية، ولا يمكن أن تكون ظاهرة إلا في هذه العمومية والشمولية.

فظاهرة الغربة في الشعر تكون بمضمونها بكاء على الإنسان وقيمه، وتكون بشكلها تعبيرا عن السقوط بالصورة وباللغة وبالموسيقى، فبنيتها العامة تحددها الأسرة اللغوية التي تبدو في كثرة الترادف، والقرابة المعنوية، والإشتقاق، فيها يتحدد إطارها العام الذي تتفاعل فيه موضوعاتها الجزئية.

فالموضوع الرئيسي يستمد قوته أساسا من الموضوعات الجزئية وتكاتفها مع بعضها البعض، فإذا وجد- مثلا- الألم في ظاهرة الحب، وكذلك في الطبيعة، وفي ظاهرة الغربة، وفي قظايا المجتمع والإنسان لدى شاعر معين، فإن دراسة هذا الموضوع - الذي هو الألم- تتحدد من شبكة العلاقات بين موضوعاته التي تجمعها خاصية الألم، فالأعمال الشعرية أبنية متفاعلة يتحقق فيها ربط الموضوعات، والمراحل الإبداعية، وذلك قصد الوصول إلى الحذر العميق لعمل الشعر ككل.

وأحسب أن هذا الجذر في شعر **مفدي زكريـــــا** هو شعور الغربة الذي بدت صـــورته في علاقة الشاعر بالوطن والغربة، وفـــي أبــعاد هذه الموضوعات الإجتماعية، والقومية والإنسانية، فالشعر مظهر رمزي يطرح قضايا الإنسان في كل أبعادها، وكلما غاص في مكنونها كلما زادت قوته وفهمه وأكد صدق نيته ووضوح رؤيته للمجتمع والكـــون .

1- **ROLAND BARTHES** (LE DEGRE ZERO DE L'ECRITURE) ; COLL POINT ; PARIS ; -1970; P 16

تمهيـــد:

ولدت الرومانسية العربية بين أحضان إبداعات جبران خليل جبران، وتداعيات خليل مطران و جماعة المهجر، وأصحاب الديوان، وقد أسهم في ظهور الرومانسية ونشأتها الأولى بواعث عديدة، في مقدمتها، الإحتكاك بالتراث والثقافة الغربية والاطلاع على كنوز آدابـــها، عن طريق البعثات العلمية، والترجمة والصحافة، بالإضافة إلى الوضع العربي آنذاك، الباعث على الخيبة ولتحسر. لقد وجد الشاعر العربي نفسه غريبا على عصره وتراثه، كغربته عن الثقافة الأوروبية، فحاول اللحاق بركب عصره، والعمل للاستفادة من التراث الإقليمي، غير أن مسعاه، واجهته رياح العصر الهوجاء التي كانت أقوى منه، ذلك أن روح العصر كما ترى اليزابيث درو" تؤثر فينا لاشعوريا مهما نتشدق باستقلالنا، أو نحاول جاهدين أن نحقق ذلك الإستقلال لأن لون الثقافة، ومبلغ وعينا، يدفعاننا دائما إلى اتخاذ بعض المقاييس الفنية، وطرح بعضها... وفي كل عصر، كل إنسان يحب أشياء و يكره أشياء".[1]

وكان الشيء المرغوب فيه، لدى الجيل الرومانسي وهو الغربة والكآبة والتمرد، والحياة عنـــدهم نغمة للبـــؤس والشـــقاء والقسوة والصهر obsession، والـــحصر frustration، (الإحباط)، فهم يستعذبون الألم ويتغنون به، و يلازم ذواتهم التي يعتبرونها مصدر كل شئ حتى المعرفة عندهم "صدور من الذات النشطة الفعالة نحو الموضوع..الموضوع يغير الذات لا شيء ووجوده يتوقف على إدراكه، و كما أن الخروج من النفس لرؤية ما يقع في الخارج محال ".[2]

وفق هـــذا النهج ما يقـــودنا إلى فهم الأدب الرومانسي كما أراده فيكتور هيجـــوVictor hugo باعتباره دعوة الى إلهة الشعر التى "تستولى علينا وتقودنا باكية على ما في لإنـــسانية من بؤس وشـــقاء، منطلقة كـــإعصار من الشرر، وبما لـــها من آلاف العيـــون..تأخد

1- اليـــزبيت درو : الشعر، (كيف نفهمه ونتذوقه)، ترجمة **محمد ابراهيم الشوش**، مـــطبعة عـــيناني الجديدة، بـــيروت 1961، ص.10.

2- نـــعيم اليـــافي : الشعر العربي الحديث، وزارة الثقافة، دمشق،1981، ص136.

الحرية..فتجعلها تنفذ في كل انسان من جميع مسامه". (1)

إن تـــيار الرومانسية، يمثل عالما من المعاناة الحادة، شديدة الإحساس بالأنماط المأساوية الإنسانية، فيها تتجسد معالم تكاتف الثورة والحرية والبراءة من أجل التعبير عن كينونة الحي ووجود الإنسان فوق البسيط برمته، إنها تدفع الإنسان للبحث عن أسرار وخبايا الحياة كما تشكل لديه رؤية للعـــالم لها قواعدها وخصوصياتها و تفردها، "إنها صور وايقاعات ومفردات شاعر ما تستمد دلالاتها من كلية معينة هي رؤيته ". (2) في هذه الدائرة كانت ترتع رؤية الشاعر العربي الحديث حيث وجد في الرومانسية التعبير الأمثل عن صراع الإنسان وهو محاط بقوى تفوق طاقته وتوقع به في مخالب الإحساس والعجز والغربة والضياع. فالذات الرومانسية لصيقة بالحس الإغترابي المأساوي، تطغى عليها الفردية فتحول بينها وبين المجتمع، وهذا ما أفرز ظاهرة الإنطواء والغربة والشعور بالإحباط وخيبة الأمل على الرغم من مساندتها وتعاطفها في أفكارها وخواطرها مع ضحايا المجتمع، فالذّات عـــندهم "لا تعني دائما الإنسحاب من التجربة الخارجية إلى التجربة الداخلية وحدها. ولكنها تعنى في أحيان كثيرة وصف الإنطباعات والمشاهـــد التي تنعكس عما تراه في المجتمع "(3)

ومن هنا كان ارتباطهم بالمشاكل الإجتماعية وبكل ما يعج في مجتمعهم، فالمجتمع هو المسؤول بدرجة متفـــاوتة عن ظهور هذا الإتجاه، وهذا ما ذهب إليه أحمد هيكل عنـــدما قـــال:" وكانت الملكية الباغية والإستعمار الطاغي، والإقطاع المستغل، أهم أطراف هذا التأمر الذي وصل ذروته في عهد إسماعيل صدقى باشا سنة 1930. وإلى هذا العامل يرد ما كـــان من ضيق طائفة الشباب الشاعر الحساس، بالحياة وتبرمه بالعيش، وشعوره بخيبة الأمل، فقد دفعته تلك الظروف الأخيرة إلى أن ينطوي ويهرب ويبحث عن العزاء في الحب حينا وفي رحاب الطبيعة حينا آخر، كما أغرته بأن يتشبث بالأحلام، ويتقلق بالخيالات ويهيم بالرؤى ليلوذ بعالم أكثر شفافية وأعظم رحابة وأفسح صدرا". (4)

1- محمد غنيم هـــلال : الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، 1986، ص 26

2- محـــــد الأســـعد : إشكاليات التجربة الشعرية، مجلة الفكر المعاصر، بيروت، عدد أوت، 1981، ص 33

3- نفيسة داخلي عبد الرزاق : الحزن في الشعر السوداني، جامعة الإسكندرية، مصر، 1989، ص69..

4- أحـــمد هيـــكل : تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، 1968، ص337.

وإلى جانب هذه الإنفعالات والدوافع كانت الثقافة الأوروبية المترجمة متسمة بعلاقة معقدة متأزمة بين الإنسان وعصره مما زاد الطين بلة والموقف عمقا وإحساسا، لقد كان الحس الإغترابي في حالاته الفردية شاردا قلما يظهر في المجتمع، أما هذا العصر، فهو يعج شظايا متناثرة بالصراعات، والتناقض والقلق والفوضى، وسكنه الخوف من الحاضر، وأصابه الحصر الحاد والمركب من المستقبل، إنه عصر يوحى – من خلال ظواهره العجيبة – للشعراء- خاصة – بغربتهم في هذا العالم، فثمة "هوة سحيقة تفصل بين ما يحياه الناس في الواقع من تجارب الغربة والتمزق والفواجع، وبين ما يترائ للفكر من تصورات شتى في قضايا هذا الواقع ..وهى المعضلة الأساسية التي تجثم دائما وراء جميع المشاكل في جميع الميادين"(1) لقد أصبح الانسان العربي يسلك سبيلا قاتما دون تطور أو حرية تبيح له حق الإختيار، فهو من الغرب إلى بلاد الرافدين يتلذذ مرارة الغربة ويستعذبها، ويحاول من خلا لها أن يكتشف الدلالات والعلاقات التي تحدده وتحرره. وفي انتظار حرياته وغده يبقى النحيب بالدم القاني، والانطواء الهستيري، والحسرة المقيتة، موضوعات تتجسد في الثورة والغربة والحب والحياة كما يدركها أبو القاسم الشابي* في مقدمة قصيدته إلى الله مشخصًا جزءاً من هذه المعاناة المشحونة بغربة الغرب " تعرض لقلب الإنسان الذى لا تنتهي أطواره أزمات نفسية ثائرة يعصف بها الألم والقنوط..فيشعر المرء كأنما انبت ما بينه و بين الكائنات من وشائج الرحم والقربة فاصبح غريبا في هذه الدنيا الغريبة في نفسه "(2)

ولو اطلعنا على عناوين دواوين بعض شعراء هذه الفترة، لوجدنا في عناوينها ما ينبؤنا للوهلة الأولى عن هذه المأساة الإغترابية. فلأحمد زكى أبي شادي فوق العباب، والشعلة، ولعلي محمود طه، الملاح التائه، ولمحمد الأخضر عبد القادر السائحى " بكاء بلا دموع " ولحسن كامل الصيرفي، " الألحان الضائعة "، و" دموع وأزهار"، ولمحـــمد أبو القاسم خمار، " ربيعي الجريـــح "،

1- صـــدقي إسماعيل : المؤلفات الكاملة، المجلد 1، ص261

* **أبو القاسم الشابي** : من الجنوب التونسي (1909- 1934) حفظ القرآن الكريم وهو صغير لم يتجازو التاسعة من عمره، من أب كـــان قاضيا شرعيا، إلتحق بالجامع الزيتونة وهو في الثانية عشر من عمره، ونال منه الشهاد النهائية في سنة 1928، وفي تلك الفترة قرأ كثيرا لشعراء المهجر وأدباء مصر المجددين، كما إطلع على كنوز الأدب العربي القديم.

2- أبو القاسم الشابي : المقدمة، الأعمال الكاملة، الدار التونسية للنشر، 1975، ص 261

" ظلال وأصداء "، ولإبراهيم ناجي،" وراء الغمام"، ولمحمود أبي الوفاء، " الأنفاس المحترقة.."، وعلى هذا الزفير الحارق، كانت معظم الدواوين إستجابة للعواطف والنفوس الملتهبة يقول أحمد سحنون متسائلا عن ظهور المتناقضات في دهره.

يقولون إن الدهــر يومــان واحد ... يســر و يــوم بالشقاوة يقــدم
وقد عشت دهري كله لم أذق بــه ... ســرورا ولكن عشتــه أتـــالم
ومن أيـــن لى يوم أرى فيه راحـــتي ... وكل ثوانى العمر صـــاب وعلقم. [1]

فالـــرومانسية في الشعر العربي لا تتجاوز في أغلب الأحيان بكاء الذات وصدى الأعـــماق وشكواها، وثورتها البركانية الصاخطة لهدم ودك أسس العادات والتقاليد، ولإعـــلاء متع الشهوات والأهواء، وفي كثير من الأحيان تتجاوزها إلى العمل على التغير الواقع والثورة عليه، فاهتمامهم بالمشكلات الإجتماعية والسياسية كما يقول محمود الربيعي " لم يكن مسالة ثانوية، كما أنه لم يكن مسالة صدفة، ولكن كان جزءا أساسيا من التجربة الشعورية لديهم، تلك التجربة التى صنعت شعرهم ووحدت خصائصه، والروح العامة التى تسري فيه، فظهر هذا الشعر في صورة إحتجاج عاطفي على فساد الحياة من حولهم، ودعوة مريحة إيجابية إلى قيم إجتماعية وســياسية بديلة لقيم العصر الإجتماعية والسياسية وذلك في أشد الحالات دلالة على إعتزال الحياة ". [2] إذن، مجال الأدب الرومانسي، وبخاصة الشعر، هو الذاتية في علاقتها بالفرد والمجتمع و الوجود، وتتحدد هذه العلاقة بموضوعات رئيسية تستقطب، اهتمام الشعراء، ويكون لها أكبر الأثر والإستجابة في حيـــاتهم وفي تلوين وتشكيل تجاربهم ومعاناتهم الإغترابية، مع إعطائها أبعادا إنسانية و فنية. هذه الموضوعات هي الحب- الطبيعة - الغربة. وسنلقى الضوء على هذه الموضوعات بالقدر الذي يخدم ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي و يرصد، ويوضح مداها وأبعادها.

1- أحـــمد سحنون : ديوان أحمد سحنون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1977، ص 194
2- محـــمود الربيـــعي : في نقد الشعر، دار المعارف، مصر، طبعة 2، 1975، ص 99.

أ- ظاهـــرة الحـــب:

إرتبط موضوع الحب كظاهرة عند الإنسان، بالآداب منذ ظهور نشأتها الأولى، وتعددت صوره وأشكاله ومضامينه، بحسب الظروف والسمات الخاصة بكل إقليم إجتماعي، وكانت أكبر قفزة حققها حينما إعتبره الرومانسيون فضيلة من الفضائل، على العكس وخلافا للكلاسكين الذين إعتبروه هوى من الأهـــواء الزائفة الحصرية، ففي ظاهرة الحب"يجسد الشاعر هويته الـــذاتية في التنوع، ويجد الإنفعال في الإتصال والمتعة في الألم، والموت في الحياة..كما يجد.. جدلية الواقع الراهن المستحيل..وجدلية المستقبل الممكنة..التي يقابل فيها الإنسان و الزمان". [1]

فهو من الـــوسائل الأنجع في تصفية وتطهير النفوس من الأدران الخبيثة، وهـــدايتها إلى أداء مهامها النبيلة وإظهار واجباتها، ومن الطبيعي السوى، والبديهي المنطقي أن يكون للشعراء العرب قصص في الحب و تجارب عديدة. بيد أن هؤلاء الشعراء الرومانسيون اتسمت تجاربهم بالإخفاق والخيبة والحيرة، وتحولت معظمها إلى صورة واحدة تختلف في شكلها وتتحد في معناها، إنها كما يقول أبوالقاسم الشابي : عبارة عن، "عناق الذات والآلم. وصلوات في هيكل الحب، و كما يقول أبو شبكة: الموت في الحب على الهوى وتلاق. وكما يقول أيضا إبراهيم الناجى عبادة وأسى وأطلال وذكرى محرقة، وحنين إلى المراة لا إمراة بعينها". [2]

والذي يهمنا في هذه الظواهر والتجارب هو صور الإحباط والاخفاق التي تناولها وعبر عنها الشعراء الرومانسيون، فحددت أطر ومناح وملامح تجاربهم الإغترابية. لقد عـــرف خليل مـــطران (1872-1939)، وهـــو من أعمدة رواد الـــرومانسية العربية الأوائل، ظاهرة الحب، وأنـــشد في ديوانه قصائد الحب والعشق و الهيام. ورقصت جـــوارحه إنسجاما مع الكون الذي نفث فيه السعـــادة، غير أن هذه الفرحة اللحظية في عمر الزمان، سرعان ما أصابها الداء، إذ حام حول حِمـــاها، حمام الفناء والموت، فأجتث المحبوبة من حيزها، فتحول البلبل الصداح المغـــرد النشوان،

1- ميشال سليمان : السمو في الشعر بوصفه مقولة جمالية، مجلة الفكر المعاصر، عدد أوت، 1981، ص26.
2- نـــاجي نجيب : كتاب الأحزان، دار التنوير، بيروت، طبعة 1، 1983، ص 143.

إلى بوم أبتر يبكي المدارس ويحث الطلول، وكذلك تحول الشعر إلى لون ثوب جنائزي، وأصيب الجسم بالسقم والضمور، فتمنى الزوال كالضب الأصيل – ومرافقة الحبيب إلى عالمه العجيب.

من بالمنـــون لوالـــه صب ذاكي الأضالع مغلق الجنب
ليت الرزيئة فيك أودت بي فنجوت من ألمـــي و كربي. [1]

ووقع في نفس غياهب الشراك أبو قاسم الشابي (1909-1936)، فـــقد تزوج وفقا للأعراف وتقاليد الأسر التونسية المتواضعة الفقيرة، وأنجب أولادا، لكنه كان على علاقة عاطفية بفتاة أخرى - كما يقال - : العين ما تنظر والقلب ما يهوى – فظل دهره القليل يتغنى بها، وينشد فيها القصيد تلو القصيد، وعندما إختطفها من ناظريه المنون، ذوت محاجره، وجفت شفاهه، وتحولت رياض ربيعه الزاهي، وتحولت معها الحياة لديه إلى ضرب من الغمام والقتامة، والغربة يقول:

بالمـــنايا تغتال اشهـــى أمانيـــنـــا و تــــذوي محاجري و شفاهى
فـــاذا من أحـــب حفنة تـــــرب تـــافه من ترائـــب و جبـــاه
واذا فتنة الحياة و سحر الكـــون ضـــرب من الغمام الـــزّاهــــــي. [2]

أما: أبو شبكة (1904- 1948) فلم تسعفه حبال شباكه، أمام هول الحب وجحافله، فقد عاش العمر كله في عذاب نفسي متواصل، يندب غلواءه، و يسقي شعره بالدم القاني يقـــول:

إجرح القلب واســـق شعرك منـــه فـــدم القـــلب خمرة الأقـــــلام
مصدر الصدق في الشعور هو القل بُ وفي القـــلب مهبط الإلـــــهام. [3]

وقد رآى له صور في لهيب الشمعة التي كانت تقاسمه السهر، لهيب الحب المشتعل في قلبه حزنا على حبيبته غلواء.

1- خليل مـــطران : ديوان (حكاية عاشقين)، الجزء 1، دار الطليعة، بيروت، ب ت، ص 182.
2- أبو القاسم الشابي : الديوان، الأعمال الشعرية ، ص 242.
3- إلياس أبو شبكة : المجموعة الكاملة في الشعر، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص 383.

في دمعك الشاحب نور يـــذوب
مــــــاذا تقوليـــن بـــه للقلـــوب؟
لم يغمر الشعلة هـــذا الشحـــوب
أينتهـــى الحـــب كـــما تنتهيـــن
يـــا شمعتي، يا مثـــل العـــاشقين
لــــــذاتـــه تـــاتي و تمضي ســـراع
شـــم تـــلاشـــى نفـــس الشمعـــة
مثل تلاشي الـــروح في الميـــت. (1)

وبـــرزت ظـــاهرة الحب الجياشة بشدة، عند إبراهيم ناجى (1898-1953)، فجاءت من أقوى الظواهر حدة، وأعمقها تجربة وغربة، إنه ضاع في دهاليز الحب وعوالمه وهـــام في أحلام الوجد ينشد السعادة مع محبوبته الشاردة التي لم تنصفه، و لم تعطه القدر الكافي الذي أعطاه أياها يقول :

هل رأى الحب سكارى مثلنا	كم بنينا من خيال حولنـــا
و مـــشينا في طريـــق مقمـــر	تثب الفرحـــة فيه قبلنـــا
و تطلعنـــا إلـــى أنجمــــــه	فتهاوين و اصبحـــن لنـــا
و ضحكنا ضحك طفلين معا	و عدونا فـــسبقنا ظلنـــا. (2)

لظاهرة الحب شريعة باقية على الزمان، وهي شريعة مسطورة على جدران الوجود، وفيما

أولا : ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث

من السعداء. لقد أبرز الحب في أبيات إبراهيم ناجى، ظاهرة الصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها، وهذا هو المرمى الأساسي عند الشعراء، أن يتحول الحب إلى "اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة.في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ". (3)

1- **إلياس أبو شبكة** : المجموعة الكاملة في الشعر، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص ص 41-42.
2- **ابراهيم نـــاجي** : ديوان، الأعمال الكاملة "وراء الغمام" ، صيدا، بيروت، 1979، ص 181.
3- **ابن حزم الأندلسي** : طوق الحمامة، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1985، ص 21.

وهو إتحاد الأرواح وتعانقها، عناق المحب لمن ينتظر، وأيضا اتحاد المحبوبة والحبيب، بيد أن هذه الصور لم تتحقق لابراهيم ناجى فغدت حياته سرابا، والكون في نظره أطلالا، يحب أن يبيد كل ما يذكره بهذه الحبيبة، حتى الرسائل التي أصبحت منبهات مؤلمة، يحب أن تحرق قلبه و ما حواه في ضرامها.

عـــادت إليّ الذكريـــات	بحشـــدها و زحـــامها
في ليلـــــة ليــــــلاء أرّ	قني عصيـــب ظـــلامها
أشعلت فيها النار تـــــر	عى في عزيز حـــطامها
تغتـــال قصـــة حبنـــا	من بـــدئهـــا لختامـــها
أحرقتها و رميـــت قلـــ	بي في صميم ضرامهـــا
و بكى الـــرماد الآدمي	عـــلى رمـــاد غرامهـــا. (1)

ومن هذه الزفرات والأنغام المحرقة الحزينة، غنت بحدة ظاهرة الحب في الشعر الرومانسي، وكانت العناصر الأساسية في إبراز وظهور الصورة الإغترابية، لما صاحبها من إخفاق وفتور وإنكسار.

ب- الظاهـــرة الطبيعـــية :

كانت الظاهرة الطبيعية ولا تزال الوحى الدائم، ومنبعا من منابع الإلهام الأبدي لدى الشعراء في كل الأزمنة وكل العصور، وقد تأكدت مكانتها العظيمة عند الرومانسيين، عندما لونوها بعوالمهم الباطنية النفسية، وما حوته هذه من أمزجتهم المتباينة، فأضحت مرتعا خصبا للعزاء والسلوى من الصدمات الفجائية والإحباطات المتكررة، التي تلازمهم ويصادفونها دوما في واقعهم الإجتماعي، إنهم يبثونها يقول أحدهم مخاطبا إياها : " أيتها العناصر الكونية يا من في صوتها القدسي وبين أحـــضانها أشعر بنشوة الإلـــهام، أتستطيعين أن تهبيني..في الغابة العـــذراء متعة، وفي الضفاف

1- **ابـــراهيم نـــاجي** : الأعمال الكاملة، "وراء الغمام"، ص 326.

المنعزلة جــذبة سحر، فــهنا أنس حيث لا دخيل من الناس بجانب البحار العميقة، وموسيقى أمواجها، ليس حبي للإنسان قليلا، ولكن حبي للطبيعة أكثر". [1] ومن هنا كانت دعوتهم إلى الطبيعة وإجترار الذكريات و إبرازها، و معانقة الأحلام.

ظــمأت إليك يا وطني لأني غريب في جــبالك و الروابي
غريب في بــحارك و الفيافي غريب في سهولك والهضاب
وأرضك جنة حبلى بدنيــا من الكــرم العزيز المستطاب
وبالأشجار و الشم الرواسي و بالنخل المغيب في السراب
فتهوي بالسيول على الفيافي و تسكرها بألحان عــذاب. [2]

وكان في غربة الشابي وفراره إلى الطبيعة، أن يسكن إلى الذكريات ويعيد إلى عوالمه الحزينة الأيام الخوالى، حيث الطفولة المرحة النشوانة، ومراتع ومرابع الصبى والحياة البريئة.

أيــام كانــت للحيــاة حلاوة الــروض المطيــر
وطـــهارة الموج الجميل وسحــر شــاطئه المنيــر
ووداعــة العصفـــور بين جــدول المــاء النمير
أيام لم نعــرف من الدنيا ســوى مــرح الســرور. [3]

فــما رآه وأحس به الرومــانسيون في ظاهرة الطبيعة، هو الوجه الآخر الذي افتقـــدوه في حياتهم، ومن هنا كان تصويرهم للحقائق الطبيعية وللمناظر الفطرية فيها التي تتفق، واضطراباتهم وحالاتهم النفسية التي يغلب التوتر والعصاب والإحساس الحاد بالغربة والفناء عليها، فهم يأخدون من الفصول الأربــعة مثلا، فصل الخريف يشي بذبول الحياة، وفصل الشتاء يرمي أو يرمز إلى الفناء

1- **محمد غنيمي هلال** : الرومانتيكية، ص 171.
2- **عبد الله شــريط** : ديوان الرماد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص ص 53-.54
3- **أبو القاسم الشابي** : الأعمال الشعرية، ص 249 .

والزوال، كما أهم يتغنون في وصف الغروب الذي يأذن بإقتراب الفناء، وكذلك حلول الليل حيث السكون و الخلوة، وصعود الذكريات و تدفقها على الأنا في حيرة وحزن. وقف خليل مطران وقت الغروب، وكأنه يودع أشعة النهار الذائبة في أعمدة المساء القادحة، وكله حسرة وألم على فراق حبيبته، فالغروب جزء من لحظات الـــوداع المميت.

ولـــقد ذكرتك والنهار مـــودع   والقلب بين مهابة و رجــــــاء
وخواطري تبدو تجاه نـــواظري   كلمى كدامية السحاب إزائـــي
والدمع من جفني يسيل مشعشعا   بسنى الشـــعاع الغارب المترائي
والشمس في شفق يسيل نضارة   فوق العقيق على ذرى ســـوداء. (1)

أما أحمد زكي أبي شادي، فقد تشخص له الغروب، و برز باكيا، وتمثلت الأرض ملتاعة من شدة الفراق، فأنسابت نفسه الثكلى دموعا مع تباريح الغربة وآثار الحرمان يقول:

هـــذا هـــو الشفق الباكي بحرقتـــه   و هذه السحب فيها الدمع نيـــران
بانت عن الشمس فارتاعت لفرقتها   كـــما يـــراع لدفن الحسن هيمان
الأرض تشجي التياعا للفـــــــــراق   و إن كان الصباح بوصل منه تزدان
فكيف لي و أنا المحروم من زمنـــي   و كل عمري تباريح و حدثـــــان. (2)

وقد رأى محمد الأخضر السائحي، عندما أرجع النظر إلى نفسه يتفحصها، و يبحث عن ماهيتها، داخل هذه الظواهر الطبيعية، فـــــإذا هو لاشيء بل هو حائر وحـــياته التي مضت ما هي إلاّ قشور، وإخفاقات متتالية، وأحلام تلاشت ذراها خيوط الظلام.

أنـــا لا شـــــئ...وجــــــود   فـــارغ كـــالليـــل مظلـــم

1- خـــــليل مـــطران : الديوان، "قصيدة المساء" ، ص 12.

2- أحمد زكي ابي شادى : الديوان، (الشفق الباكي) المطبعة السلفية، مصر، 1926، ص ص 642-644.

أنـــا لفـــظ دون مـــعنـــى   نـــشيـــد لـــم ينـــــظم
....أنا لاشيئ نسي الحـــا   ســـــب في التقسيم نصفه
فهو في الأرض غـــريـــب   ضـــائـــع يـــرقب حتفـــه
أنا شيئ حائـــر كالوهـــم   لا أعـــــرف وصـــــــفه
فحياتى التى مضت لم تكن   إلاّ قشورا رميتها في الظلام
... أنا أحببت و لكن لـــم   أنل فـــي الحـــب "حبـــه"
وعرفت الصدق لكـــــن   قد وجدت الصـــدق كذبه
كـــنت إنسانا و لـــكـــن   ضـــاع مني منـــذ حقبـــة. (1)

فلم يكن حظ الشاعر أحسن و أفضل من غيره، من الرومانسيين، فما نال من حياته إلا الغربة و العذاب و اليأس، لذلك فهو وهْمُ يطلب الموت لكي يستريح.

جلست على الصخر الوحيد وحيدا   و أرسلت طرفي في الفضاء شـــريدا
وكفكفت دمعا لايكفكف غـــــربة   وواسيت قلبا في الضلوع عـــميـــدا
أرى صفحة الآمال قد ضـــاق أفقها   ولاح لى اليـــأس البعيـــد مـــديـــدا
لقد عشت في دنيا الخيال معذبـــــا   فياليت شعري هل أموت سعيـــدا (2)

إن ما اشْتقه الرومانسيون من الظاهرة الطبيعية، هو ما يناسب حالات الإضطراب النفسي من غربة و حزن و شقاء، وإحساس عميق بمصيرالإنسان المترامي وهذا ما عمق ظاهرة الغربة عندهم، و جعلها منثورة في معظم أشعارهم.

1- **محمد الأخضر السائحي** : الديوان، "همسات ومصرخات"، المطبوعات الوطنية، الجزائر، 1965، ص.47
2- **المصدر نفسه** : ص ص 118-119.

ج- ظـــاهـــرة الغربـــة:

دنيا الغربة من الموضوعات التي تغذي الشعر الرومانسي، وتؤكد طابعه المميز، وتزيده عمقا وتأكيدا في ميادين الغربة، من خلاله ندرك عمق الظروف، ودرجة الإحساس الشفّي عند الشاعر، فهوالبوابة الحقيقية التي تفتح واسعة على عالم المغتربين والمنبوذين، والمتشردين .ففي اضطراب وحمم الذات الشاعرة وانكسارها وانطوائها وعزلتها، تكمن قضايا الواقع المحطم وأزماته، ومن خلال مرآة الشعر العاكسة، ندرك حياة الطبقات العريضة، كما نقف عند القيم الإنسانية المتكسرة والمبعثرة على جنبات الأرصفة المهمشة، غداء هذا الشعر المفصل، الذي هو التسلط والقمع والظلم، وسكون وصمت الحياة المتعفنة، وهذا ما يفضى إلى الوحدة والضياع والتعب الروحي والإنهاك الجسدي. ومع الإيمان بأن أول غربة إغتربها الإنسان هي وجوده المرغم على هذه الأرض، فإن الشاعر استفسر دوما عن سر الجفاء الذى يلاقيه والبلاء المصاحب له باستمرار. أكلاهما تكفير عن الخطيئة التي تسببت فيها الثمرة الملعونة- حسب التفكير المسيحي – أم إمتحان الله للإنسان؟ كما يرى **صالح الشرنوبي :**

أتفاحة سرّ هذا الشقـــــاء   و من أجلها كل هذا البـــــلاء. (1)

فالشاعر يعيش في اضطراب وأزمة، وعليه أن يجد طريقه جادته، ويكتشف السبيل الموصل إلى بر الأمان ذلك أن عمره " إبتعاد وإغتراب متواصل، لكنه مسافر ينأى دائما على الهضبة الأخيرة المطلة على وادي قريته، حيث يستدير، يلتفت إلى الوراء بحنين، ويتوقف قليلا يشبع نظره في مسقط رأسه، قبل أن تحمله رياح السفر و يقلع مركبه إلى ما وراء الأفق" (2)

ولا تقتصر هذه النظرة على إرتباط الإنسان بمكان ما، بل تتجاوز ذلك إلى الأفكار، والمعتقدات والثقافات التى يتزود بها الانسان، أي كل ما يشبع الظمأ المعرفي، كما يرئ عبد الوهاب البياتي " لم أتوقف عند كتاب معين أو نوع من الثقـــافة كان كل كتاب هو بعـــينه المدينة التي لا

1- صالح الشـــربوني : الـــديوان، جمع وتقديم **علي أحمد باكثير**، ص.26

2- سمير الحاج شاهين : اللحظة الأبدية، مجلة المعرفة، 1981، ص ص 234-235.

أقصدها،كانت هناك محطات صغيرة، اعتقدت أن وراءها بارقا من الأمل، ثم اكتشفتها سرابا لا يروي الظمأ، و هكذا كنت و لا أزال مسافرا بلا عودة تتجدد أفكاري على الدوام ". (1)

لقد أصبح الشعور بالغربة، وبالتالي الإنفصال عن الخالق، والطبيعة، والمجتمع الحاد، شعورا بالعجز في تحقيق الأمان، والطمأنينة للذات الإنسانية، وبالأخص الشعراء، وهذا ما دعا بعض الباحثين من فلاسفة ومفكرين إلى إضافة "مصطلح الإغتراب الى غيره من المصطلحات الحديثة باعتباره من السمات التي تميز العصر الحاضر". (2)

وقد كان الشعر ولا يزال يصور ظاهرة الغربة بأبعادها الزمانية والمكانية، فيها بحث مستمر عن رغبات الإنسان عبر قنوات معبدة بأشواك الحيرة والقلق والضياع والخوف، وفي شعرنا العربي كان شعراء المهجر أكثر إهتماما بظاهرة الغربة، وتكاد السمة البارزة والخيط الشمو لي الذي يسري في أشعارهم ويربط موضوعاتهم، فشاعر المهجر يحث عن " أمنه الذاتي في الطبيعة، في الحب، في الإقبال على الحياة، في النكوص عنها، في البكاء على غربته، في إكتشاف ذاته وطاقته النفسية، في الثورة على المستعمر...في خدمة المجتمع والتعاون مع الناس،..في كل جوانب شعر المهجر كان الشاعر دائما البحث عن مرفا أمين بعد أن انتزعته أمواج البحر من موطنه الصغير الذي كان يجد فيه القيم المتوارثة ". (3) ولا يعنى هذا تفرد شعراء المهجر بهذه الخاصية ذلك أن التعبير عن المعاناة مهما كانت طبيعتها تحتاج أولا إلى إحساس الشاعر بالموقف وإلى إمتلاك ناصية التعبير، فقد عبر صالح الشرنوبي عن غربته الذاتية و حقق الكثير من خصائص التجربة الشعرية، ولو طال به الزمن لكان له باع في هذا الإتجاه لنستمع لما يقـــول:

فوق هـــذى الربا تخذت مقامـــي	ومعي حانتي وخمري وجامي*
حانتي عالم الخواطر في نفـــــس	ي ودنيـــا الأمـــــال والآلام

1- **عبد الوهاب البياتي** : الـــديوان، المجلد1، دار العودة، بيروت، 1972، ص 13.

2- **محمـــــود رجب** : الإغتراب، منشأة المعارف، اسكندرية، 1978، الجزء 1، ص 8

3- **أنــــس داود** : التجديد في أدب المهجر، دار الكتاب العربي، مصر 1967، ص 184.

*- **الــــجام** : إناء فضة، يقصد به الكأس.

حانتي عالم الخواطر في نفـــســـ	ي ودنيـــا الأمـــــــال والآلام
خمرتي ما يراق من ذوب وجـــدا	ني وكـــأسي مواكب الأيـــام
قـــذفتني الغيوب بالرّغم منـــــيّ	في عياب من الحـــوادث طـــام
هو بحر الحياة..سطح وأعمـــــا	ق وغـــرقي آمالهم في حـــطام (1)

ويعلن أبو قاسم الشابي شكواه، و تبرمه ممن لا يفهمون صدى نفسه، ولا يقدرون معاني بؤسه و شدة غربته، فهو كالتائه في ظلام العدم :

يا صميم الحياة كم أنا في الحياة غـــريب	أشــــقى بغـــربة نفســــــــي
بين قـــوم لا يفهمون أنـــاشيد فـــؤا	دي ولا مـــــعاني بـــؤســــــي
في وجـــود مـــكبل بقــــيـــــود	تـــائه في ظلام شكّ ونحـــــس
فـــاحتضني و ضـــمني لك كـــالمـــا	ضي فهـــذا الوجود علة يـــأسي
لم أجـــــد في الوجـــود إلا شـــقاء	ســـرمديا ولذة مضمحلـــــــة (2)

وقد عاش مفدي زكريـــا لوعة الغربة بعيدا عن وطنه وأحبابه، ولو شئنا أن نتلمس حنينه إلى وطنه لوجدنا في قصيدته (فلا عز حتى تستقل الجزائر) فيها تظل العلاقة بالوطن واضحة ملتصقة مند بداية القصيد حتى منتهاه، و يحاول من خلال هذه الغربة أن يجسد حالته المأساوية وهو بعيد عن الوطن:

جـــزائر مهما باعد الخطب بيـــننـــا	تباكرني النجوى، وتهفـــوبي الذكرى
حنيني إلى القصباء هـــج مدامعـــي	وشوقي إلى بلكـــور أفقـــدني الصبرا
وفي حي باب الواد ماضي صبابتي	تركت بيات الواد من كبـــدي شطرا
ويـــا فتنة الأبيار والسعـــد باســـم	ألم تنسك الأبعـــاد أيامـــــنا العطرا

1- **صالح الشـــربوني** : الديوان، ص 22.

2- **أبو القاسم الشابي** : الديوان، ص 22.

وفي القبة الفيحاء عشّ خواطـــري تـــركت بها لمّا أحاطـــوا بنا وكْرا
وفي حرم الصحراء، أهلي، وجيرتي وربعي، وخلاني، وأكبادي الحرّى [1]

وشاركت المرأة الشاعرة أخاها الشاعر العربي المعاناة، وعبرت عن ظاهرة الغربة وعن مأساة الحياة العربية كفدوى طوقان التي ضمنت شعرها بمظاهر الوحدة والضياع بعدما فقد منها انتماؤها ووجودها، إنه وطنها المسلوب فلسطين، الجريح النازف فجاء شعرها بحثا مستمرا عن الحياة وهروبا إلى عالم الخيال عسى أن تجد معنى لحيرتها وسببا كاشفا لغربتها تقول مخاطبة :

ألا كم تهـــيمين في عـــالـــم تـــناءى بعيـــدا بعيدا مـــــداه
و في عمق روحك شوق ملح جمـــــوح لظاه عنيف ظـــــماه
تُراك هنالك تستطليعـــــــن خـــفايا الوجـــود وكنه الإلـــه. [2]

فما يشعرها بالغربة ويجعلها تطرح هذا التساؤل، هو الإحساس بظلم القضاء، وسفك الدماء وصراع البشر.

أأنكرت في الأرض هول الفنـــاء وظلم القضاء وجور الليـــــالي
تـــراك إفتقدت جمال العدالـــة فيها فهمت بأفق الخيـــــــال
محـــرة ولهـــاء تنشدين الـــــ حقيقة في غـــامضات المجـــالي
أراعـــك فيها شقاء الحيـــاة ؟ أراعك فـــيها صراع البشـــر؟
أمن صرخات القلوب الدوامى تـــغض عليها ينوب القـــــدر
تلوذين في لهـــف صـــــارع بكون تسامى نقي الصـــــور [3]

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (فلا عزّ حتى تستقل الجزائر!) ، ص ص 314-.316
2- فدوى طوقان : الأعمال الشعرية، "وحدى مع الأيام" ، دار الآداب، بيروت، ط4، 1973، ص36
3- المصدر نفسه : **(وحدي مع الأيام)** ص ص 36-37.

وما ضاعف غربتها وزادها إشتعالا، فقدانها لوالدها، و أخيها حيث أورثها الزمن اللوعة والأرق و الوحدة

و في لـــيل سهـــــدي   يحـــــــــرك وجدي
أخ كـــــان نبـــــــع   حـــــــــنان وحبّ
وكـــــان الضيــــــــاء   لـــــــــعيني وقلبـــي
وهبــّت ريـــــــــاح   الـــــــــردي العاتيــه
وأطـــفأت الشعـــــــ   لـــة الغـــــــاليـــــه
وأصبحت وحـــــــــدي   ولا نـــــور يهـــدي. (1)

إن شعراء الرومانسية، أصبحوا يشعرون بغربة نفسية حادة، تلقي بهم في غياهب لا يعرفون لها قرارا، فهم في حالة ذهول وانفصام تام بين الواقع الذي يعيشون فيه، وبين تجسيد ذواتهم كما يريدون، وأن كانت فدوى طوقان تفسر هذا التناقض ببنية الإنسان الأساسية، القائمة على الروح والجسد، فإن ظروف العالم العربي، وأوضاعه الإستعمارية لها دخل كبير في بلورة هذه الصورة، التي قام بها الإستعمار وأعوانه كفيل بأن يخلق عند كل شاعر حسا بالغـــربة وشعورا بالإغتراب، وإلاّ كيف تفسر هروب فدوى طوقان إلى عوالم الذات الباطنية وإلى ينابيع الخيال السامية، منسلخة عن دنيا الناس تاركة وراءها المآسي الواقعية:

روحي يلوب بدار غربتـــــه   عـــطشا إلى ينبوعه السامـــي
فهناك أصداء يسلسلـــــــها   صوت السماء بروحي الظامي
وهنا، هنا في الأرض يهتف بي   صـــوت يقيّد خطو أقدامـــي
صوتان كم لجلجت بينهمـــا   يتنازعـــان شـــراع أيامـــــي
وأنا كـــيان تائـــه قلـــــق   يطوي الوجود حنانه الظّامـــي. (2)

1- فدوى طوقان : "وحدى مع الأيام" ، ص 39.
2- المصدر نفسه : ص 40

فـــــــظاهرة الغربة تستأصل الإنسان من كل ما يربطه بالحياة والحيز الإنـــساني، وتحـــرك في عوالمه الباطنية أنغام الحزن و الشقاوة، ولكنها تتحول في الأعمال الشعرية إلى زفرات حزن، وصرخة في وجه الحياة الجائرة البائسة، وانتظار للفرج والخلاص، تكون ظاهرة الغربة الرومانسية، قد عمت حياة هؤلاء الشعراء، ونسجت آخر خيط في جلبابها الأسود، ذلك أن الشـــاعر يواجه مصيره في وحدة قاتمة لاحبيب يواسيه، ولا فكر مسعف ينير طريقه، ولا عافية تعينه على مواجهة الصعاب، ذلكم هو الشاعر في روح الظـــــاهرة الاغترابية الـــرومانسية.

لقد كان الشعر العربي ولا يزال المورد الثقافي والإيقاع الأول لحركة الثقافة العربية، فقد إرتبط منذ الحرب العالمية الثانية، بحركة الحياة العربية وعبر عنها بالقدر الذي يتلاءم وأوضاعها التاريخية وملامحها السياسية والاجتماعية.

فما أحدثته الحرب العالمية الثانية من أزمات وانتكاسات وصدمات في أعماق الوجدان الفـــردي والإجتماعي، كان كفيلا بخلق شروط جديدة، لحركة الواقع، ومع أن بارقا كان يلوح في الأفق الشرقي، بما يحمله من فكر وفلسفة واقعية اشتراكية تخدم الطبقات العريضة في كل مجتمع. وتارة أخرى في الأفق الغربي، بما يحمله من فكر وفلسفة رأسمالية تحريرية، فالإنسان العربي وجد هداه وصادف ضالته المنشودة في الفكر الواقعي الاشتراكي، الذي بدأ في صورته الأولى كدعوة لتحرير الإنسان والمجتمع من قيود الإستعمار وبالتالي العمل على تغيير مجرى الحياة الإجتماعية والثقافية للإنسان العربي وإذا كانت الواقعية الغربية مرت بمرحلتين، واقعية إنتقادية وواقعية جديدة، فإنها في العالم العربي قد بدأت مسيرتها بواقعية ثورية، أقرب ما تكون الى الواقعية الإنتقادية من حيث هي تشريح للواقع، وإبراز لمساوئه، وكشف عيوبه، وتحديد عناصر الشر العـــالقة فيه، وتهـــدف من وراء ذلك إلى تغيير الأوضـــاع أو التنبيه والحـــث على تغييرها، فهي في روحـــها تفـــاؤلية، تؤمن بحـــرية الإنسان، وبضرورة تغيير الأوضـــاع إذا ما سعى بإرادة فلاذية الى تغييرها، ثم أعقبت هذه الفترة الواقعية الإشتراكية التي رافقت نشوء المجتمعات العربية الجديدة بعد أن تحررت وأرست مفاهيم ودعائم الحياة الجديدة، في داخل هذا المناخ السوي، تحول الشعر من الرومانسية، وما تحمله من ألم وترقب وحصر وانطواء إلى ثورة عارمة وسلام وهّاج في مواجهة أعباء الحياة بكفاح ونضال وثورية، حتى النغم الغنائي الطافح في الرومانسية أخد داخل هذه الأجواء الجديدة، صوتا جديدا وأبعادا جديدة كما تؤكد ذلك رشيدة مهران " اتخذت هذه المعاني– الحب، والكره والبكاء– أبعادا أعمق، فالحب شمل حب الإنسان، والكره أصبح كرها لأعداء الحياة والإنسان..والشكوى أصبحت من قصور الإنسان عن إدراك الحقيقة، والبكاء أصبح على آلام الإنسان بعامة، وهذا هو الوجدان االجماعي الذي ينطق به الشعر" (1)

1- **رشيدة مهران** : **الواقعية** واتجاهاتها في الشعر المعاصر، الهيئة العامة، اسكندرية، ط1، 1979، ص99.

فالشاعر أدرك ضرورة وأهمية المشاركة في تحمل أعباء الوطن، التي تعني بالدرجة الأولى تحرير الطبقة الكادحة من بني الإنسان، من أغلال الإستعمار ونفايات الأمراض المصاحبة له، ثم دفعها من سباتها والنهوض بها، وفقا لما يخدم أمانيها ومصالح وأهداف المجتمع ككل، فكان على الشاعر " أن يتسلح بإيدولوجية يتبناها ويبرزها في فنه بصورة ناضجة، فهذا التبني يعني بلا شك في استنباط الحلول التي يرتضيها للمشكلات المختلفة..فضلا عن هذا التبني يعمق رؤيته للواقع ". (1)

وقـــد مهد لهذا الإتجاه في أدبنا العربي مجموعة من الأعلام الكبار نذكر منهم سلامة موسى (1887-1957)، وأحمد أمين(1887-1955)، ومحمد مندور(1907-1965)، ومحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس...وغيرهم كثير. وكان ما اتفق عليه هؤلاء، ومن حذى وسار في اتجاههم هو الربط بين الأدب والحياة واعتبار الشاعر مسؤلا يحمل رسالة أمام مجتمعه، فيجب عليه أن يضمن و ينشر من شعره ما يستشرف أمته، ويسير بها قدما إلى شاطئ الأمان، حتى وإن كانت مميزات الحياة حالكة، مظلمة، عليه أن يستشعر من خلال الآلام والغربة والمآسي الراكدة، صورة الغد السعيد والمشرق.

إن ظهور الواقعية، جاء في مرحلة تاريخية حاول فيها الإنسان العربي فهم الظاهرة الطبيعية والحياة الاجتماعية، على أساس من الوعى بالظروف الموضوعية، التي يتدخل فيها عامل التأثر والتأثير، فهى محاولة لإيجاد صيغة التوافق بين رؤية الشاعر والإتجاه الذي يتحرك فيه المجتمع، في فترة زمنية تاريخية محددة، و ظاهرة الغربة التي وجدناها منثورة في الإتجاه الرومانسي، أخذت في هذه المرحلة الجديدة، طابعا اجتماعيا عاما تتبلور فيها قيم الحياة المنحطة بأشكالها المختلفة، فهي رصد لعلاقة متفاعلة ومتنامية، بين أفراد المجتمع، وذلك من خلال آلامهم وهمومهم المشتركة، إن جوهر العلاقة بين ظاهرة الغربة و الشعر الواقعى تركن وتكمن في الأساس الذي يقوم عليه الصراع الإغترابي، المأساوي الذي يعني شلل وانهزام المثل العليا التي تمثل قـــوانين صارمة اجتماعية أو قومية أو انسانية.

1- **نايف بلوز** : عالم الجمال، المطبعة التعاونية، دمشق، 1981، ص 95.

والواقعية الثورية هي تصوير مــــــرير لهذا السقوط الذي يحيا فيه الإنسان العربي، من أجل تغيير واقعه، والشعر بإعتباره" أكثر الأنواع الأدبية قدرة على إمتصاص رحيق الكارثة و مقوماتها في حينها "[1]

فقد انعطف على قضايا ومشاكل الحياة العربية واعتبرها أزمة فترة وظروف تاريخية وإجتماعية قابلة للتغيير، فروح الغربة وأبرازها في هذا الشعر جد إيجابية لأنها تقابل فيها بين الحلم والواقع، كما هي الحال في الرومانسية، وإنما هي " دافع قوي لتأكيد الإنسان في الوجود ولقدرته على ترويض الطبيعة و لموقفه الحازم من التنافضات الإجتماعية الكبرى".[2]

ولا يعنى هذا انحسار ظاهرة الغربة عن المشكلات الفردية بل يعنى بث القضايا الإجتماعية والإنسانية في الأعمال الفردية، يقول إحسان عباس "فقد يصف الشاعر البحر لأنه أحب منظره..ولكنك تحس وهو يتحدث عنه أنه يعبر بذلك عن حرية الإنسان أو عن عمق الوجود الإنساني أو سعة التجارب الإنسانية "،[3] فالواقعية إذ تضع لفنها إطارا فكريا ومفهوما جماليا، إنها توسع الطريق أما الشاعر عبر أشكال الصور التي تخدم قضايا الإنسان، وهذا ما حاول الشاعر العربي الوصول إليه في هذه المرحلة.

فقد وجد نفسه يخدم قضايا الإنسان لإن الفكر والجمال هنا يتوافقان في كونهما يستشعران القارئ بخير و سعادة على أرض الواقع المر، إزاء تناقضات عديدة و تشنجات مضطربة، فهنا موطن الوجع النـــابع من عنف المشاكل، وهناك يترامى الماضي وما يمثله من بقايا وتراكمات متنـــوعة، ومن بعيد حلم المستقبل المتأرجح بين أعمدة تفاؤلية و تشاؤمية.

1- **غالي شكري** : أدب المقاومة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1979 ، ص 318.

2- **مجلة الفكر المعاصر** : عدد1981/08/10، ص 23.

3- **إحسان عباس** : إتجهات الشعر العربي المعاصر،مجلة المعرفة الكويتية، 1979، ص 203

أمام كل هذا كان الشعر الواقعي الإغترابي الحزين يجد تعبيره ويعمق أبعاده، لأن الشاعر الذي انبثقت أعماله الإبداعية من أشكال القيم المنحطة ومرارة العيش، لزاما وأن تولد لديه إرادة التغيير، وأن تنعكس هذه الإرادة في بنيتها الداخلية، الموضوعية وبنيتها الخارجية الشكلية ومن أهم الموضوعات التي جسدت ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي.

أ- ظاهرة الإستغلال والظلم الإجتماعي :

إن أهم ما تميز به الشعر الواقعي اهتمامه بالإنسان المغترب وبالمشكلات الإجتماعية، وكشف النقاب عن الأوضاع البشعة التي يعاني منها الإنسان، بـــدأ من أهون ظروف الحياة اليومية، إلى علاقته بالنظام والحيز الإجتماعي. وقد اهتمت الواقعية في هذه الفترة على تسريح مظاهر الظلم والبؤس والشقاء، التي تتخبط فيها طبقات الفقراء والكادحين من عمال وفلاحين وتجار بـــاعة، ومظلومين مهمشين يعيشون على تـــماس الـــوجود " وأكثر فقرائهم فئة العمال والفلاحين الذين يؤلفون السواد الأعظم ...ووضع يمزقه الجوع، فحياتهم سوداء و خبزهم أسود" (1)

ومن الصورة الفاترة التى تصور وضع الفقير، ومحيطه الذى ضاق قول مهدى الجواهرى :

لو اطلعت عيناك أبصرت مأتما   أقيـــم على الأحـــياء قبل المـــــآتم
وإلاّ فما هذا الشقاء مسيطـــرا   لـــه في حياة القـــوم مثل الميـــاسم (2)

فهذه أبرز صورة لغبن الحياة و نكوصها داخـــل المجتمع كلـــه.

بـــلاد تردت في مها وســـحيقة   ونـــاءت بأحمال ثـــقال قواصـــم
تبيت على وعـــد قريب بـــفتنة   وتضحى على فرن من الشر ناجم (3)

1- نـــــور سلمـــــــان : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1981، ص.439
2- محمد مهدي الجواهري : الديوان، الجزء 1، مطبعة بغداد، 1949، ص.18
3- المصـــــدر نـــــفسه : ص 20

وإذا كان مهدي الجواهري يعبر بهذه الصورة عن الحياة الإجتماعية العامة، فإن نازك الملائكة تقتطع صورة جزئية من صور اغترابها الاجتماعي، لتحكى صورة فتاة لم تتعد الحادية عشر من عمرها، مشردة في شوارع بغداد تتقاذفها الأرصفة، فتلسعها الريح الشتوية الحارة تارة، ورخام الأرصفة الثلجية تارة أخرى تقول :

في منعطف الشارع في ركن مقرور
حرست ظلمته شرفة بيت مهجور
كان البرق يمر و يكشف جسم صبية
رقدت يلسعها سوط الريح الشتوية
الإحدى عشرة نـــاطقة في خدّيها
في رقة هيكلها، و براءة عـــينيها
رقدت فوق رخام الأرصفة الثلجية
تعول حول كراها ريح تشرينية(1)

لقد تغنى شعراء هذا الجيل بكثير من القضايا الإجتماعية، وبالأخص بما يتعلق بأوضاع الطبقة الفقيرة المحرومة والكادحة، فالشـــاعر حسن كيلان،عرض العديد من هذه الظواهر الإغترابية في شعره و بالأخص في ديـــوانه " **قبل ما تسقط الأمطار** " الذى يوحى عنوانه بالغضب الشديـــد وبالثورة المرتقبة، فقد شخص فيه العديد من ألوان البؤس و أشكال الفقر وأنواع سلوكات الجهـــل، ويذكر في قصيدة " بـــائع الإبر" التي تبرز وضعية عائلة مشردة، يعـــولها طفل يبيع الإبـــر في الـــوقت الذي يجب أن يكون في المدرسة ويااليته من وخز الإبر استطاع أن يـــدفع الفاقة عن ذويـــه.

تقـــول ألم تبع أي شـــــيء
أجـــل! ؟ إنّني لم أبع أيٌ شيء
و طـــاردني الف طفل صغيـــر

1- نازك الملائـــكة : الأعمال الكاملة، " قرارة الموجة " دار العودة، بيروت، ط1، 1982، ص270.

و كم صفعتني عيون الكبـــار
وكم كدت أسقط تحت الترام
فتبتلع الأم حزنا عميـــق
و تمسح عن عينيها دمعـــة
و تنتظر شاخصة في الطريق
وتصرخ ها نحن فوق التراب
ونـــدعـــوك
يـــــا ربٌ، يـــا ربٌ. (1)

فالشاعر آلمه الوضع وأدماه المشهد فتحول الى راع لحقوق هذه الطبقة، فلم يعد لديه وقت للتبرم الرومانسي ولأحلامها الوردية الزاهية، وإنما يحاول جادا مشاركة أبناء مجتمعه شقاوتهم حتى يصلوا الى شاطئ الأمان و النجاة.

ما عاد لدينا من وقت كي نشكو للناس أسانا
فـــلدينا أعمال أخرى، أعمال تمص قـــوانا
أدناها أن نصعد يوما للشمس لنتخذها مكانا (2)

فطرح هذا الوعي وزرعه في الأوساط الإجتماعية، هو الخطوة الأولى نحو إزالة المآسي والقضاء على مسببات أمراضها لأنها تعكس بدقة الأوضاع القائمة المزرية التي ينبغي أن يثور ويناضل الإنـــسان من أجلها كي يسعد أبـــناء المجتمع كله. فأساس ظـــاهرة الغربة في الشعر الـــواقعي، هو واقع الإنسان الأرعن وإدراك الحياة، حيث يطفح الجهل، والظلم والفقر، إنه مملكة موتى وما بعث ظاهرة الغربة هو إجهاض الرغبات الطموحة نحو حياة أفضل ووقوف الأنظمة المستبدة سورا منيعا أمام تحقيقها، ومثل الإنسان العربي كمثل المماليك الذين اقتيدوا إلى القلعة في أحـــسن الثياب

1- كيلاني حسن سند : الديوان، " قبل ما تسقط الأمطار "، دار الكتاب العربي، مصر، 1982، ص .19
2- المصدر نـــــفسه : ص 75.

وأطيب الأماني، هكذا عبر عبد المعطى حجازى عن حالة الحياة العربية التي يسترخي فيها الجوع والكلاب الضالة في الحواري الساكنة.

وبيوت، وصخـــور، وتـــراب
نام فيها الجوع، واسترخى الذباب
و صـــــلاة خـــــافتة
وكلاب وفراخ ميتة
و الحواري الساكنة (1)

فلم يظهر ويبقى إلا وجه الفـــاقة الأعمى كوجه الميتين يمص ما تبقى من عـــصب الحياة، وفي شعر **عبد الرحمن الشرقاوي**، تشخيص فريد لأحوال المجتمع العربي، إنطـــلاقا من أوضاعه الصعبة في مصر، وهي أوضاع الخراب والضياع والموت.

الضياع الـــرهيب والخـــربات   النــــواح المشوم واللعناتُ
الجحيم الذي يدمدم والأشباح   والـــجوع والضنى والمواتٌ
الضياء الذي يسيل في العـــين   دمـــوعا تـــزفّها ضحِكات
و الســـهام التي تمزق الصـــدرَ   فتشـــد جراحه الداميـــات (2)

فالإنسان في غربة، عالمه السجن، يلفه الصمت القاتل، و تغيب فيه الأسرار الفانية.

نحن في عالم ســـجـــــــن   غائم الصمت غائب الأسرار
عـــــربد البؤس في نـــواحيه   نشوان وغنى أنشودة الجبار(3)

ففي كل ركن يقبع الفقر و البؤس و الهلاك تنثرها يد ظالم أو طاغية

هنا أو هناك، وفي حيث تمضي   نفـــوس معـــــذبة غـــــالية

1- عبد المعطي حجازي : الديوان (أوراس) ، دار العودة، بيروت، ب ت، ص .135
2- عبد الرحمن الشرقاوي : " من أب مصري " دار الكتاب العربي، ب ت، ص 42.
3- المرجع نفسه : ص 129.

رمتهم على عتبات الشقـــاء لغـــول الشـــقاء يد الطاغيـــة
مخضبة بـــدماء الشعـــــوب
يد نبضت بعرام الحيـــــــاة لكثـــرة ما اعتصرت من قلوب [1]

إن هذا التشخيص الشعري لأوجاع الحياة العربية و همومها لهو المقدمة الأولى لمعركة الشاعر وأبناء مجتمعه ضد النظام الإقطاعي والتسلط الإستعماري، من أجل بناء مجتمع سوي عالم للناس تتكافأ فيه الحقوق و الواجبات.

و ما معركتي إلاّ أن أبني عالما حـــرا
تعيش فيه المودات فلا مينا و لا ضغنا
ولا ظلمـــا و لا غبنـــا
و لا حقـــدا و لا فقـــرا
و لا جـــوعا و لا شـــرا
و هذا حلم الشـــعب [2]

وإذ يعلن عن معركته، فإنه يقاوم أشكال التعسف والغبن في كل شبر من الوطن العربي، فهو يسعى إلى ضرب الإستعمار المحتل وفصم ظهره وقطع أذنابه، لأنهما داء الطبقات الكادحة الذين يموتون جوعا وتزهق أرواحهم ظلما على الرغم من طيبة الأرض ووفرة خيراتها، يقـــول:

أخي لا تسلني لماذا نجـــــوع و نعـــــرى على أرضنـــا الطيبة؟
و لا كيف تبدو وجوه الشباب هـــنالك مصفرة شـــاحبـــــــة؟
و لا كيف تلمح عـــبر الطريق ظهورا من البؤس محـــــدودبـــة ؟
و لا كيف تـــصرخ أمّي غـــدا من الظلم و العرْيِ و المسغبـــــة؟[3]

1- **عبد الرحمن الشرقاوي** : " من أب مصري " ، ص 42.
2- **المـــرجع نـــفسه** : ص ص 72-73.
3- **محمد سيد شريـــف** : الديوان " **يقظة عملاق** "، دار الفكر العربي، القاهرة، ب ت ص12.

هذا هو الوضع في (أم الدنيا) مصر التي تمثل القدوة للعالم العربي والإسلامي في الصمود، إنها ميدان لانعدام روح الإنسان، ومرتع لأشباح عديدة مختلفة الألوان، فلاح وعامل ومظلوم، وكل ما لا يرضاه إنجيل أو قرآن. يقول كمال عبد الحليم في وعمق معاناة:

أخي يا أيها الإنسان هل في مصر إنسان ؟
أراها مسرح الأشباح قد وارتها ألــــوان
هي الفــلاح، والفــلاح أسمال وأكــفان
وهي العمال والعمال إجهاد وحــرمان
هي المظلوم والمظلوم لا يجديه غفــران
أرانا نجمع الأشواك أما للشوك ريــحان
دمانا فوق هذي الكف برهان ونيــران
وهذا الظلم لا يرضاه إنجيل وقــرآن. (1)

ولا يقل حال بغداد وأي مدينة عربية أخرى عن حال هذه الصورة المأساوية، فمظاهر الغربة والحزن، والآسى تقبع في كل ركن وزاوية، وتعانق ما تبقى في وجوه الكادحين والمظلومين من شحوب و تبرم

فوجه الفاقــة العظمى كوجه الميتيــن
أعمــى يمص الــدود والزهري مبحوح الأنين
أبصــر
لتصيح بيــن النـــاس من أجل الذين يعذبون ويدفنون
في الصمت من أجل الذيــن يجزرون
أقدامهم في بول مرضاهم، ورغم القيح والماء المسمّم يزرعون (2)

1- كمال عبد الحليم : الديوان " اصرار " دار الفن الحديث، القاهرة، **ب ت**، ص.60
2- سعــدي يوسف : ديوان الأعمال الشعرية الكاملة، المطبعة العصرية ،دار العودة، بيروت،1972، ص424.

إنهم يزرعون بذور الحياة التي تتفجر من هذه المآسى والفواجع، لأن وراء صمتهم الرهيب تتقد المراحل لتحطم الوضع المأساوي الغريب، وتتيح إمكانية ممارسة الحرية والإبداع والعمل، وهذا يتطلب ويستلزم الوعى بأصول المأساة، لأنه نهج الثورة السوي والحق وطاقاتها المحركة التي تبصر الإنسان بقضاياه الوطنية والقومية والإنسانية، كما تجعله يؤمن بالفكر الإجتماعي الذي يســاعده في تكاتفه مع سائر الطبقات الإجتماعية العريضة التي تنشد دوما الحرية والعدالة.

دولة الظلم ستنهار وتذروها الـــرياح
فنباح الظلم المسعور أصـــداء النواح
ولنا النصر وللنصر مســاء أو صباح
حينما نقذف للسجن بأعداء الكفاح. (1)

فمع هذا الوعى الثوري، تتخصب نفحة الإيمان بالمصير المشترك، ويتحول الألم والأسى والقلق والغربة، إلى ثورة عارمة منظمة تبعث روح الحياة الحقة الأصيلة بإرادة فاعلة، تزيح من دنيا الناس أشكال الظلم، أمام إرادة الجماهير.

ب- ظـــاهرة الثورة على الإستعمار:

إن ظاهرة الغربة في الشعر العربي الحديث الواقعى الذي صاحب النضال والثورات العربية، تكشف إلى حد كبير العلاقة الوطيدة التي نشأت بين الشعر والواقعي الثوري، وما يمثل فيه من آلام وفواجع تاريخية، فهي نار تشتعل على قوائم المستعمر، وإقبال عفوي على التضحية والفداء بكل غال، في سبيل استمرار الثورة و بلوغ غايتها.

1- نكبة فلسطين :

ولعل نكبة فلسطين كارثة العرب والمسلمين في هذا الشعر تكون أفضل وخير أنموذج لعالم الموت من أجل الحياة، فيها يتجسد الضياع، والغربة والتشرد فقد مارس الصهاينة أشكالا وألـــوانا

1- كمال عبد الحليم : الديوان " اصرار "، ص51.

من الإضطهاد والإرهاب بغية استئصال الجنس العربي من على أرض فلسطين، وإنشاء وتأسيس وطن اليهود المزعوم.

أمام هذه المحنة العظيمة، كان الشاعر العربي عند الموعد يعانق الألم والغربة ويلهث عن مخرج يوصله ومجتمعه إلى ميادين العدالة وساحات الحرية، وكان مما أثار سخط الشعراء هو انشغال زعماء الأمة العربية بقضايا هامشية، مما حال دون تلبية نداء الحق، هكذا ترى فدوى طوقان:

يـــا وطـــني مـــا لك يخنى علـــى   روحك معنى الموت، معنى العدم
أمضك الـــجرح الـــذى خانـــه   إنـــــسانه في المـــأزق المحتـــدم
جرحـــك ما أعـــمق أغـــــواره   كـــــم يتنـــزى تحت ناب الألم
أين الأولى إستصـــرختهم ضارعا   تحسبهـــــــم ذراك المـــعتصم
ما بالـــهم قد حـــال من دونهم   ودون مأســـاتك حـــس أصـــم
هم الأنانيـــون قـــــد أغرقـــوا   قـــلوبهم دون البـــــلاء الملـــم
لا روح يستنهض من عـــزمهم   لا نـــخـــوة تحفـــزهم لاهمـــم
أحنو رقـــاب الذل يا ضعفهـــم   واستسلمـــــوا للقـــادرالمحتكم [1]

وتتفاقم النكبة بالأعمال الوحشية التي قام بها الإسرائيليون في الأيام الأولى من الإحتلال، وهي نسف المعابر والجسور التي تربط بين الضفة الغربية بالشرقية، وهذا ما يعنى فصم وتقطيع أبناء الوطن الواحد والعائلة الواحدة، وقد اقتطعت فدوى طوقان هذه الواقعية المرة، فلا أحد يحاول العبور إلا وكان حظه ونصيبه الموت ينتظره على الجانب الثاني من ضفة النهر.

المـــوت رابض علـــى النهـــر
المـــوت رابض لكل من عبـــر
يا كرم يا غزالتـــي

1- **فدوى طوقان** : ديوان الأعمال الكاملة "**وحدى مع الأيام**" ، ص137.

العسل الصافي المضئ في العيـــون
يوحشنـــي كـــثير
و الخصل الشقراء مثل القمح مثل
مـــوسم الحـــصاد في حقـــولنا
توحشني توحشني كثير
أود لو أطير يا غـــزالتي
عبر المدى، أود لو أطير (1)

فبقطع الجسور، تقطع الوصال، وحلت الوحشة والغربة، بعد أن استولوا على الوطن واستحوذوا على كنوزه المقدسة ومعالمه النيرة وخيراته المنتشرة في كل شبر من أرض فلسطين، و لم يعد لإبنائها الذين شردوا وأصبحوا لاجئين، إلا الغربة والمهانة والشوك والصبار. وينقل إلينا صلاح عبد الصبور ثلاث صور مأساوية دامية من حال غزة تشكل فيما بينها حقيقة الغربة في هذه البقاع، فالصورة الأولى تحدث حال الإنسان الفلسطيني الذي يعيش الهلع والخوف.

لم يك في عيونه و صوته ألـــم
لأنه أحسه سنه
ولاكه... إستنشقه سنه
و شـــاله من قلبه سنه
وطالت السنـــون أزمته
فأصبحت آلامه في صدره حقدا
بل أملا ينتظر الغـــدا (2)

وأما الصورة الثانية فهى الطفولة المشردة، تبحث مع الصغار عن غدها المنتظر.

1- فــدوى طــوقان : الأعمال الكاملة "، وحدى مع الأيام " ، ص.137

2- صلاح عبد الصبور : ديوان الأعمال الكاملة، **" أقول لكم"** ، ص138.

يا أيها الصغار
عيونكم تحرقني بنار
تسألني عن مطلع النهار
عن عودة إلى الديـــارْ
أقول.. ياصغـــارْ
لو ضاع منا الغد يا صغار
ضاع عمرنا ســُدى (1)

أما الصورة الثالثة فهي استرجاع واستحضار من الشاعر لماض تليد، للوضع التاريخى قبل الإحتلال و أثناءه، وذلك ليؤكد أحقية الأجيال في هذه الأرض و ضرورة العودة إليها.

كانت له أرض وزيتونة
وكرمة، وساحة، ودارْ
وعندما أوفت به سفائن العمر إلى شواطئ السكينة
إنطلقت كتائب التتار (2)

فـــهذه الجحافل من المرتزقة، هي التى زحـــفت بعرمرمها الهمـــجي، وحـــولت الـــحياة في فلسطين إلي مقبرة تعج بالأشلاء، فلا تسمع إلا الإستشهاد ولا تبصر فيها غير عيون شاحبة ووجوه غزاها الذل، أو خيام انتشرت كالفقاقيع ، تظلل الشريد والمهجر الطريـــد.

عيـــون مفقأة بعثـــــــرتْ   على الأرض حباقا السائلـــه
وأيـــد مـــقطعة ووجـــــوه   غـــزا الترب ألوانها الحائلـــه
وكان هـــناك وراء الدخـــان   قـــطيع تشتت في كل بيـــد
قطيع وديع.. بقية قومـــي   فهذا شريد و هذا طريـــــدْ

1- صلاح عبد الصبور : ديوان الأعمال الكاملة، " أقول لكم"، ص139

2- المصدر نـــفسه : ص139.

تظللهم في العـــراء الخيـــام   وقد أخلـــدوا في هدوء بليــــــــــد [1]

إن الحياة في ظل الغربة والنكبة أفرزت صيغة للتطابق بين دنيا الشعر، وعالم الحياة الـــواقعية، فارتبط الشـــــاعر بقضايا وطنه وشعبه وأمته، يدعوها بشدة وغضب حاد في كـــثير من الأحيان إلى ربوع الحرية وميادين العزة والعدالة، ويسعى بها للقضاء على جذور الإستعمار والاستغلال و أنظمته وأوضاعه الفاسدة، ومن هنا كان الشعر الرافد الأول، يحمل في طياته صنوف الغربة والإضطهاد، نجد ألوانا شتى، وشتى ألوان القهر الجسدي والروحي، فلا غرابة أن نجد أنواعا من القنوط في هذه الأشعار لأنها صورة لواقع تاريخي مهما غاص الشاعر في عوالمه الباطنية والخيالية.

2- مأســـاة الجزائر:

ولإحتلال الجزائر أشكال عديدة من هذا القنوط، فما من شاعر عربي تقريبا، إلا وتناول ليل الإستعمار في الجـــزائر، فقد مهد عبد المعطي حجازي في قـــصائده " أوراس " و " ليـــل وهران " و " القدّيسة" للحديث عن الثورة التي تفجرت من الأوراس، وقـــــد رسم صورا مأساوية تجسد أعمال وهمجية الإحتلال الفـــرنسي، فمع بداية قصيد " أوراس" تبدأ ملامح المعـــاناة ودرجـــة المـــأساة في التشكل.

مدن المغـــرب
ترتج على قمم الأوراس
و تهب الريـــح الشرقيـــة
و تفور خيول
كسيول فاضت فوق تـــلال
قطاع طريق من أحراش الغال
يلوون الألسن باللغة الإفرنجية
ما زالوا يلتحفون فِراء الـــدب

1- **صلاح عبد الصبور** : ديوان الأعمال الكاملة، **" أقول لكم"**، ص139.

يمشون جحافل فوق بكاء القلب
مـــازالوا رومانـــا
مازالوا كفـــــــارا
يرمون على بلدي نـــارا [1]

إن هذه الظروف العصيبة جملة، كفيلة بتفجير الغيض — و تفيض مرارة وألم — والآلم، والإقتلاع في حياة الإنسان الجزائري. لكن الاستعمار الفرنسي لم يكتف بذلك بل عمد إلى حرق الأرض، وما عليها من أشجار مثمرة، ومساكن، كما سجن واستباح العذارى، وشـــنق الشباب.

لا زرعٌ، و نار في الزيتـــون
والقرية تحت الصليب خـــراب
والأفـــق تـــراب
وعذارى في السجن الثلجِـــيُ
و شباب تحت مقاصل "ميرابو"
يسقون العين بكل النور قبل الذبح. [2]

وهكذا تزهـــق الأرواح فوق أرض الجزائر، وتصلب الحياة وتستأصل من الأنفس البريئـــة، لا يعود مع شروق الشمس إلا صمت القلوب الساكنة المصلوبة ودمائها الهادئة الدافئة.

القرية تحت الصليب خـــراب
والأفـــق تـــراب
وتسيل دماء دافئة فوق الثلج
وتميـــل رقـــاب
وتعود الشمس ككل غروب

1- عبد المعطي حجازي أحمد : " أوراس"، ص.412
2- المصـــــدر نـــفسه : ص ص 416 - 417.

ويؤوب الصمت يؤوب
وتنير الشمس قلوب مصلوبة (1)

وقصيد " القديسة" يقدم صورة المرأة الجزائرية العربية المجاهدة، فجميلة بوحيرد رمز الشجاعة والأقدام، بطلة حقيقية، لم تذق معنى الحب، و لم تكلم إنسانا من حبها إلا في عشق الوطن والتضحية في سبيله.

فقد قضت عمـــــــرها
حاملة رسالة من التـــلال
إلى مخابيء الرجال في المدينة. (2)

وعندما اكتشف الإستعمار الفرنسي سر مفعولها، حاولت أن تداري، و أن تكمل رسالتها المقدسة لكن.

رصاصة ثانية تمددت في عظامها
وثالثـــة
قديستي تغسلت في دمســـها
قديستي! صلت لأجلها مدائـــن
و كبّرت مـــآذن
طارت طيور في النواحي باسمها
جميلة الجميلـــة
تعلم أن حولها ألف رســـول
سيحملون بعدها الرسالـــة. (3)

1- عبد المعطي حجازي أحمد : " أوراس" ، ص.428
2- المصدر نفسه : ص416.
3- المصدر نفسه : ص416.

وإذا كان الإستعمار الفرنسي لا يفتأ يصب حمم غضبه على الشعب الجزائري الأعزل، فإن في ليـــالى مدينة وهران عيونا لا تنام، أملها الـــوحيد الإنتصار، على الرغم من تواجد الموت القـــابع عند كل جـــدار.

ما أمجد اللحظة في شرفـــةٍ
من ليل وهران المهيب المنيـــع
و الحارس المرهف إنسانها
الأمر الناهي، البصير، السميع
القمـــر الآهـــب، في كفـــه
يا قوتة مسقية بالنجيـــع
و الواقع بين أقـــدامه غنـــوة
أوتارها كل الروابي و النجـــوع. [1]

و لم يكن المجاهد الجزائري في غربته الطويلة في ليل الإستعمار الفرنسي الدامس وحيدا، بل كان يقف ويشد عضده ويأخد بيده إخوانه العرب من المحيط إلى الخليج وفي كل مكان داخل المعمورة، ويحثه محمد السيد شريف، ويدفعه إلى الوغي :

إضـــرب فإن يدي معك	تـــحمي يديك ومدفعك
واحرص على الوطن الأبيّ	من الشـــوائب منبعـــك
الفجر قبل أفقـــــك الـــ	دامـــــى وحيا مربعـــك
والنصر صلى للألـــــوف	العـــائدين هـــنا معـــك
والشمس توج تبـــــرَهَا	عـــبر المعارك موقعـــك. [2]

1- عبد المعطي حجازي أحمد: "أوراس" ، ص 380
2- محمد السيد شـــريف : الديوان " يقظة عملاق"، ص100.

إن ظاهرة الغربة ينمو تعبيرها ويتضاعف في زحام الصراع، وما يتخلله من إخفاقات وخيبات تحول الفرد إلى قوة مقابلة للإحتلال بعد أن يتحد مع الجماعة فهو المقاتل الذي يدافع عن كرامته وكرامة وطنه وشعبه وأمته، وكرامة الإنسان كله، فما يؤذى الإنسان، يقوده إلى الغربة ويشعر بــ"ضياع العدالة، و عدم الوعي على التمييز العنصري، أو اللوني، وتمجيد القوة لمجرد أنـــها قوة يسحق فيها الضعيف والفقير ويضيع الحق الانـــساني " (1)

والشعر في هذا الإطار مطالب بتشريح الأوضاع الإجتماعية والوثائق التاريخية بغية تخليص المجتمع منها، وبناء عالم جديد، لذلك صرف الشعراء أقلامهم إلي " قضايا الوطن العامة إقليمية أو قومية أو عربية أو إنسانية عامة، وإلي قضايا الشعب وضرورة النهوض به ورفع مستوى حياته، ومعالجة مشاكله، وإبراز آلامه، وتعضيد مطالب حياته العادلة" (2)

3- قـــضايا الإنـــــسانية :

وقد انفتح الشعر الواقعي على قضايا الإنسان، فوجد في غربة العبد الأسود الرازح تحت أقدام الرجل الأبيض في إفـــــريقيا غربة الغُرب، وما يعمق أبعاده الدرامية، ويثري تجاربه الاغترابية، فشعر محمد الفيتوري " أغاني إفريقيا " يحمل في مضامينه وشكله وروحه غربة إفريقيا ومأساتها الكبرى، إنه يعرض قضية التمييز العنصري العرقي، لا كظاهرة استيطانية بين الأبيض كجنس والأسود كلون، فحسب بل كقضية إنسانية قـــوامها الصراع بين الخير والشـــر، بين شعوب مغلوبة على أمرها، وشعوب زاحفة واستعمار متجبر يستعبدها، فهو إفريقي سوداني ينتمي إلي تلك الشعوب ويحمل في لونه بذور الغربة وفي دمه روحها، وفي حياته واقعيتها.

جبهه العبـــــد .. و نعل السيـــد
وأنين الأســــــود المضطهـــــد
تلك مـــــأساة قرون غبـــــرت

1- **إحسان عباس** : إتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص .202

2- **محمد منـــدور** : الشعر المصري، (بعد شوقي)، الحلقة الثالثة، مكتبة نهضة مصر، ط3، ب ت ، ص95.

لم أعـــد أقـــبلها... لم أعـــــد
كيف يستعبد أرضي أبيـــضٍ ؟
كيف يستعبد أمسي وغـــدي ؟
كيف يخبو عمري في سجنه ؟
و جدار السجن من صنع يدي
أنـــا زنـــجيٌ
وأفريقيتي لي لا للأجنبي المعتدي (1)

ومع محاولات العبد الأسود في استرجاع كرامته وأرضه، وإنسانيته، كانت آلامه وغربته تزداد والحياة أمامه تخبو، وتقبع فيها الدموع والخطايا.

و الدرب منطفـــئ اللـــون
في شحوب البغايا
ففيم خطوك فوق العظـــام
فـــوق البـــرايا
وأنت عريان إلا من هموم العرايا
وغيمة من دموع
وخيمـــة من خطايا. (2)

فالحياة بمـــاضيها وحاضـــرها تفيض بالمشانـــق وتعج بالمعتقلات والسجون، ولا يبـــقى في الشارع إلا وجوه العجائز يتضرعن ويطلبن الرحمة والخلاص قبل الفناء.

- مات .. و ملء روحه المسودة المحترقة
- ماضي يغطيه دم المشانـــق المعلقـــة

1- محمد الفيتوري : ديوان **"أغاني إفريقيا"**، مكتبة المعارف، مصر، 1956، ص35
2- المصدر نفسه : ص94.

وصرخات الثائرين في السجون المطبقة
وأوجه العجائز الأليمـــة..المشفقة
وهن يرفعـــن إلى السمـــاء
فـــي أســـى ذليــــــل
أذرعةً معوجة مثل مناجل الحقول
وأعينا يغوص فيها ظل مشنقة [1]

وفي خضم هذه الغربة الحادة، لا يسع الشاعر إلا أن يطلب مع الملايين المقهورين سقوط الغيث النافع الذي يعيد للحياة نضارتها وللإنسان حريته.

و انــــزل يـــا مطـــر
أغرق حقول الأرز والقمح، وأغرق النهر
وأمسح بكفك الرمادية أحزان الشجر
لابد أن تصبح يوما غلة الحصاد لي
وتصبح السماء والأرض، ومجرى الجدول
وتنتهـــي مجاعـــة التـــراب
والبشـــــر. [2]

ومع إخضرار الأرض وانتعاش جداول الحياة وانسيابها، تبدأ أمنيات الشاعر ومعه ملايين الزنوج و كل من يحب و يناصر الإنسان في طريقها إلى التحقق، وسيعرف الأحرار أين يوارون نعوش الطغاة الظالمين والمستبدين، فالثورة هي التي تحول مجرى الرياح.

وقمت كما ردة تتلقى الضحى
وتحـــول مجرى الريـــــاح

1- محمد الفيتوري : ديوان " **أغاني إفريقيا**"، مكتبة المعارف، مصر، 1956، ص 57
2- المصدر نفسه : ص ص 59 - 60.

وتحفر تاريخهـــا من جديـــد
على جبهة الشمس حمر الجراح
فهل تسمعن أغاني الزنـــوج
تـــدوى مثقلة بالحيـــاة
وهل تبصرين وجوه العبيد
تقهقه حول نعوش الطغـــاة. (1)

ومع كثرة الضحايا تتحول قبور الأحرار إلى منارات ورموز لاستمرار النضال، فمن قممها وأعلامها الشاهقات ينبثق شعاع النور ليحرق أعداد الإنسانية، ويملئ ضياء الحياة السوية.

فسيغدو القبر هو الكعبة
يحج إلــــيها الأحـــرار
و من دمه تنبثق النـــار
لتحرق أعـــداء البشرية
و تضيئ طريق الحريـــة
أمامك يا أفريقيّـــة. (2)

بهذا اهتم الشعر الواقعي داخل المجتمع العربي والإنساني، ومع ما فيه من روح خطابية، وسياسية إلا أن ظاهرة الغربة كانت التعبير اللازم لتلك المرحلة وما افتقدتها ظروف التاريخية، فليس بمحظور على الشعر كما يرى محمود الربيعي " أن تكون له فائدة، ولكن المحظور أن يكون مفهومنا للشعر نابعا من تفكيرنا في فوائده"(3) وهذا ما يبدو من خلال استقراء النماذج التي قدمت، فقد كانت ظواهر أفرزتها ظروف مرحلة تاريخية مأساوية، من حياة الأمة العربية والإنـــــسانية.

1- محمـــــد الفيتـــوري : ديوان **"أغاني إفريقيا"**، ص ص48 -.49
2- عبد الرحمن الشرقاوي : ديوان **" من أب مصري "**، ص162.
3- محمـــــود الـــربيعي : في نقد الشعر، دار المعارف، ط3، 1975، ص157.

الفصل الثاني :

ظاهرة الغربة بواعثها وأبعادها، في شعر

مفدي زكريا

تمهيد : نظرة في الوضع التاريخي وإفرازاته

المتأمل للوضع التاريخي للإستعمار الفرنسي الدخيل في الجزائر* خاصة والعالم العربي عامة وما صاحبه من أعمال ومحاولات مخططة للمسخ والتغريب، والقهر والنهب** والتشويه للشخصية الجزائرية العربية الإسلامية.

لو تأملنا ما نجم عن ذلك من أعباء ومشاكل وغربة وهموم وأوجاع وآمال تتجاوز قدرة الكائن الحي، بل تتعداه إلى الجماعة، وتفحصنا ذلك جيدا، لأدركنا أبعاد الغربة وحقيقة أسبابها المزرية. و لما كان الشعر انعكاسا صافيا لحاجات الواقع ومرآة لأحداث التاريخ وكان " **الشاعر – في كثير من الأحيان– مرآة عصره يتأثر به و يؤثر فيه، ويعمل على تحقيق مبادئه ومثله على قدر ما تتيح له عبقريته و نبوغه**"(1). فقد وعى تلك الظروف والمتناقضات التي تطيح بمصائر الأفراد و الجماعات، وعبر عنها في صور تجسد ألوان الصراع الذي يحول دون توافق الإنسان مع محيط الحياة الإجتماعية والنفسية التي يعيشها، لذلك كان القلق النفسي المتزايد والنكوص الدائم نحو الماضي، والخوف من المستقبل، والتفكير في المصير المجهول، من مظاهر الغربة وأشكال الإغتراب التي يعيشها الإنسان الحديث.

وظاهرة الغربة تعد منطلقا من بذور الفهم السوي، لأنها...تمثل وضعا يكاد يكون طبيعيا عند كل شاعر، وقد عانى مفدي زكريا هذه التجارب لأنه ثائر و" **لأن الثوري الذي يشعر بالغربة، يتجاوز الواقع ويعود إلى ما وراء هذا الواقع ليكتشف الظلم المتفشي فيه فيقوم بمعارضته انطلاقا من مبدإ العدل الذي يشعر به في داخله**"(2).

---

* **احتلت الجزائر** : من طرف الفنيقيين القرطاجيين (880- 146 ق م) ثم الرومان (146-421 م) فالونداليين (431-534م) والبيزطيين (534م-647م) والعرب ابتداءا من 643م وفرنسا (1830)...

- محمد فارس تاريخ الجزائر الحديث (مطبعة ألفباء الأديب) دمشق 1969، ص 145

** **النهب** : قد سرق الفرنسيون في جويلية 1830 خزانة الدولة الجزائرية والتي كان بها 40 مليونا من الفرنكات الذهبية، حسين تريكي : "هذه هي الجزائر" دار القاهرة للطباعة 1981، ص 16.

1- **سامي الدهان** : الأمير شكيب أرسلان، حياته و أثاره، دار المعارف، مصر1980، ص15 .

2- **أحمد النكلاوي** : الاغتراب في المجتمع المصري المعاصر، ط2 ،دار الثقافة العربية، القاهرة، 1989 ، ص76

ولأن هذه الأحداث تمثل في مجملها خواء الحياة وسقمها، معاناة مركبة مضاعفة، فهي من ناحية تعبر عن غربته ومعاناته الذاتية في أعماقها وأبعادها النفسية، ومن ناحية أخرى تبرز معاناة الشعب الجزائري في أزمته التاريخية المعقدة و أعبائه و ظروفه الحياتية الصعبة القاسية و**" كان مفدي يتغنى بجراحه و جراحات شعبه، و يتغزل بآلام أمته"**[(1)].

إن ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا*، تمثل شعر الوجدان الجريح الدامي الملون بالمآسي المخضب بالدماء والأحزان، والذي يتدفق مشحونا بنماذج غنائية حزينة ثائرة، يسيطر عليها الطابع الثوري مغلفا أبعادها المأساوية، تنساب داخل وعاء لغوي حاد مملوء بالتحدي والكبرياء، و تتصف هذه الحمم المتدفقة من أعماق النفس المتألمة، بالصدق في معظم أشعاره، وقد استطاع أن يتخطى بذلك وفي وحــدته الطــويلة شعر المناسبات، والتعبير عن وضع الإنسان الــجزائري المأســاوي في الإستعمار والإستغلال، إن الغربة في معناها اللغوي هي الإبتعاد والهجر والمفــارقة وفي مــعناها

1- محمــد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة ، نشر " جمعية الثراث " – العطف- غرداية، الجزائر، 1987، ص 169 .

* **مفدي زكريا** : ولد عام **1908** ببني يزقن إحدى قرى بني ميزاب في الجنوب الجزائري

اسمه: الكامل مفدي زكريا بن سليمان الشيخ صالح

انحداره الأسري: ينحدر من أسرة **آل الشيخ الامازيغية** الأصل التي تعود جذورها إلى **بني رستم مؤسسي الدولة الرستمية بتيهرت** في القرن الثاني للهجرة.

دراسته: التحق **مفدي زكريا** طفلا بالكتاب لحفظ القران الكريم، و تعلم مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، و لما بلغ السابعة من عمره انتقل إلى مدينة عنابة للالتحاق بابيه الذي كان يمارس التجارة هناك، فدخل المدرسة الابتدائية و في عام **1924م** انتقل إلى **تونس** مع البعثة العلمية الميزابية لتلقي العلوم الدينية و الدنيوية هناك، فدرس **بمدرسة السلام القرآنية** لمدة سنتين فأتقن جسدا اللغتين العربية والفرنسية كما اطلع على العلوم الحديثة، و بعد حصوله على **الشهادة الابتدائية** انتقل إلى **مدرسة الخلدونية الحديثة** فدرس **الحساب والهندسة و الجبر و الجغرافية و التاريخ** ليلتحق بعدها **بجامع الزيتون** العظيم أين تعمق **في علوم الدين.**

تاثره المبكر بالزعماء الثوريين المغاربة : كان في تونس مقيما في بيت **عمه صالح بن يحي** أحد كبار **المناظلين** ضد الإستعمار الفرنسي في المغرب العربي و يعد أحد مؤسسي **الحزب الدستوري التونسي** الذي قاد الجهاد ضد المحتل.

وبحكم إقامة **مفدي** في بيت عمه تعرف على زعماء كبار و على رأسهم **الشيخ عبد العزيز الثعالبي**، و كان مفدي الشاب بتابع ويعيش أحاديث هؤلاء الزعماء حول هموم العالم الإسلامي و الأخطار المحدقة به، و منذ تلك الفترة عقد مفدي العزم على الجهاد (السير على درب هؤلاء العظماء) ضد المحتل الفرنسي و الجهل و التخلف و أسباب الظلم و الغربة، فاكتسب عزيمة فولاذية و روحا وطنية و إقليمية و عربية عميقة إلى جانب أخلاق عالية مثالية منابعها، تدينه الشديد وسلوكات مبادئ الدين الإسلامي الحنيف. ينظر : يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي -

الإجتماعي تعني " **الإنسلاخ عن الواقع الفاسد والإستياء منه والعداء والتصدي له، بحيث يبدو هذا الواقع وكأنه كائن ثابت متجمد يتخبط في الأوحال تلتصق بها الأقـــدام**" (1)، فلا تستطيع هذه تجاوزها والفكاك منها، برغم كل المحاولات والجهود التي تبذل، والتي يرى الباذل أكثرها جهودا ضائعة لا جدوى منها " **فينطوي على نفسه، ويعاني عذاب الوحدة والعجز من تغيير الواقع، ويقطع صلته بالآخرين الذين لم يستطيعوا أن يستو عبوا تطلعاته التي يحاول بها أن يضئ خطوط المستقبل ويرسم طريق الأمة في مدا رج الرقي و التقدم**"(2).

وليست الغربة بهذا المفهوم الإجتماعي إنفصاما عن عالم الواقع وهروبا بينا إلى مدارج الرؤى وعوالم التخيلات الوهمية المبتورة الأسباب والجذور، لأن الغربة بهذا المعنى الأخير" **تؤدي وظيفة سلبية تبعد صاحبها عن المشاركة في تحمل المسئولية وأعباء الحياة كما تجعله عديم التأثير في الغير، هذا التأثير الذي يفرضه التطلع الواعي نحو المستقبل ونحو مجابهة العوائق من أي مصدر أتت**"(3).

وفي حياة كل أمة - منذ فجر تاريخ الإنسانية الأول- رجال ونساء، صنعوا تاريخها، وقادوا مسيرتها الظافرة نحو ميادين الحرية والإنعتاق، وتحملوا ألوان البطش والتنكيل والغربة من أجل بقائها واستمرار وجودها فوق الأرض وكان الشعر مرآة عاكسة، يصور كل ذلك " **ويقف طويلا أمام هذه المـــواقف والظواهر والشخصيات، فهو يـــسجل المفاخر والمـــزاهي ليكون مـــدد قـــوة**

زكريا، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1987، ص ص 38-48

حبه للعلم : كان **مفدي زكريا** كثير المطالعة في كل المجالات، إلا أنه شديد الولع **بدراسة حياة الأبطال و عظماء الأمم**، لذا نجده قد تأثر كثيرا بسيرة الزعيم الوطني المصري **مصطفى كامل** الذي قاد حربا ضد الاستعمار **البريطاني**، وهو شاب لا يتجاوز العشرين من عمره و الذي مات في ريعان عطائه عند الرابعة و الثلاثين من عمره ، و قد نهل مرارا وتكرارا من كتاب أعجب به أيما إعجاب بعنوان "**مصطفى كامل في 34 ربيعا**" فاخذ عنه لحمة الوطن و الدين و عدم الفصم بينهما. **ينظر : بوالحيا الطاهر : تأملات في الإلياذة الجزائر لمفدي زكريا، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989، ص ص 37-49**

1- هـــاري ليفن : انكسارات، " مقالات في الأدب المقارن "، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، 1980 ، ص.18.

2- عبده بدوي : الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر ، مج 15 ، عدد1، ص.18.

3- المرجع نفسه : ص18.

وفخار للأجيال القادمين، كما سجل المآسي والمهاوي والخطوب لينفـــث في الأمة روح اليقظة، ويستنهض فيها خامدا لهمم و يحي فيها موات العزائم"[1].

فالأدب بـــصفة عامة، والشعر بصفة خاصة يعد- بصورة غير مباشرة- مصدرا حيا يتدفق عـــطاء، ومن أهـــم مصادر تاريخ الأمم العظيمة الخالـــدة، وخاصة إذا قلّت أو ضـــاعت أو إنعدمت المصادر الأخرى، و الشعر" **لا يسلك سبيل الرصد والإحصاء للوقائع والأحداث، فهذه السبل ليست سبله ومهمته، ولو فعل ذلك ما كان شعرا، و لكن أعني بذلك أنه كل أولئك أو بعضه'تسجيله لوجداني' بما يحمله من نبض الشاعر وأحاسيسه "**[2] . لهذا كان بين التاريخ والشعر منذ قديم الزمان، وظهور الفنون المشكلة لمعاناة الإنسان في هذا الكون " **وشيجة قوية وثيقة، فقد كان التاريخ- ولا يزال- منهلا عذبا يمنح الشعر منحا، وهو معين فريد لا ينضب أبدا، لأنه ترجمان الحياة الإنسانية، وسجل الأمة في منشطها ومكرهها.. في سرائها وضرائها، وفي حياة كل أمة مواقف تنطق بالروعة والعظمة والجلال، وفي حياقما كذلك نكبات وأزمات تتوقف فيها مسيرته أو تتعطل فيها طاقاقما وإمكاناقما"**[3].

لذا جاءت رســالة الشعر ملونة بالأفراح والأحزان، رسالة مقدسة كما يقول مفدي زكريا :

رِسَالةُ الشعر في الدُّنيا مُقـــدَّسة   لولا النُّبوءة..كان الشعر قُرآنا[4]

فالشعر سجل للأيام و الأحداث:

سجل على الشعر للآتين مفْخـــرةً،   يتْلُو بِها ذكْرنا شِيب ووِلْدانُ[5]

1- **محمد ناصـــر**: مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة، ص11
2- **المرجع نفسه** : ص219.
3- **المرجع نفسه**: ص.219
4- **مفدى زكريا** : اللهب المقدس "رسالة الشعر في الدنيا مقدسة "، ص 290 .
5- **مفدى زكريا** : أمجادنا تتكلم "، قف للعروبة حيِّها ببسكرة ، ص 98.

يحمل أعـــباء البشرية، من معاناة و مآسي، ويصور أغـــوار الذات الحزينة المنكسرة التي لا يستطيع أحد النفاذ لمعرفتها إلا هو، فيستجلي بعباراته وأنغامه المرسلة أهات تلك النفوس الجريحة المغتربة، البعيدة الأغوار.

فــكم هتكنا بها الأستار مغــلقةً   وكم غرونا بها، في الغيب أَكْوانـــًا
وكم جلونا بها، الأسْرار مُبْهَمـــةً   وكم أقمنا بها، للعدل ميزَانـــــَـــا
وكَمْ صرعنا بها، في الأرض طَاغيةً   وكم رَجَمنَا بها، في الإنس َشيْطانَا
وكم حصدنا بها الأصنام، شَاخِصةً   وكم بعثنا من الأصنام، إنْسانـــَـــا!
وَ كَمْ رفـــــعنا بها، أعلام نهضتنا   فخلد الشعـــر في الدنيا، مَزَايانـــَا[1]

هكذا كانت رسالة الشاعر والشعر لحمة واحدة، منصهـــرة في كشف الحقائق، ســـابحة في عوالم الخلق والإبتكار، والهروب والتخلي عن التصدي للآفات والظواهر الإجتماعية السلبية، يعد وقوفا واضحا معتمدا على هامش الأحداث والحياة، ونزوعا مقصودا إلى عدم الإكتراث واللامبالاة، وتنصلا من واقع يفرض على الشاعر النزيه الموهـــوب الحق، موقفا إيجابيا مـــؤثرا وفاعـــلا من كل ما يتعلق بأمور حياته، ومن كل ما يمت بصلة إلى وجـــوده ككائن إنساني من قريب أو بعيد. ففي ظاهرة الغربة عند مفدي زكريـــا، نتتبع أسباب غربته، وأسباب معاناته داخل غياهب السجون، وأسباب ضياعه في متاهات هذا العالم المملوء والزاخر بشتى المتناقضات التي كثيرا ما صدمت وجدانه وتركته يعيش لحظات مليئة بالحزن والألم والضياع. وقبل أن نتحدث عن ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، يجب أن نعيد إلى الأذهان، وأن نذكر إلى أن غربة الشـــاعر لم تكن غربة ميتافيزيقية إلى حد ما، بل كانت في أثرها غربة مواقف الرجل السياسية، فرضتها ظروف الإحتلال الفرنسي لأرض الجزائر، فرفض مفدي زكريا أن يقف من هذا الإحتلال وما زرعه من بؤس وشقاء وتشريد و إبادة، موقف المتفرج وموقف اللامبالاة، وحاول بكل ما أوتي من قوة وجهد أن يؤثر في محيطه، وفي مجرى أحداثها المختلفة، لأن ذلك يعد بالنسبة لمفدي زكريا من صلب إنشغالاته ومهماته ومن صلب وجوده الذي يفرض عليه أن يكون في موقع الريادة والمسئولية والتحدي والمجابهة.

1- **مفدى زكريا** : اللهب المقدس، "رسالة الشعر في الدنيا مقدسة"، جويلية 1961 في مهرجان الشعر بدمشق 23 سبتمبر، ص 290.

لقد أدرك مفدي زكريـــا صعوبة وأهمية وخطورة المسئـــولية التي تقع على عاتقه كشاعر* في هذا الإطار، شعورا منه بخطورة المرحلة والظروف الصعبة والمعقدة التي يمر بها الوطن الجزائري، التي لا تختلف عن غيرها عند أكثر الشعوب التي تعاني الظلم والغربة والإبـــادة، ووطأة الاستعمار وتعاني التخلف في شتى ميادين الحياة.

فالجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، استفاقت على دوي واقع العالم المهين الذي أنهكته الأحداث الـــسياسية والخلافات المحلية والمعارك الجانبية، " فضلا عن ظهـــور الفكر الكولونيالي** أو الفلسفة الكولونيالية وهي نظرية تؤكد على التمايز بين البشر وتجعل وجود الأخر - العربي - في مرتبة دنيا لأنها تعتقد أن هذا الوجود يعمل على تهديم تطور الإنسانية والرجوع بـــها إلى الخلف، ومن ثمة فان هذه الفلسفة تؤكد على وجودين : وجود الإنسان الأعلى بالتعبير النيتشوي وهو وجود أصيل و مشروع authentique. ووجود لا مشروع، زائف هو وجود الأخر الذي يستمد وجوده من الوجود الأول، و يعيش عالة على ما أنتجه هذا الوجود في شتى مجالات الثقافة والحضارة

---

* نظم **مفدي زكريا** الشعر منذ الصغر وكلما تناول أساتذته موضوعا في مقاعد الدرس طلبوا منه أن ينشدهم شعرا فيه فيرتجل بيتين أو أكثر من نظمه حول الموضوع المناسب.

جهاده : في نهاية العشرينات عاد **مفدي زكريا** إلى أرض الوطن، فانظم إلى **حزب شمال إفريقيا** الذي كان هدفه استقلال **المغرب العربي** بكامله تم السعي إلى توحيده ليصبح قوة في الشمال الإفريقي، ثم اخذ هذا الحزب – بعد حله من المحتل الفرنسي – اسم **حزب الشمال الجزائري** إذ تولى مفدي زكرياء منصب **الأمين العام للحزب** أي أصبح الرجل الثاني فيه بعد رئيسها المباشر **مصالي الحاج** وكان أيضا رئيسا لهيئة تحرير صحيفة **الشعب** لسان حال الحزب بالعربية فنثر في صفحاتها المعدودة مقالات ملتهبة نارية لتوعية الأمة و إظهار همجية المحتل الفرنسي و كشف نواياه الخبيثة وفضح مخططاته البعيدة المدى، والعمل لاسترجاع البلاد و تحريره من الدخيل، و لم يكن في صرخاته التي لا تعرف السكون ثابتا في مكان معين، بل يجوب الوطن شرقا و غربا لنشر الوعي و إدخال الفكرة الوطنية العوالم النائمة في صفوف الشعب، إذ ظل يحاضر و يكتب و ينظم الأشعار الحماسية المملوءة بالغضب و الألم التي تلهب المسامع وتستثير النخوة و تدفع الحماس فكان نشيد الأمة **فداء الجزائر سنة 1936**. ينظر **يحي الشيخ صالح**، شعر الثورة عند مفدي زكريا ، ص ص 49-52

البركان الذي لا ينام: هرّبت الثورة **مفدي زكريا** بعد خروجه من السجن سنة**1959** إلى **المغرب الأقصى** للعلاج، ولم يسكن ولم يهدأ وواصل الجهاد في غربته بين أشقائه بعيدا عن أهله و وطنه بالكلمة الصداحة فتحول إلى سفير للجزائر في العواصم العربية والأجنبية يسمع صوتها عاليا، ويعرف بقضية أبناء الجزائر في أعماق العواصم و يلبسها جحافل المد و الدعم المادي و المعنوي. ينظر: بولحيا الطاهر : تأملات في إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص ص 37-39

منهج مفدي زكريا في الحياة : وجه مفدي زكريا جل جهوده على مكافحة المحتل الفرنسي الدخيل إصلاح الأمـــة بتغيير الفرد طبقا للمبادئ الإســـلامية، ولتحقيق هذا المبتغى والنهج أسس جريدة **الحياة عام 1933** و خط في مقدمتها نهج حياته و رؤيته.-

** " إن استقلال هذا البلد (الجزائر) الجديد بالنسبة لفرنسا وأوروبا يقودنا حتما الى إكتشاف الثورة التي بقيت حتى الأن مجهولة من البرابرة...." Le Courrier D’Afrique ، عدد 261 جوان 1845، صدرت بالجزائر، وكانت أسبوعية شعارها الجزائر فرنسية.

وكل ما يتعلق فهذه النظرة التي توسعت دائرتها في هذه الظروف وهذا العصر، تعتبر" إن وجود الأخر الذي يمثل الإنسان العربي المسلم هو وجود عبثي، ضائع فهو-حسب هذه النظرية-يعاني من التقهقر والإفتقار إلى قيادة الذات، فهو وسط القطيع بالتعبير الهيدجيري أو مغترب عن ذاته ومرتبط بما هو سواه بالتعبير الهيجلي"[(1)].

وتقـــوم الفـــلسفة الكـــولونيالية التي مثلها مجموعة من الإستشـــراقيين ومن أشهـــرهـــم " Sylvain Charles Vallée"* وغيرهم، على نزعة الشعور اللاأوروبي ووضعه في مكانه اللاإنساني، بمعنى محاولة موضعته بالتعبير الوجودي أي جعله موضوع تأمل ومن ثم إمكانية التحكم في وجوده "[(2)] فـــضلا عن كثير من المعـــوقات المؤثرة التي حاولت أن تقهر فيه عـــــزيمة التطلع

- شعارها الإخلاص في العمل الديني و السعي لصالح الوطن رائدها الصدق ومبدئها الصرامة، و كانت هذه الانهج هي مبادئ عمله طيلة حياته.
- **حربه.** كانت ضد الجهل بكل أشكاله و أنواعه و مسبباته، داعيا إلى ثورة علمية بمفهومها البعيد الواسع، لأنه الوحيد الذي يحرر العقول قبل الأوطان.

.كانت بالمرصاد للمتزمتين أصحاب المصالح و الأهواء مكبلي عقول الشعوب النائمة في الأباطيل الناعمة بالخمول و الكسل. .كانت ضد الجامدين الذين يتسترون بغطاء الدين، و يقفون بالمرصاد لكل جديد لا يفقهونه ويعتبرونه إلحادا ومجاراته بدعة، فبجهلهم و تزمتهم و جمودهم يعرقلون عقول الإنسان، و ياخرون الأمة عن ركب قوافل التقدم و العلم و الحضارة عقودا من الزمن لان بلاهتهم أو صلتهم إلى اعتبار الجرائد حرام و علامات انحراف المجتمع عن مبادئه و عاداته، فهي حسب رأيهم الأبله بدعة افرزها و اخترعها الكفار، فغضب مفدي من هذا البهتان البين و رد عام 1927 على هؤلاء.

.كانت ضد المحتل الدخيل، إذ فضح بالدليل القاطع نوايا المحتل الدخيل الدنيئة و كشف أبعاد مخططاته الرامية إلى فصم عرى الوحدة، و بث التفرقة عملا بسياسة **فرق تسد**، واعتبر كل من يساهم و يسعى في تفرقة الشعب و لو بكلمة واحدة عدو للأمة الجزائرية، و هذا الموقف و المبدأ هو الذي التزامه أيام الشقاق الذي حدث عام **1953** داخل البيت الواحد.

.هكذا كان مفدي زكريا عدوا للاستعمار المحتل الدخيل و كان عدوا للجهل و عدوا للمتزمتين الجامدين مكبلي عقول الأمة وكان عدوا لكل من تراوده نفسه بث التفرقة و الشقاق بين أبناء الوطن على أساس عرقي أو طائفي أو جهوي أو ديني.

- **محمد ناصر** : مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة ص11 و ما بعدها و أيضا **يحي الشيخ صالح** : شعر الثورة عند مفدي زكريا التعريف بالشاعر ص8 و ما بعدها "[(1)].

1- **عبد العزيز شرف** : المقاومة في الأدب الجزائري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1981، ص 76

* **سلفان شارل فالي (1773- 1846)** : ضابط خدم أيا م نابوليون في اسبانية، عرف حرب العصابات التي شنها الإسبان على الجيش الفرنسي، فقدم الجزائر وعزل سنة 1940 وحل محله الجنرال بوجو TOMAS Robert Bugeaud هو ممثل السلطة الفرنسية في الجزائر، جوان تميلسي، الجزائر الثائرة، تعريب خيرى حماد، دار الطعبة بيروت1961 ، ص 26

Nietzsche: ainsi parlait zaramoustra trad. ; George Arthur; ED librairgénérale française **-2** 1972 pp 420-421

والتغير نحو الأفضل، وحاول أن يشد من أزره ويخلص من سيطرة المستعمر واحتكاراته ويفرض إرادته الخاصة به على أرضه، فأستطاع بفضل الكفاح المرير وبفضل الوعي الوطني والقوي الإنساني المحب للسلام، أن يتخلص من الواقع الإستعماري المفروض عليه، وأن يلتفت بعد ذلك نحو الواقع الإجتماعي من أجل أن يستكمل عملية التضحية والتغيير وعملية المساهمة في البناء.(1)

وسنتناول بعض القضايا التي عاني منها الشاعر وشعبه، في شتى الميادين، وصولا إلى تحديد أطرها وجذورها الإجتماعية والسياسية، التي أدمت الفرد الجزائري، وجعلت منه مغتربا أسيرا لشتى إنعكاساتها المأساوية. وسوف نبدأ بأهم القضايا الإجتماعية التي أفرزت ظاهرة الغربة و التي أثرت بشكل أو بأخر في مختلف القضايا الإجتماعية الأخرى، ألا وهي :

1- ظاهرة الـــرفض والتنـــديد :

تفطن مفدي زكريـــا إلى المخططات التي رسمها العدو الدخيل، واطلع عن مناهجها الجهنمية المبيدة، وتعرف عن قرب على ألـــوان أســـاليبه اللاإنسانية البشعة، الـــهادفة إلى إزالة كل مفهوم يدعو إلى التمسك بالـــمبادئ الإقليمية، والوطنية، وحب البقاء والإنتماء إلى أرض الأجداد، والتصدي لكل ظواهر الـــرفض والصمود والمقاومة، عن طريق التجهيل والتفقير والنفي والتشريد والإبادة.. وبتركل بقايا اليقظة ونبضات الحياة، وشل إرادة الاستمرار فوق أرض الجزائر(2).

وأما هذه الظروف المأساوية العويصة، وهذه المناهج القاتلة المبيدة لكل حركة حياة، التي انتهجها العدو الدخيل، قصد تجريد الإنسان الجزائري من إنسانيته، واستعباده على أرضه، وفصم عرى تبقى من هويته(3).

1- عفاف سيد صبري : المستشرق و مشكلات الحضارة، ط1، دار الفكر العرب،ي القاهرة ، ب ت ، ص48

2- هكذا صرح جاك شوفلي : 20 أوت 1947 نائب الوحدة الجزائرية"الجزائر هي نحن أما الأهالي (المسلمون) فليس لهم أي حق، لأن الجزائر ليست بلادهم بسبب أنه منذ وصولهم و إذا ما صدقنا المؤرخ البربري الكبير ابن خلدون فإنهم (الأهالي) قد دمروا و هدموا كل شيء وجدوه (...) فالقول أن الجزائر أرض الإسلام مقولة لا معنى لها و هي أكذوبة رهيبة، إذ أن قبل أن تكون أرض الإسلام فان الجزائر كانت مسيحية" انكسارات "عبد العزيز شرف : المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر ، ص 49

3- شارل روبير آجرون : الجزائر ، " آخر خط للنفوذ الفرنسي"، منشورات جامعة قسنطينة، 2004، ص6

رفض مفدي زكريا هذه المخططات البائدة الاستعبادية، وندد بأصولها ومبعثها الخطيرة على الإنسان الجزائري، وما تحمله من أفكار بائدة عنصرية عرقية صليبية، ثم عمد سلوكيا إلى إفشال هذه المخططات الجهنمية، وتصدى لنواياها الخبيثة التي لا تنطلي على واع ومدرك لأصولها ومنبتها.

فشرع يعدد مناهج العدو الدخيل، وطرق أساليبه الإستبدادية العديدة، إذ فضح شعارات العدو الدخيل التي كان دائما يتباهى بها أمام الإنسانية وأمام المحافل الدولية، من عدالة وحرية وأخوة بشرية، وأظهر للعيان " بــأن الدولة التي كانت تزعم أنها مهد للحرية وقبلة للمضطهدين، أصبحت لا تمارس سوى قانون الغاب، قانون العنف والإرهاب، وبهذا التناقض بين وضعية الفرنسيين الذين يتمتعون بكامل الحقوق والحريات في بلدهم وفي المستعمرات التي يتواجدون بها، وبين الحرمان الكامل لغيرهم منها هنا وهناك، تتجلى الحقيقة القائمة على التضليل والتنكر لمبدأ الحرية، مما يجعل الشعوب الواقعة تحت قبضة فرنسا كالجزائر - مثلا- تقاوم سياستها بكل ما تملك من قوة"[1].

فهو يوضح بدقة سياسة التضليل المعتمدة من طرف العدو الدخيل، وكيف يقدم الحقائــق الكاذبة، المملوءة بالمتناقضات المكشوفة لشعوبهم البليدة :

وتعلَّم المستعمــرون شعوبهــا   أن التحكم في الشعوب حــرام!
هم حرروا الميثاق، هلا حرروا   أمما، تسام حقارة و تضــــــــام؟؟[2]

لقد وقف مفدي زكريا عند هذه الأباطيل المحررة من مواثيق غير مطبقة، وعمد إلى تسفيهها عن طريق لهيبه الذي كان يرسله ألسنة، تحرق كل ما تصادفه من أوراق الدجل والتضليل الإستعماري، ويفند أكاذيبه ومراوغاته البائسة المدحورة، إذ فضح بالصور والبراهين الواقعية الملموسة، نوايا القادة الفرنسيين الذين زعموا نية مشاركة بعض الشوائب والشــوارد من الجزائريين

1- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة الجزائرية في الأدب المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1987، ص248

1- مفــــدي زكريــا : اللــهب المقدس (وتعطلت لــغة الكلام)، نظمت بسجن بربروس، عندما خذلت المنظمة الدولية القضية الجزائرية في دورتها الثالثة عشر ، ص 43

في الإنتخابات التي "عزم (**غي مولي**) رئيس حكومة فرنسا آنذاك تنظيمها بالجزائر في شـــتاء 1958 "[1] ، فيتصدى مفدي زكريا لهذه الخديعة التي تخول للعدو عن طريق بعض الجزائريين المنتخبين، تمرير العديد من مخططات وتحقيق مراميه وأهدافه فوق أرض الجزائر، فوصف بحرقة وألم وحسرة وغربة قاتلة، ألوان الأضاليل الكاذبة التي أقدم عليها العدو الدخيل، وكيف بدل وحرف المطالب الشعبية، وحقوق الإنسان الجزائري إلى غير مقاصدها، فيقول :

لاَذَ بالإنتخابات(مولي)* سفاهـــًا … في بلاد تَسيل فيها الـــــدِّماءُ !
أَيُّ مَعنىً لمجلسٍ دون حكـــــــمٍ … وطَنٍ، على يديه القضـَــــاء ؟
نحن نبغي استقلالنا...حرفـــوه.. … ما استَطعتُم...إن صدٌ عنْهُ الحَيَاءُ..
إن جهلتم طريقه...فـــــــعليها … (لافِتَات)... حُروفها حمـــراء! [2]

إن المتتبع لـــهذه الأبيات، يدرك إحـــساس الشاعر الحـــزين وآلامه التي مزقت أحشـــاؤه، كما مزقت الأبيات حسرة وغـــضبا، وأثبتت بالمحســـوس المطلق" نوايا الأعـــداء المـــبيتة، ويبطل خططهم المدبرة، ويكشف سياستهم الدنيئة، ويبين أن كل محاولة تهدف إلى الحيلولة دون تحقيق الإستقلال الوطني لن تجد سوى الرفض القاطع، والمقاومة العنيفة من لدن الجماهير الثائرة، ولن تزيد الثورة إلا إذكاءًا و تصعيدا"[3].

ويهدد بقاءه ووجوده فوق البسيطة، عزيمة فولاذية، وتصميم فريد من نوعه، فهو يتتبع حركات العدو الدخيل، ويستقصي أفكاره وينفذ إلى نـــواياه ومخططاته، وهو في غياهب السجون من وراء القضبان، غريبا وحيدا، فيـــذكر العدو قائلا :

1- عبد الرحمان حـــوطش : شعر الثورة الجزائرية في الأدب المعاصر، ص249.
* **غي مولي** : رئيس الحكومة الفرنسية أيامها (ص 53 اللهب)
غي موليه : زعيم فرنسي إشتراكي تولى رئاسة الوزارة، زار الجزائر في 6 فيفري 1956
ينظـــر : HASSAN CHEBLI : pour une terre de soleil, Armond colins, du Paris 1967 p13
2- مفـــدي زكـــريـــا : اللهب المقدس (حروفها حمراء) وكانت جوابا (لغي مولي) الذي دعا للإنتخابات 1958، ص ص 53-54
3- عبد الرحمان حوطش: شعر الثورة الجزائرية في الأدب المعاصر ، ص 249 .

خبِّر فرنـــسا، يا زمان بأنَنـــــا ... هَيْهاتَ، في استقلالنا، أن نُخْدَعـــا
واسْتَفَتِ يا دِيغُول*شعبك، إنّـــهُ ... حكم الزمانُ، فما عسى أن تصنعا؟
شعبُ الجزائر، قال في استِفتائـــهِ ... لاَ!! لَن أُبيـــحَ من الجزائر إصْبَـــعَا..
واختار يوم (الاقْتراعِ) نفمبـــرًا ... فَمَضَى و صمَّم أن يثُورَ، ويَقْرَعــاَ[1].

وبهذه الوقفة المقدامة، المشحونة بالغضب، والحزن والحسرة على الأوضاع المزرية والظروف القاسية التي يعيشها الإنسان الجزائري، حدد مفدي زكريـــا موقفه، وتموضعه من العدو الدخيل، وذكره أن مخططاته الإجرامية، وبرامجه الإستئصالية غير مجدية تحت سماء هذه الأرض الغالية على أصحابها، وأن وعوده الكاذبة وأباطيله المجسدة في الواقع بالجرائم والتهجير والإبادة، أصبحت معلومة لدى العام والخاص، لن ينخدع بها فاقد الوعي، جاهلا للحقائق عديمها. وأن فرنسا مهما قدمت من إدعاءات وإفتراءات لتضليل مواطنيها الماديين، وتوجيه أنظار الأمم وجهة غير سوية، فإن الحقيقـــة الميدانية للظاهرة العدوانية بينة، لا يمكن أن تحجبها أقاويل ويسيرها بهتان، وأن الشعب الـــجزائري لن ينسى ما حدث له من أهوال ومآسي، وفوق أرضه وقعت جرائم وفظائع بشرية، وفي كل شبر من أرضه الجزائر صورة أليمة وذكرى حزينة و ألم وغربة ومظاهر بؤس وشقاء يقول مفدي داميا متأسيا.

إن الجزائر لم تنم عـــــن ثـــأرهـــا ... أو تنسها أَلَـــمَ المصاب الأعصرُ
هل جئت يا "يوليو" تذكرنا الأَسَى؟ ... عهْدِي بنا، طولَ المدى نَتَذكَّـــرُ !
في كل حيٍّ بالجـــزائر، صـــــورة ... وبكل شِبْرٍ في الجزائر، منْظَـــــرُ
هي وصْمَةُ التاريخ! في أطْوائـــِـــها ... للعالمين، عن (التمدن) مْظهَـــــرَ[2]

---

*- **ديغول** : رئيس الحكومة الفرنسية يومها، هكذا ورد الإسم في الديوان.

1- **مفـــــدي زكريا** : اللهـــب المقدس، (إقـــرأ كتابك) بمناسبة الذكرى الرابعة لإندلاع الثورة التحريرية، يوم1 نوفمبر 1958 في ســـجن (البرواقية الزنزانة رقم 375) ، ص 67

2- **المصدر نفســـه** : اللهب المقدس (وتكلم الرشاش جلا جلاله!!)، ذكرى احتلال الجزائر، جويلية 1830، ص137

كما يوضح أن الإنسان الجزائري واع بخيوط المؤآمرة، ذكي جدا، ليس ذلك الإنسان الذي نسجته خيوط العنصرية في العوالم الباطنية للعدو الدخيل، على أن الإنسان " **الجزائري في رأي المستعمر الطمع، متخلف و خامل و هو لا يعرف إلا السيف، و لا ينحني إلا أمامه وأدرك أننا أذكى منه، فلنظهر له أننا الأقوى فيطيعنا"**(1).

وقد حفظ الجزائري دروس هذه المواقف، وتمرس على مثل هذه الأفكار اللاسوية، وذاق من نتائجها الواقعية الجهنمية وهو اليوم قد عقد العزم أن يزيل من ممراته أسباب الغربة والتشرد والظلم، وأن يستعيد بدمه وروحه، حقه المسلوب وأرضه المغتصبة عنوة، بأسلوب جديد فيه كلام غير مجدي وغير مباح، لأنه إهتدى إلى أفضل لغة تفهم بدقة ووضوح فوق الأرض، ويستمع لها الجميع بخشوع وترو، هي لغة الرصاص جل جلاله، الذي يخرس لغة الأطماع ويوقف همجية الجبابرة الطغاة، يقـــول مفدي :

وتكلم الرشاش، جل جلالـــه..!!	فاهتزت الدنيا، و ضَجَّ النَيِّـــــرُ
وتنزلت آياتـــه، لهَّابـــــــــــةً	لوَّاحةً، أصْغى لها المسْتَهتـــــــرُ
والنَّارُ، للَألَم المبرح، بلْسمَـــــمُ	يكْوَى بها العَظْمُ الكسيرُ فيُجْبَـــرُ
والنـــّارُ في"مَسِّ الجُنُونِ"عَزِيـــمَةٌ*	يُـــصلَى بها المستعمر المُتكَبِّـــــرُ(2)

ومن أغـــوار هذه الحمم، إشتق مفدي زكريا لغته الملتهبة، المعبرة عن معاناته ومآسي شعبه وجعل منها أحسن لغة يؤمن بها، لأنـــها الشافية للقلوب الحزينة المضطهدة، وأفضل اصطلاحات للمشردين التائهين ظلما فوق الأرض، و أحسن صوت يـــزيل من به صـــدئ في القلب، وصمم في بواطن السمع، وفي نـــفسه عنجهية انفصام وعـــلة. لغة سوية تعيد الحق لأصحابه وتعيد الضال

1- **Paul gaffarel** "l'algerie, histoire conquête et colonisation " librairie de friemin-bielot et Cie **Paris 1883 P 266**

* **عزيمة : أو العزيمة** : هي الرقية بالنار في المجتمع الجزائري، يكوى بها جبين من به مس من الجنون، اللهب، ص134 .

ينظر : اللهب المقدس، ص 134

2- **مفـــدي زكريا** : اللهب المقدس، (وتكلم الرشاش جل جلاله!!) ، ص 134.

والمضللين من الطواغيت إلى صوابهم، فيشل عندهم اللسان، عندما يــرون حقيقة الأشــياء، فيحدث في أجهزتهم الذهول، ويصابــون بالــرّهاب القاتل، كما حدث لزعيم المرتزقة الفرنسيين، يقول مفدي ساخرا :

(ديغولُ) يعلم ما نريدُ ويفهــم   ما بـــاله، حيرانَ لا يتكلمُ..؟
فقد الصَّراحَة، أم أضَاعَ فصاحة   أم أن تقرير المصير، توهـــم؟ (1)

ثم ينفجر غضبا، تترامى شحناته النارية المملوءة بالظلم والبطش، وكأنها شظايا قاتلة يلقي بها على وجه ديغول ومخططاته، ساخـــرا متهكما من وعوده الكاذبة، التي أصبحت لا تنطلي على أحد، موضحا أن الكلام المعسول الذي يسيل على رقاب الشعب سمًّا قاتلا، قد أصبح معلوما مفهوما مدروسا، و أن الصراط الذي انتهجه الشعب للخروج من غياهب الظلم والفقر والجهل والتشريد واضح، يقول مفدي :

يا فـــرِنْسا.. كَفَى جهلاً، فإن لنـــا   شعْبًا يرَى الموْتَ، في استقـــلاله، دِينَا
حرب الجزائر، أبقت في دِيَاركـــمُ   قـــوْمًا ذئـــــابا...و شَبَاناً ثَعابينـَـا
أَبَعْدَ خَمْسٍ شِدَادٍ، ملئت عَـــجَبا   "دي غـــول" بالكلم المعسُول يُغْرِينَا
لا سلم في الأرض، ما دامت قَضِيتنا   لمْ تلـــقَ في الأرض، بالقسط المَوازِينَا
ثُرنا على الظُّلم، لا نَلْوِي على أحَدٍ   لاَ شيْءَ في الكوْنِ، دون العز يُرْضِينَا (2)

لأن هذه الثورة لها ما يبررها، من ظواهر بطش لم تعرفها الخليقة فوق البسيطة منذ عرف الإنسان الأرض ومن عليها، في ثورة على الظلم والغربة والقتل.. يقول مفدي زكرياء متألما وحيدا في مساكن غربته حزينا :

أضـــرَّ به معذِّبُهُ، فـــــَــثَاراَ...   وَأَرْهَـــــــقَهُ مسخِّرُهُ، فــَطَارَا....
وَمن طلبَ الكرامةَ، وابْتغـــَــاهَا   يقدِّم مَهْرَها المُهَجَ الحِـــــــــرَارَا...(3)

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس ، (أهدافنا في العالمين صريحة)، سنة 1959عند خذلان اللائحة الإفريقية الأسيوية من طرف تحالف دول الحلف الأطلسي أمام المنظمة الدولية في دورتها الرابعة عشر،ص 143

2 – المصدر نفسه : (ماذا تخبئه يا عام ستينا ؟) ، ص 149

3- **المصدر نفسه** : (ذروا الأحلام وأطرحوا الأماني)، أثناء المؤتمر القومي بليبيا 1960، ص ص 152-153

هذه بواعث الغربة المملوءة بالألم والثورة، وعلى مخططات وأهـداف العـدو الدخيل، وعلى مناوراته المفضوحة المكشوفة الكاذبة، والملونة بدم الأبرياء المهجرين المنفيين من أراضيهم وديارهم، تعكس أكثر من معاناة وتعطي أكثر من معنى عن مأساة الشعب الجزائري طيلة الإستعمار الفرنسي، كما تعكس وعي مفدي زكريا، وبُعد نظره في إدراك أبعاد الأهداف الإستيطانية الوحشية " والنوايا الإستعمارية ومخططاتها الهادفة إلى تعميق الوجود الفرنسي، و تأبيده في هذه الأرض المغربية العربية الإسلامية"[1].

وبناء على ما تقدم نخلص إلى أن مفدي زكريـا، قد تصدى بكل ما أوتي من جهد وقوة، إلى مخططات وأهداف العدو الدخيل، إذ رفضها شكلا ومضمونا، ثم سعى في فضح أبعادها، والتشهير بنواياها ومراميها، فكان جهادا مريرا ضد العدو الدخيل و باعثا من بواعث غربته و معاناته طوال ليالي الاستعمار.

2- ظاهرة الفقر والحرمان:

الفقر هو أبرز المشكلات الإجتماعية التي عرفها الإنسان منذ الأزل، من حيث الفاعـلية والتأثير لظهور ظاهرة الغربة، أنه الخلية والبـؤرة العميقة التي تنمو وتترعرع فيها أعظم وأكثر الآفات الإجتماعية الأخرى التي تسد منافذ التطلع والتقدم عند الإنسان والمجتمعات، كالجهل والتخلف والمرض. وكان مفدي زكريا يبغض هذه الظاهرة بغضا شديدا لأنـه ذاق " منذ مطلع شبابه مرارة الكدح في سبيل لقمة العيش، و لقي في سبيلها الإرهاق و التعب"[2]

وَنَشَأْت مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ مُعَذَّبًا، أَقْضِي الْحَيَاةَ مَضَاضَةً وَعَنَّاءً[3]

كما كان يكره كل المسببات والمصادر التي تعمل وتساعد على انتشاره، ولذلك فهو يبغض الاستعمار والاستغلال والسطو وكل مفاهيم السلب والأخذ عنوة، وكل مـعاني الانتزاع ،

~~1- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة الجزائري في الأدب المعاصر، ص 250~~

1- **محمـد نـاصر** : مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، ص11

2- **مفـدي زكريـا** : أمجادنا تتكلم، (أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا)، ص134

أو الإزالة، لأن هذه التي كانت سبب انتشار الظلم والفقر والحرمان، يقول مفدي زكريـــا :

في الجزائر قُــطَّاع، قد التهموا   خير الجزائر، زُقُومًا وغِسْلِينَا[1]

لقــد كان مفدي زكريا يكره أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان، إن المحتل والظالم المستبد في أي مكان فوق الأرض يحمل معه البطش الفقر والحرمان، ولقد كانت فترة احتــلال الجزائر من طرف الدخيل الفرنسي، من أحلك فترات تاريخ الجزائر، إذ كانت كلها مــآسي وويلات وجحيم وبؤس وشقاء، كما كانت مــخططاته الجهنمية، منذ أن وطئ هذه الأرض الغالية على أهلها، تتجه وتهدف في مباعثها الأساسية، إلى فصم الرباط الأصيل، والروابط الحميمة بين الإنسان الجزائري وأرضه، هذه التربة التي ألفها والــفته منذ غابر الأزمان.

ولقد لجأ المحتل الدخيل منذ الوهلة الأولى للاحتلال، إلى تجريد الجزائريين من أراضيهم الزراعية*، ومن جميع ممتلكاتهم، ومنحها هدية صائغة للمستوطنين الفرنسيين، وبعض الأجناس الأوروبية الأخرى " **إن نظرة عابرة إلى تطور الوضع الزراعي وتوزيع الأراضي يجعلنا ندرك أن الشعب الجزائري أصبح غريبا في وطنه**"[2] واعترف أحد أعلامهم الفكرية والسياسية، ويدعى **أناتول فرانس** بهذه الأعمال الوحشية والسطو والأخذ أرض الجزائريين عنوة وتشريدهم، عندما قال مشمئزا من سياسة فرنسا في الجزائر " **إننا منذ سبعين ســـنة، قد حرمنا العرب من أراضيهم وطاردناهم لكي نجعل الإيطاليين والأسبانيين سكان الجزائر**"[3].

و لم تتوقف مخططات المحتـــل للإستحواذ عــــلى كل شبر من أرض الجزائر، حيث لـــجأ إلى " اكتشاف لون جديد من السرقة، عرف بسياسة تحديد ملكية القبائـــل، وبموجب القـــرارات

1- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (ماذا تخبئه يا عام ستينا)، ص 150

* من سنة 1840 الى 1920 استولى الإستعمار الفرنسي على 10325000 هكتار

Charles Robert Ageron, histoire de l'Algérie contemporaine (Presse universitaires de France) Paris, 1964 pp 50-51.

2- **JEANSON COLETE ET FRANCIS**: L'ALGERIE HORS- LA LOI, édition du juil Paris 1955 pp 140-141

3- Charles Henri Ferand : la révolution algérienne (plon) Paris 1959 p 20

التعسفية و ممارسة سياسة العصا الغليظة، استقر نظام الملكية في 1887م على الـــوجه الذي يرضاه الاستعمار، حيث بلغت ذاك ملكية الدولة المستعمرة أحد عشر مليون من الهكتارات."[1]

وقد أثمرت هذه المخططات اللاإنسانية الإستعمارية مدة مائة وثـــلاثين سنة، حيث أفرزت إلى السطح طبقة نموذجية جديدة في المجتمع الجزائري، قوامها أربعة ملايين أو يزيد من الكادحين المنبوذين المعـــدومين.

الشيء الذي أدى إلى فرار آلاف من أحرار الجزائر بجلودهم إلى مناطق قاحلة جرداء، يغلب عليها الطابع الجبلي والصحراوي " أين تنعـــدم الشروط الأســـاسية للحياة، ومن أجل الحـــفاظ على حياتهم واتقاء خطر الموت الذي أصبح يهدد أولئك المطرودين من أراضيهم وديارهم مجبرين على أن يتحولوا إلى عبيد و أجراء، يعملون في أراضيهم المغتصبة لصالح المعمرين لقاء ثمن زهيد وقوت حقير، كثيرا ما تتبعه إهانات ومعاملات غير إنسانية"[2]

وقد تمخض عن هذه المخططات الإجرامية، وهذه الممارسات اللاإنسانية البشعة، هجرة الجزائريين إلى بلدان عديدة، بحثا عن النجاة من إبادة، وعن الرزق في ظروف قاسية، وهي ثوابت تاريخية تؤكد تدهور أوضاعهم الإجتماعية، واستفحال آفتي الفقر والحرمان.

وقد عايش مفدي زكريا، ما كان يجري من أحداث و تطورات على أرض الجزائر، ووقف بشعره عند مختلف الأوضاع والظواهر خاصة الإجتماعية منها، وأبرز ظاهرة الفقر والحرمان التي استفحل خطرها في قصائده، نتيجة البطش والتهجير الجماعي والإبادة، حيث صور في شعره العديد من الظواهر اللاإنسانية التي سلكها المحتل الدخيل فوق أرض الجزائر ضد الأهالي، كما أبرز خطورة هذه المعاناة، و كشف أساليب المخططات الإستعمارية وخطورة إبعادها، إذ يقـــول :

1- حمدي حافظ و محمود الشرقاوي : (الجزائر بين الأمس و اليوم)، المؤسسة العربية للأنباء و النشر و التوزيع و الطباعة، الدار القومية العدد 272، ب ت، ص ص18-20

2- عبد العزيز شرف : المقاومة في الأدب الجزائري، ص ص 38-39

يَا فِرنسا، كَفَى خِداعًا فَإِنـَّا   يَا فِرَنْسا، لقد مَلَلْنَا الوُ عــُـــــودَا
صرخ الشعب منْذِرًا، فَتَصـَا   مَمْتِ، وأبْدَيْتِ جَفْوةً و صـــدودَا[1]

كما صور الحالة المأساوية التي أصبح عليها الإنسان الجزائري، الطريد الشريد التائه فوق أرضه فيقول :

أَمِنَ العدْلِ، صَاحِبُ الدَّار يشْقَى*   ودَخِيل بـــها، يعيشُ سَعيـــدًا ؟!
أَمِنَ العدل، صَاحبُ الدَّار يَعْرَى،   وَغَريبُ يُختـــلُ قَصْرًا مُشيـــدا !
ويجـــوعُ ابْنُــهَا، فيعدمُ قُـــوتًا*   ويَنَالُ الـــدَّخِيل عيْشًا رَغِيـــدَا ؟؟
ويُبِيـــح المستعمـــرون حـــماها   ويظل ابْنُهَا طَرِيـــدًا شَرِيـــدًا ؟؟[2]

فيغتاض، ويتصبب شحناته دما، لما أصابه وشعبه من ظلم الدخيل، وضيق أعماله ومخططاته الجهنمية، فيوجه الخطاب الإنساني المـــدرك لأسرار الحقائق، مشحونا بالإغتراب المركب، أن لا يسقط هذا الإنسان المدحور المظلوم، في غياهب الرضا بالقضاء، ويسكن للهوان، ويرضى بالذل، فتلك مصيبة المصائب تزيد الشاعر غربة في غربة، فيقول : مستنهضا الهمم، بائس الإنفعال خـــائفا عواقب السلوكات وإرتدادها، لأنها إن حدثت ذلك الفـــناء عينه.

يَا ضـَــــلال المسْتضعَفِين، إذاهم   أَلِفُوا الذُّل، واستطَابُـــوا القُعُـــودَ!!
لـــيْسَ في الأرضِ، بقعة لـــذليلٍ   لعنتْهُ السَّمَـــا، فعاش طِريـــــدَا...
يا سماءَ، أصْعقِي الجبانَ، ويـــا أر   ضُ ابلعِي، القانع، الخنوعَ، البلِيدَا[2]

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس (الذبيح الصاعد)، نظمت بسجن (بربروس) في القاعة التاسعة أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشن المقصلة أحمد زبانا في ليلة 18 جويلية 1955، ص 17

* من الذين تصدوا لظاهرة الفقر، فرحات عباس في كتابه، La nuit coloniale Juliard 1962 paris p120

* كان أفراد الجيش الفرنسي يستبدون ويجبرون الأهالي على ترك أراضيهم، خشية الموت

Jules Roy : La guerre d'Algérie édition Bernard Paris, 1950 p162.-

2- المصدر نفسه : (الذبيح الصاعد)، ص ص 16-17

كما يصور إحساس الشعب العام بالغـــربة في وطنه، ويبرز ظاهـــرة الفقر والحرمان واضحة، هذه الظاهرة التي طالما عـــانى منها الإنـــسان الجزائري، إذ يـــرى بأن الإنسان قـــد ولد حرا، يتحكم في مصيره كما يرى ويدرك دون أن يتحول إلى عبد يُتحكم في إرادته ومصيره، لذا نجده يندهـــش عند هـــذه المتناقـــضات السلبية الجائرة، ويتساءل عن ســـبب ونوايا فاعـــليها، الذين أفرزوا إلى الظاهرة الكونية وضعية مأساوية آلت إليـــها حالة الإنسان الجزائري، إذ جرد من حقه في الحياة فصار غريبا فوق أرضه شـــقيا، بينما الغاصب الدخيل ينعم بالحياة التـــامة التي استحالت إلى ألوان البذخ والترف والإستقرار، والتقلب في نعيم الدنيا، على حساب صاحبها الشرعي، الذي غُرِّب عنها، وفتك به الجوع ولازمته الغربة في كل مكان حل بـــه، فيصبح ألما وغربة من جراء هذه الممارسات الجهنمية اللاإنسانية فيقول مفدي زكريـــا مذكرا :

ليس في الأرض سادة وعبيد كيف نرضى بأن نعيش عبيدا؟![1]
مَضَى زمن القَيَاصَرة القُدَامَى وعهْـــدُ الفتكِ بالضعفآ تَـــوَارَى[2]

إن عهد العبيد قد ولى وإلى الأبد، وأن مثل هذه الجرائم ضد الإنسان الجزائري بينة لسكان الأرض، ولا يمكن أن يوصف بها إلا من كانوا مرتزقة، ولا شيء يمكن أن ينطبق على المرتزقة الشذّاذ الغاصبين أرض الأسوياء الآمنين، إلا أنهم لصوص وقطاع سبيل، رُفعتهم مواطن غرائزهم الإجرامية إلى الإعتداء والنهب والتنكيل، والإستحواذ عنوة على خيرات البـــلاد واستغلالها بغير وجه حق ، فيقول :

وفي الجـــزائر، للتنكيل، مدرسة* تعلم الفتك بالشعب، الشياطينـــَا
وفي الجـــزائر، للتمثيل محكمـــة فـــيها، الفظائع، سمُّوها قوانيـــنَا
وفي الجـــزائر، نيران مُؤَجَجـــة تَذْرُو المساكنَ، لم تُعْفِ المساكينا

1- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص16

2- **المصدر نفـــسه** : (ماذا تخبئه يا عام ستينا ؟)، ص155

* أسس الفرنسيون بالجزائر مدرسة خاصة في تعليم الشرطة في مدينة سكيكدة، لجنود المظلات مختصة في أساليب التعذيب والتنكيل، ينظر : اللهب، ص 150.

وفي الجزائر، قُطّاع، قد التهمـــوا خــــــير الجزائر، زُقُوما وغسْلينا[1]

هذه الصور البشعة التي رسمها الشاعر الحزين، لا يمكن أن ترسم بهذه الدقة المتناهية إلا داخل عمود الشعر، فهي قد ألمت إلى حد بعيد بمأساة الشعب، وما يعانيه من غـــربة داخل وطنه وذل وضياع، فنجده يثور على هذه الظواهر الأليمة، وهذا الـــوضع المزري، مستنهضا خامد الهمم من أبناء الجزائر الأشراف الأحرار، إلى إدراك أبعاد غربته ومأساة معاناته، وأن ينظروا إلى ما أصاب بلادهم من كوارث الدخيل البغيض الذي عاث في كل شبر منها فسادا، بأهلها استعبادا وبطشا وتهجيرا و إبادة، وأرسى فيها ألوان الجهل والفقر، على مرأى ومسمع بعض المرتزقة من النواب، الذين تباع وتشترى ذممهم بأحط وأبخس تقدير، فتزداد وتتصاعد نيران غربته، وتتعالى صرخات آلامه وأحزانه على أمته المكبلة من جميع النواحي، التي لم تجد في العالمين منقذا أو منصفا فيقـــول :

اتقوا الله، في الجزائر، يا نـــــــا س، فقـــد ضاقتِ الجزائر صبرًا...
عاث فيها الطغاة، عَسفًا وظُـــلمًا ورمـــاها البُغَاةُ، جهْلاً و فقـــْرًا
و استُذلّتْ رقابُها، فتراهــــــــا وهِيَ في أرضـــها، تَجُوعُ وتَعْرَى
واسْتُرِقّتْ نوابُها، لـــــــــيس إلا ذمَمُ كـــالدُّمَى، تُبَاعُ وتشْتَـــرَى
وَ ضَميرًا منَافِقًا، ظل يخْـــــــتَا لُ، ويخْتَان شَعْبَهُ: بَاءَ خُسْـــــرًا[2]

لقد أدرك مفدي زكريا مخططات العدو الدخيل، منذ أن وطئ أرض الجزائر، إذ إعتمد سياسة التجهيل و التجويع حتى يستطيع البقاء والديمومة في هذه الديار المملوءة بنعيم الدنيا وخيراتها المتنوعـــة، ويفلـــح في الحكم في مصيره وإخـــضاعه، وأول صورة وظاهرة قام بها المحتل الـــدخيل في برنامجه العـــدواني، هي ظـــاهرة تشريد الأهـــالي من على أرضهم حتى يهيموا ولا يقر لهم قـــرار، فأقدم على مصـــادرة الأراضي الزراعية التي كـــانت في يوم ديوان حبوب أوروبا بكاملها،

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (ماذا تخبئه يا عام ستينا ؟)، ص 150

2- **المصدر نفســـه** : اللهب المقدس (شاكر الفضل ليس يعدم شكرا)، بمناسبة تكريم الأستاذ أحمد المدني 1955 ، ص ص 281- 282

من أصحابها ودفع" بالفلاحين في بلاد القبائل إلى أكل العشب وأوراق الشجر وهم شبه عراة"(1).

كما قام بزرع الجهل، عن طريق نهب الكثير من المخطوطات العربية القيمة، وأتلف بعضها عمدا أو حرقا وذلك بشهادة رحالة ألماني هو " **موريس فاغنر Morice Wagner** " الذي قام في الجزائر مدة طويلة وذلك بـــعد احتلالها بست سنوات، وشارك في الحملة على مدينة قسنطينة، وذكر فاغنر" رحلات في ولايات الجزائر' أن جنود فرنسا قد أتلفوا عددا كبيرا من المخطوطات النفيسة التي عثروا عليها في دار بن عيسى بقسنطينة"(2).

كما أقدم على غلق مؤسسات التعليم بمختلف تخصصاتها، بما فيها مؤسسات التعليم الديني، كما حولت بيوت الله من مساجد ومدارس قرآنية إلى كنائس* واصطبلات، نفت العلماء وشردت الفقهاء. و بهذه الأعمال الإجرامية يكون العدو الغاصب قد سد جميع منافذ الحياة على سكان الجزائر الأصليين، وفتح مرابع العزة والترف والنعيم والثراء إلى كل من هو دخيل هجين مـــستقدم من أوروبا.

إن النماذج الشعرية التي رصدها مفدي زكريا، من صور البؤس والغربة والفقر والجهل المتناثرة داخل الظاهرة الإجتماعية والطبيعية، تعكس بصدق غربته الأليمة، وغربة الإنسان الجزائري فوق أرضه وبعيدا عنها، ونحس من خلالها بالثورة المؤثرة الحزينة " بشقاء الفلاح وأنينه وتشاؤمه، كما نحس بذلك في شعر الرومانتيكيين، إلا أنه في أخر القطعة داخله الأمل كيف لا وهدف الثورة هو تحرير الجزائري فلاحا كان أم غيره من الفقر والجهل والعبودية، فالأرض سترجع عاجلا أم آجلا إلى أصحابها"(3)

1- **عبـــد الغني مغربي**، La paysanneri, face à la colonisation (Edition en APE), Alger 1973, page 33.

2- **نـــور السلمان** : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص ص53-54

ينظر أيضا : Actes du XIV congres international d' alger,1905 3eme partie, pp 602-603

* **مسجد سيدي مروان** : في عنابة يعود إلى القرن الرابع الهجري حول إلى مستشفى.

هدم **مسجد كشاوة** الذي شيد سنة 1206هـــ وبيت دكانه **كنيسة سانت فيليب** سنة 1853 وحول **مسجد سيدي بلحسن** في تلمسان الذي حول الى متحف... الأصالة : العدد الممتاز 1972 المعد في أبو عبدلي الإحتلال الفرنسي ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، ص 309

3- **محمد الطاهر الطمار** : تاريخ الأدب الجزائري، ش و ن ت ، ب ت، ص338

والأمل الذي يشع في قصائده والذي - عساه- أن يزيل هذه الغربة ويذهب أغوار هذه الأحـــزان.

وهكذا نخلص إلى أن غربة مفدي زكريا كانت بـــواعثها الإحتلال الفرنسي، والمخططات الجهنمية التي رصدها للشعب الجزائري، لأبادته وتغريبه، والشواهد التي عرضها من نماذج شعرية، تصور غربته، وتعرض المآسي التي لحقت بالشعب الجزائري، ويمكن أن نلتمس له عذرا إذا كـــانت في قصائده المعبرة عن غربته أساليب متوسطة في بعض الأحيان، لان ذلك راجع لاهتمامه بالمضمون الحاد الذي يعرض الظواهر العابسة الحزينة والمشاهد المفزعة التي تعرض لها في السجن وخارجه، لذا يعد هذا النمط من المآسي مواطن أحزانه، كما أن ظاهرة المبرر لها، قد طغت على قصائد الغـــربة عنده على الجانب الفني، ولكن تظل هذه الوثائق الفنية مملـــوءة بالأحاسيس الصادقة معبرة عن الظواهر التي تعرض لها الإنسان الجزائري إبـــان الثورة، و وثائق هامة يعجز التاريخ أن يصورها...

3- ظاهرة الجهل والتخلـــف :

للجهل أواصر قرابة وانصهار تام تربطه بالفقر والحرمان، لأن كلاهما يُعد بابا واسعا يقود ويفضي إلى الغربة والإغتراب، إذ يمر أحديهما منه إلى الأخر، فالفقر يتحكم بالأجساد والقدرات التي " ينطلق بها الإنسان نحو تحقيق أهدافه، والجهل يتحكم بالنفوس والعقول والطباع، ويجعلها تعيش في دوامة التخلف والتقهقر والضياع "(1)

لقد عـــانى الشعب الـــجزائري من الجهل بسبب الإحتلال الفرنسي، سنينا طويلة وبسبب " تعسف السلطات الإستعمارية تجاه الأطر التعليمية الجزائرية التي كانت موجودة آنذاك، حيث عطلت الزوايا عن أداء مهامها التعليمية والخيرية، وأغلقت الكتاتيب القرآنية والمدارس بحد القانون الإستعماري الجائر "(2).

1- **الهاشمي عـــلوي** : " من أين يجيء الحزن"، دار العودة، بيروت، 1972، ص83

2- **عبد الله حمادي** : الحركة الطلابية الجزائرية (1962 –1971) ، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1995، ص ص 10-11

حيث خبت فيها أنوار المعرفة، ودفع بالعديد من أبناء الوطن إلى الغربة، إذ " هجر المدرسون بالنفي* والحبس والإعدامات فكانت ثمرة العشرين سنة من الاحتلال للجزائر التجهيل بالجملة للشعب الجزائري "(1).

حتى كان العصر الحديث الذي تفتحت فيه العقول وأينعت البصائر المغمضة عنوة، وبدا ذلك السبات الذي خيم بستائره فوق أرض الجزائر يندثر ويتبدد شيئا فشيئا تحت ضربات الوعي الوطني الجزائري .

جاء مفدي زكريـــا في هذه الظروف الصعبة، لابسا عباءة هذه الأوضاع المعقدة، وتحمل مسئولية سنين من الزمن من جهل وفقـــر وحرمان وتخلف، تراكمت يوما بعد يوم، فأضافت إلى المعاناة والمأساة والعـــذاب، عذابا وإلى الغربة غربة، وإلى الجهل والشقاء ستارا وحجابا، حتى سدت المنافذ والكون، وقضت على كل بصيص من نور وأمل، فحزن الشاعـــر، وتألم لما أصاب الإنسان الجزائري من مأساة، فيوجه أنينه ولومه للدهر الذي سبب هذه الوضعية لأهله، وشوه صورة وطنه المسلوب.

هو الدَّهرُ ما أبقى بمقْلتِهِ دَمْعَـــا ... وتلك اللَّيالِي السُّود جُرّ عَنْهُ النَّزْعـَــا
فــَأصْبَحَ يبْكِي صَامتًا بقَريـــحَةٍ ... تَجمَّعتِ البلْوَى على وَأْدِها جَمْــعَا
كئيبُ يُنَاغِي كلُّ نضو معـــذب ... بمُهجَتِه الحُرَّى على وَطن يُنْـــعَى
وينْظر مكْلومًا إلى حظُّ أُمّـــــهِ، ... ويْبْرحُهَـــا، ويْلاهُ قــَادتُها صَفْعـَــا
وَمَا كَانَ غيرُ الشِّعْرِ سَيْفاً لبَائِسٍ ... يخاطبُ مَوْتَى، لاَ تُطِيقُ لَهُ رجْعَـــا(2)

* "إن السلطة الفرنسية قد حكمت بالنفي والإبعاد على الشيخ العلامة **علي خوجة**، والعلامة **محمد بن محمود** المعروف **بابن العنابي** المفتي الحنفي : ابن الإسكندرية، حيث أسندت إليه الحكومة المصرية منصب مفتي الديار، وبقي إلى أن مات هناك ...

الأصالة : العدد الممتاز 1972، **المهدي أبو عبدلي** : الإحتلال الفرنسي ومقاومة الشعب .... : ص 309

1- عبد الله حمادي : الحركة الطلابية الجزائرية (1962 –1971) ، ص11

2- مفدي زكريـــا : أمجانا تتكلم، وقصائد أخرى، جمعه وحققه، **مصطفى بن الحاج بكير حمودة**، مؤسسة مفدي زكريا، ANEP ، الجزائر 2003، (يا رحمة الله حلي في منازلنا)، ص 81

ثم يصف معدد بواعث غربته، و مباعث لهيب حزنه وأساه، فيقول مذكرا بالجهل الذي إذا أصاب أمة، جردها الحياة وأدخلها ظلمات التخلف :

أَمأْسَاةُ أَبْناءِ الجزَائـــرِ هـــل إلـــــى مَخَازيكِ مِنْ يَوْمٍ يَرَى بَعْدَهُ نَفْعــًا ؟
جَزائـــــــرُ مَا أدهى خُطوبًا تَعــاقَبتْ عَليكِ ، وكم لاقيتِ منْ خَيْبةِ المَسْعَى
جَزائرُ مَا أشْقاكِ بالجَهــْلِ، إنَّـــــــهُ إذَا حَلَّ شَعْبًا، صَاحِ، أَوْرَدَهُ النَّزَعَــا
هوَ الجَهْلُ*إنَ يَحْلُلْ بِلادًا أَنَالَـــــــهَا مِنَ الـــدَّهْرِ مالاَ تَسْتطيعُ لَهُ مَنْعــَا(1)

لقد صور مفدي زكريا بواعث اليأس و الضياع التي كان الإنسان الجزائري يعاني منها فوق أرضه، فهي تعبر بشكل واقـــعي وصريح ومؤلم عن مدى تفشي ظاهرة الجهل بين أفراد المجتمع الجزائري، هذه الظاهرة التي جعلت الشاعر يفقد الأمل في التغيير، وينظر إلى المستقبل نظرة تشاؤمية حزينة سوداء مظلمة، منطلقا من واقع مأساوي لا يبشر بالخير، لما يحمله من تخلف وتأخر وتصادم وأحقاد وشقاق، فيستغيث في غربته، مستلهما همم الأحـــرار من أبناء وطنه المسلوب.

بَـــني وطني ماذا الرُّكود بـــأمَّـــةٍ رَمتْها العوادي تَحْت أقْدامِها صرْعَى؟
إلاَمَ؟ و قد أودى بها، و أَمَـــضَّهَا، [سنون]* بلاءٍ، من سِنِي يُوسُف سَبْعًا؟
و صَادَمها كَفُّ الحوَادِثِ غِيلـــَةً بوَيْلاَتِ مَحْـــقٍ، لَنْ تُطِيقُـــوا لها دَفْعَا
وشــــرَّدَهَا الأَحْقَادُ في كل وِجْهَةٍ إلى شرٌ غَـــايَات، طوين لها خَدْعــَــــا
وَأَوْدَى بِهَا، -وَيْلاَه-، جَهْلٌ مخَيِّم، فَأَعْـــدَمَ مِنْها القَلْبَ، والعَيْنَ، والسَّمْعَا(2)

* " بعد أن استطاع المستعمر أن يوجد شعبا عاجزا عن إعادة صورة ماضيه، وبعد أن أطفأ فيه وعيه لقيمه ومبادئه، ثبت في ذهنه عادات جديدة في التفكير "

IBRAHIMI AHMED TALEB, de la colonisation à la révolution culturelle (Société Nationale d'Edition et de Diffusion, Alger, 1973, pp12-13

1 - مفدي زكريـــا : أمجادنا تتكلم، (جزائر ما أشقاك بالجهل)، ص ص 82-83

* **في الأصل** : "سني" وتقييمه من مفدي زكريا، المصدر نفسه : ص .82

2-المصدر نفســــه : ص 82

وقدم بواعث هذه الغربة، ممثلة في الشقاق والأحقاد، في أبشع سلوكياتها لأن هذه الظواهر إذا تكدست في المجتمع، أفرزت أمراضا وآلاما تكدر حياة الإنسان وتقلقه، كما يستعين بالصور المتنوعة العديدة لتأكيد هذا الجهل وذاك الشقاق ونتائجهما، ولإبراز الواقع ككل بشكل يترك في النفس أبلغ الأثر، كما أننا نراه " لم ينقل الواقع كما هو فحسب بل أضاف إليه الوسائل المؤثرة التي تهيئ الإنفعال بواقع مر اليم، فيه الفقر والتخلف والشقاق بكل مبادئهم التي تهين"(1) الإنسان وتدفعه للإغتراب.

والجَهْلُ مزَّقَنَا، و شَتَّتَ شَمَلَنَا، [نَقْضي]* الحَيَاةَ تَنَازعًا وخِصَامَا(2)

ثم لا يستطيع الشاعر أن يوقف حرقته لما أصاب الإنسان الجزائري من ظلم وتشريد وجهل ويتمٍ، فيصرخ ملاى شدقيه صراخا مدويا حزينا، يحمل في أجراسه كل مضامين الأسى والغربة.

يَا ويلتاهُ على العرُوبة، أصْبحَتْ تَرْمِي النِّعَالَ، وتَطرحُ الأَقْدَامَا
يَا لَهْفَتَاهُ عَلَى (الجَزَائِر)، قد غَدَا أبْنَاؤُهَا في أرْضِهِمْ أَيْتَامَا
منْ بَاعَ بخسًا عِزَّهُ*، بِمَذَلَّةٍ قَضَّى الحَيَاةَ تَعَاسةً وظَلاَمَا(3)

ويترف قلبه دما، على مناظر رهيبة، وظواهر إجتماعية عجيبة، أوصلت الإنسان الجزائري إلى الحضيض الأسفل من التخلف والجهل والفقر، مناظر لا يستطيع عندها الشاعر صبرا، فيحاول أن يجمع قواه لرصدها كبواعث حادة في غربته الطويلة.

1- **محمد هـدارة** : تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، دار الثقافة، بيروت، ب ت، ص355

* **في الأصل** ، و " مفدي زكريا " : "تقضي" ، وأنسب منه بالسّياق ما أثبتَ. ص 138

2- **مفدي زكريا** : أمجادنا تتكلم، (ركب الحجيج تحية وسلاما)، ص138

* **من " مفدي زكريا "** : " عزة " المصدر نفسه، ص 138

3- **المصدر نفسه** : ص138

وَألاف نَـــشْء لمسْـــح الحذَاء   عـــَلَى كلٌ مَزْبلَةٍ شُـــــــــرَّدِ
مَناظرُ تُدْمِي فؤادَ الحَلِيـــــم،   وتـــــُذْهبُ بِالْعقلِ والأَكبُدِ(1)

ويرثي في غربته نفسه عن واقعه، وواقع أمته، ويتذكر ويُذكر بها أبناء شعبه المكبل بأغــلال الإستعمار الفرنسي، أيام العرب الوضيئة، أيام الــرسالة المباركة ومفاهيمها السمحـــة، التي حطمت القيود والأغلال، وشرعت للكون المناهج، وأنارت العقول العربية لتصنع، إضافة يوم الناس هذا.

وَ قُصَّ لهم، نــَبَأَ الســّابقِينَ   مِنَ السَّلفِ الرُّكَّعِ السُّجَّـــدِ
مِـــنَ الخَالِدينَ خَلُودَ الجِبَال،   مَعَ الصَّالحَاتِ إلى الأَبَــــــدِ
لَقْد عَبَّدُوا للْبنينِ السَّبِيـــــلَ   سَبِيلَ الحياةِ، فَمَنْ يَقْتَــدِي؟ (2)

1- **مفـــدي زكريا :** أمجادنا تتكلم، (فهذا فؤادي وهذي يدي)، ص 112
2- **المصدر نفسه :** ص110

من بواعث الغـــربة في شعر مفدي زكريـــا أيضا، تعـــدد الـــزوايا و إعـــانتها للمحتل في نشر الجهل والقيام بالتحريف، فمالت إلى جانبه وأرقدت العقول، فثار عليها الشاعر، لأنها تكبل الإنسان وتوئـــد كل تطلعاته في الحرية والإنعتاق، وفي إعاقة عجلة الحركة الزمنية وتدفعه إلـــى التخلف والتحجر، على القوى الخارقة التي رأت في مثل هذه العادات والمفاهيم البالية المغرضة جمودا وجهلا وتخلفا وتكبيلا للانطلاق، لأنها " أبعدت الدين عن جوهره الإنساني الرحب"[(1)].

وثورة تخلص الإنسان الجزائري من سيطرة فئة تستغل الدين دجلا وقهرا للإنسان وتغريبا له، و ترسيخا في الجهل والظلام فذكر مفدي زكريـــا ذلك :

أَفــَاعِي الشَّرِّ أكــْفُونا سُمُومكمُ   أينَ الكــرامةُ؟ أينَ العَدْلُ وا حَرْبَا
أُيَنشدُ النُّورُ من ذَاتِ الظَّلام؟ وهَلْ   تَـــلْقَى الكرَامةَ فيمَنْ عِرْضَهُ خَرِبَا
مَن دَبـــَّر الكَيْدَ والتَّدْجيلَ مُنتقِمًا   أَضْـــحى لَهُ كيدُهُ تاللهِ مُنْقَـــلِبَا[(2)]

أساليب منفعية ضد المبادئ الإسلامية السمحة*، وطرق و طرائق للحد من حرية الإنسان الجزائري في التفكير السوي، ووضعوا أنفسهم رواد ماضيه، ومنارات مستقبله، وكانوا سدا منيعا للنور والحياة، فأدخلوا الإنسان والمكان في غياهب الشطحات والجهل والتخلف.

لَطَمـــُوا الدِّين والكَرامةَ والعِلْـــ   م، بخـــزْيٍ، وقِحَـــةٍ وعـــنادِ
سَدَّدُوا ضدَّ شَرعة الله كَـــابُـــو   سًا ألـــيمًا، وضدَّ كل ســـدَادِ
وأَعـــدُّوا لشعبِهمْ ذَارِيـــَـــاتِ   خَـــانقَاتٍ أَمَامَ كلِّ مُـــــــنَادِ
وانْطَؤوْا تحت هيكلِ الدِّينِ ظُلْمًا،   فَغـــدا الـــدِّينُ عَـــنْهُم في ابْتِعادِ

1- **محمد الطمـــار** : تاريخ الجزائر الحديث، ص345

2- **مفدي زكريـــا** : أمجادنا تتكلم (ته يا عمان بنصر الله)، ص 70

* لم تكن السلطة الفرنسية تتورع من استعمال أســـاليب العنف والسجن لتنفيذ أوامرها وقوانينها، فسجنت أربعة من خيرة جـــمعية العلماء. **ينظر** : " نور السلمان : الأدب الجزائري، في رحاب الرفض والتحرير، ص57

خَدَعُوا النَّاسَ بالْعَائمِ كُـــــبْرَى، وبَنُوا في الرُّؤُوسِ ذَاتَ العِمَـــادِ(1)

ثم لا يجد الشاعـــر سبيلا أمام هذه الظواهر المنحرفة، التي أدمت قلبه، وجرفته أساليب التدجيل والخيانة للشعب والوطن، إلى ميادين الغربة، فثار كالمارد يعدد عيوب هؤلاء الدجالين الدخلاء على الدين، الجهلة بأمور الحياة، أصحاب الملذات وأعواد العدو الدخيل المحرقة وأذنابه التي تحافظ على بقائه واستمراره.

يدعو عليهم وعلى أعمالهم الشيطانية، التي تنبعث من أعماقهم الحاقدة على كل مدرك للحقيقة، عالم بما يذهبون إليه من دجل، متصد لهم بالبينة، كاشفا لهم عوراتهم وجهلهم المركب.

يَا لَحَا اللهُ أَوْجُهًا رَسَمَ الشـــرْ رُ عَلَى صحْنِها هـــنَاتِ السَّوَادِ
وقُلوبًا أَفْعمِنْ حِقْدًا، و[أَضْغَـــا نا] وزُورًا على دُعـــَاة الرَّشَاد
وَرؤُوسًا قد عشَّشَ الجهْلُ فِيها، فاسْتَوَى الحيُّ عنْدَها بالجَمَـــادِ
ولَـــكمْ مَـــوَّهُوا الحقِيقَة بِالْبَا طِلِ، والحَقُّ دَامـــغُ الإِشْـــهادِ(2)

يترآءى لنا مما تقدم أن مفدي زكريا، قد قام برسالته أحسن قيام. فقد دافع بحدة ومرارة عن الكيان الجزائري في عقر بيته، و أبرز بواعث غربته من جراء الأحداث والظروف القاسية التي مر وعاني منها الإنسان الجزائري، وأظهر آلمه وحزنه وعمق جراحه، من جراء الوسائل والطرق التي انتهجها الإستعمار الفرنسي وأعوانه وأذنابه الجبناء الخونة، في محاربة الدين خاصة وتحريفه للحفاظ على مصالحهم، وإبقاء الشعب الجزائري في دوامة الجهل والتخلف.

1- **مفدي زكريا** : أمجادنا تتكلم (مصرع الفضيلة)، ص ص 72-73
2- **المصدر نفسه** : ص ص 73-75

1- ظاهرة القمع والإبادة :

لقد استعمل الإستعمار الفرنسي، منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر سياسة الأرض المحروقة "حيث لم يكن يتردد في استعمال كل الوسائل التي يتوفر عليها من أجل إخماد لهيب الثورة"(1).

لكن كل محاولات المحتل باءت بالفشل الذريع، أمام صبر وصمود الشعب الجزائري، وأمام صور الجرائم المقترفة ضد الأبرياء الآمنين من مختلف شرائح الأمة من الشيوخ والأطفال و النساء العاجزين، حتى الأرض والحيوانات والتي تفوق بكثير جرائم النازية، ومن ثمة إرتفعت أصوات الحق من أفواه رجال محبين للخير وعاشقين للحرية والحياة والكرامة ومدافعين عن السّلم هنا وهناك منددين بأصوات عالية ومستنكرة الأعمال الوحشية والإباداة الجماعية* التي يتعرض لها الإنسان الجزائري فوق أرضه الغالية على أصحابها، وضد ما يحدث من تقتيل وتدمير وقمع وتجاوزات وإنتهاك الحرمات والأعراض وحقوق الإنسان في الوجود " لقد كانت المجازر الرهيبة التي اقترفها الاستعمار الفرنسي في حق المدنيين محل استنكار من المنظمات الإنسانية و أحرار العالم"(2).

وقد كان مفدي زكريـــا في طليعة الشعراء الجزائريين الرافضين لهذه الأساليب اللاإنسانية ضد إخوانه فوق أرض الجزائر، من تجاوزات وأعمال يشيب لهولها الرضيع، وقد جاءت أشعاره مجسدة بصدق آلامه وغربته، ومصورة فضاعة الجرائم التي اقترفها سفاكوا دماء الشعوب" الذين سيظلون محل إدانة من قبل التاريخ والإنسانية"(3).

ومن غربة الشاعر صور لهمجية ووحشية وقساوة المحتل الفرنسي ضد الشعب الجزائري الأعزل.

1- **نـــور الســـلمان** : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص157

2- **مفيدة محمد قميحة** : الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ب ت، ص233

* لجأ ت فرنسا إلى وسائل متعددة لطمس تاريخ الجزائر وشخصيتها وارتباطها الأرضي والإجتماعي حتى يسهل أمامها مجال التشتيت والتهجير ... وكانت تدابيرها رهيبة مضمونا وتنفيذا : التحقير والإذلال. الإبادة الثقافية، تعطيل نفوذ المساجد، تشجيع اللهجات المحلية خاصة البربرية .ينظر : **نور السلمان**، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص ص 45-85

3- **المــرجع نفســه** : ص234

أكبادُ من... ؟هـــَذِي التي تتفطر؟ ودماءُ من ..؟ هذي التي تتقطّرُ؟
وقلوب من ... ؟هذي التي أَنْفاسُها فـــــوْقَ المذَابح للسمآ، تتعطّرُ؟
ورؤُوسُ من ...؟ تلك التي ترْقَى الى حبل المشَـــانق، طلقةً تتبَخْتَـــرُ؟
ومن الذي ....؟عُرْضَ الجزائر شبَّها من كل شاهقةٍ، لظًى تتسعَّـــرُ؟
أَجـــَهنمُ... هَذِي التي أَفْواهـــُهَا من كلٍّ فـــجٍّ، نقمةً تَتَفجـــرُ[1]

وتزداد بواعث غربة مفدي زكريا، عندما يرى فضاعة وجحيم الأعمال الوحشية وأساليب القمع و طرق الإبادة، وتسليط كل ما يملكه زبانية الإستعمار الفرنسي من الوسائل الفتاكة على أبناء الجزائر، الذين صبروا وتحدوا في وحدهم وعـــزلتهم وإمـــكاناهم المفقودة، آلات الموت الفتاكة، ووقفوا كالمارد الجبار في إباء و عزة وشموخ، يقـــول مفدي زكريـــا :

لا النَّارُ، لاَ التَّقْتيلُ، يَثْني عَزْمــهُ لا السّجنُ ، لا التنكيل، لا الإعدامُ!
لا الذّارِيات، الماحِقَات، هَوا طِلاَ لاً الشَّامِخـــــاتُ، تَدُكُّها(الألغامُ)
لا القَاصِراتُ، الغَافِلاتُ، كَواعِبًا وَدِيستْ قَداسَتُها، وَفَضَّ خِتـــــامُ
لاَ الحامِلاتُ، بُطونُها مبقـــورةٌ ذُبـــحَت أجنَّتُها، وفـــُكّ حِزَامُ....
لا، والمَـــرَاضِعُ عُوِّضَتْ أثْداؤُهَا بِفَمِ المسدّسِ، والرَّصَاصُ فـــــطِامُ*

ويزداد ألم الشاعر عندما يرى سلوكيات وحشية قمعية، لا إنسانية لا تحترم الأعراف والمواثيق الإنسانية ولا القيم الأخلاقية الكبرى للكائنات البشرية، أعمال لا يأتي بها إلا المجرمون الخارجون على أعراف البشرية.

وَ آلأُمُّ يُهتكُ عِرْضُها وفُحُولُهَـــا (حَوْلَ الفَضِيحَةِ)* شَاخِصُونَ قِـــيامُ

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتكلم الرشاس جل جلاله!!) ، ص 133

* كان جنود المحتل الفرنسي، يضع فوهة المسدس في فم الطفل الرضيع، ويفرغه في أحشائه.

* ينتهكون أعراض النساء أمام ذويهم

يَا لِلْفَضَاعَةِ، من وُحُوشٍ جَوَّع   تسمُـــو على أَخْلاَقها الأنْعـــام! [1]

فحرقة الشاعر لما يرى، ويحدث لأبناء وطنه من طرف زبانية المحتل، مبعثها بشاعة الأعـــمال الإرهابية والتي بالغ الإستعمار في زرع صور الموت والفناء، في كل مكان دون رحـــمة أو شفقة، كما تعكس هذه الصور غربة الإنسان الجزائري الذي إعتصم بالصبر أمـــام بلـــواه، وتحديه لتلك الظواهر الإجرامية، والأعمال الهمجية اللاإنسانية، التي ستبقى على مر الأيام والسنين محل ذكر ورفض وإدانة، وشواهد حية صادقة، وصور مرعبة ناطقة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ووصمة عار لا تمحى في صحائف تاريخ الإستعمار الفرنسي المعتدي. كما يتكلم الشاعر، ويتفجع لعظمة هول الجرائم المقترفة من طرف زبانية المحتل الفرنسي، في حق الأبرياء من أسر وعائلات أبيدت بكاملها، فأضحت في لمحة البصر وغفلة من الزمن في عداد المحذوفين فوق الأرض، ويصاب باضطراب، ويتحسر بمرارة على الحرمات المنتهكة من طرف سفاحي العدو المحتل على البنات أمام ذويهم، ويظهرون في شذوذهم النشوة ويطيرون فرحا وزهوا، بحضور الأباء والأزواج الذين كبلوا بالحديد وشهر السلاح في وجوههم، فيصرخ عاليا فيقول غاضبا مناديا بالإنتقام :

سَنَثْأَرُ، للبيْتِ الَّذي كان آهِـــلاً   فرجَّت به الأَلْغَامُ، تسحَـــقُه سِحْقَا
سَنَثْأرُ، للبِنْتِ التي دِيسَ قُدْسُهَا   ودنّسَ أحْلاسُ الخَنَا، عِرضها الأَنْقَى [2]

وتتعالى زفرات الشاعر حرّى ملتهبة، وتزداد آلامه ومواجعه ويشعر بالحزن القاتل عندما ينظر حوله فلا تصادف عيناه المملوءة بشرارات الغضب إلاّ ظواهر ينشقّ القلب ويتمزق حسرة للدمار والخراب الذي يستهدف أساسيات الحياة وضرورياتها، فيـــزيلها العدو المحتل من الوجـــود، إلى أن يصل إلى وصف أبشع الصور التي قام بها العدو المحتل ضد أبناء الجزائر دون مراعاة لمشاعرهم الأخلاقية والدينية، وأعمال تجاوزت كل الأعراف والقيم الإنسانية ظلما وعدوانا فيتوعد هؤلاء المجرمين بالقصاص والثأر.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس ، (وتعطلت لغة الكلام)، ص 46

2- المصدر نفسه : (سنثأر للشعب) تخليدا للذكرى السادسة للثورة الجزائرية 1960 ، ص 200

سنثأر للطفل الرَّضيع و قد غــَدَا — وفي فَمِهِ الرَّشاشُ- يَحْسُبُهُ رِزْقَا
وللحُبلَيَاتِ الحُور، شُقَّت بُطُونُهَا — وللمرضعات الغيد، أثداؤُها تُلقَى
وللشَّيخ، تُؤْتَى زَوْجُه وهو مُوثَقُ — يَرَاهَا، فَما يَستطيعُ دفعًا ولا نُطْقَا
سَنَثْأَرُ، للأكْواخِ، والدُّورِ، والقُرَى — يُهشِّمها(النَّابَالمُ*) يحْــرقُها حَرْقَا
ولِلآمنينَ العامرينَ دِيارَهـــــــم — يَسوقهمُ لِلموتِ جَلاَّدهم سُوقَا[1]

إن الذي يعيش أهوال الثورة الجزائرية، عن قرب، و لم يشاهد ما كان يقوم به ويفعله المحتل الفرنسي، ويقترفه ضد أبناء الجزائر من جرائم وتنكيل بالإنسان، أفعال يندى لها الجبين، قد يترآءى له، حين يقرأ أمثال هذه الأشعار، إن القضية أو المسالة مبالغ فيها أو أنها لم تحدث على هذا النحـــو أو ذاك، بل ما هي إلا عوالم الشاعر المتحمس المندفع وراء خيالاته وأحاسيسه الجياشة، بينما في نظر العارفين أو المدركين لحقيقة الاستعمار الفرنسي ومخططاته وأبعاده، عند احتلاله للجزائر، فإنه على العكس قد يرى بأن " أعمال الإبادة والقمع المعبر عنها على هذه الصورة أو تلك مطابقة للأصل، لأنهـــا في واقعيتها، قد اقترنت بكيفية أكثر رعبا وبشاعة ووحشية، و لربما بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية "[2].

إن عملية التنكيل والتدمير والبطش والقمع الممارسة ضد الشعب الجزائري، وفق خطة الإحتلال الفرنسي، فإنها في طليعة الأساليب التي إنتهجها المحتل منذ البداية، يهدف إجهاض كل محاولة للثورة، و إفراغ الشخصية الثورية الجزائرية من محتواها.

ومن هنا فإن المرء لا يتعجب عنـــدما يذهب الحقد بالاستعمار و زبانيته إلى درجة تفريغ منازل الأهـــالي من ضروريات الحياة وتركهم هائمين مشــــردين، وإضرام النار** فيها، ثم الشروع

* " النابالم" : كلمة فرنسية، تعني القنابل الكيمياوية المحرقة.

1- مفدي زكريــــا : اللهب المقدس، (سنثأر للشعب)، ص ص200-201

2- محمود إحسان الهندي : الحوليات الجزائرية، العربي للإعلام والنشر و الطباعة، دمشق ، ب ت، ص 82

** **مقولة بيجار إلى الجندرمة الفرنسية سنة 1843** : " إن الحرب التي سنقوم بها، ليست حربا تعتمد على طلقات البنادق، وإنها هي لأن نحرم العرب من مواردهم التي تنتجها أرضهم. إذهبوا إذا وأقتطعوا القمح والشعير"، كتاب الجزائر لوزارة الخارجية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، دمشق 1961 ، ص ص 10-11

في جمع سكانها دون إستثناء في أكوام وطوابير بشرية تساق إلى الاستنطـــاق وأماكن التعذيب والتنكيل في انتظار رحلات العـــذاب نحو المنافي والمعتقلات و السجـــون.

و احشُرُي في غَيَاهب السّجن شعْبًا ... سيم خسفًا، فعاد شعْـــبًا عَنيـــدَا
واجْعلي"بَـــربروس" مثوى الضَّحَايَا ... إن فِي بَرْبَرُوس* مجـــدًا تَليـــدَا!!
عَـــــطِّلِي سُنّة الإِلَهِ كما عـــَـــطَّ ... لَتِ من قَبْلُ "هُوشِمِينَ"** المُرِيدَا...[1]

إن الغـــزاة كما وضحت بعض النماذج الشعرية، هـــم سبب هموم وغربة الشاعـــر، وأعمـــالهم الوحشية الضارية، كانت سبب حزنه و منابت آلامـــه وجراحه، إن المحتل وزبـــــانيته لا يعرفـــون سوى سفك الدماء، ونهش جثث الأبرياء في السجون والمعتقلات، والتفنـــن في عملية الإبادة الجماعية والتدمير العشوائي للقرى والمـــد اشر عن أخـــرها، ناهيك عـــن الإستهتار بالقيم الإنـــسانية، وهتك الأعـــراض وممارسة ألوان وأنواع التعذيب بأســـاليب وطرق لم يسبق لها مثيل في تاريخ المستعمرات ولا الحروب البشرية، مما جعل الرأي العام الدولي وبعض الأحرار في فرنسا ينددون بها لأنها جرائم تمنعها القوانين وتستنكرها الأخلاق والأعراف الإنسانية.

2- ظاهرة السجون والظلم والتعذيب :

تجربة السجن*** مرة " وغربة يتصل ليلها بنهارها ، ولا سيما تحت وبين قضبان الإحتلال الفرنسي، إذا كانت سلطة العدو الدخيل هي التي تصدر الأوامر والأحكام، والزبانية المتوحشون ينفذون، دون حاجة إلى قانون، ولهذا كان السجين**** يعيش دائما منتظرا لحظة تنفيذ

* " **بربروس**" : اسم السجن الذي أقام به الشاعر وإخوانه الجزائريون، بالجزائر العاصمة

** **هــــوشيمينه** : زعيم الهند الصينية، و محررها من الاحتلال الفرنسي

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص 18

*** **السجن** : الحبس ، يقال : سجنه، يسجنه، سجنا أي حبسه، **ابن منظور** : اللســـان فصل (السين المهملة)، ج 13، دار صادر، بيروت، ب ت، ص 203

**** الأسير والسجين في المخصص، أصل الأسير أنه ربط بالقدر فأسره : أي شده، فاستعمل حتى صار الأخيذ : الأسير. ينظر : المخصص لابن سيدة، ص187

المعتقل : الحبس، يقال عقله عن حاجته ، عقده و عقله و تعقله و اعتقله، حبسه، المصدر نفسه : ج2، ص845

الحكم، وهو لا يدري ما هو، ولا يكفيه تنفيذه، ولا الوقت الذي سيستغرقه في سجنه، غربة السجن غربة دائمة إذا، بعيدا عن الأهل والحرية"[1].

والحرية بالنسبة إلى مفدى زكريا الذي تعود على الشمس والهواء النقي والصحراء، هي حياته و بقاؤه ، و قد يترك أهله و وطنه بحثا عن حريته وكـــرامته، فكيف يحيا في السجن، وسلب حريته و كرامته، ونجد صدى هذه المعاناة ظاهرة يتردد في شعره.

وإذا كنا هنا بصدد تجربة ظاهرة الغربة داخل السجن، في عصر مفدى زكريا الإستبدادي المظلم، والغربة التي يعيشها السجين* فإننا سنقف عند ظاهرة متميزة صاحبته عبر حياته، هي تجربة الشاعر، فقد قال فيها شعرا حزينا قويا في سجنه عبر فيه عن حالته وغربته، وعن وضعيته التعيسة، لذا عدّ السجن كربة وغربة ومشقة لا مثيل لها.

عندما أيقن المحتل الفرنسي وزبانيته أن أعماله الجهنمية، وبطشه وخرابه، وسائل جبانة غير مجدية، وغضب وثورة الشعب الجزائري وتحديه، غضب عام شامل ومنظم بني على أسس الظلم والغربة والتشريد والدمار، وأن الإنسان الجزائري لا يرضى بهذا الهوان والذل والإحتقار، وقـــد عقد العزم على الثورة والدفاع عن نفسه وأهـــله وشعبه ووطنه، ولغته ودينه بكل ما تبقى له من جهد وقوة، شرع المحتل الفرنسي بتنفيذ مخططه الثاني الرامي إلى كسر عزيمة الجزائري الثائر و " واضح من استنطاق التقارير والمؤلفات لتلك المرحلة أن المحتل كان يزداد تطلبا وتصلبا كلما رأى إن مخططه يسير في طريق التحقق حسب هواه، و كلما وجد أن القوى الإستعمارية الأخرى في العالم قد اهتدت إلى أفانين مبتكـــرة في تركيز دعائم وجودها، فينافسها ويزيد عليها في تدابير القمع والإذلال "[2].

1- عبد الرزاق الخشروم : الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق 1982، ص ص 184-185

* إن الدلالة على مفهوم السجن في اللغة العربية موجودة منذ القدم ففي معجم "لسان العرب" لإبن منظور نجد الشروح التالية : السِّجْنُ، الحَبْسُ، بالفتح : المصدر : سَجَنَهُ ويَسْجُنُهُ وسَجْنًا أي حَبَسَهُ، وسَجين : فقِيل من السّجن. والسِّجين : السِّجْنُ.

2- نـــور السلمان : الأدب الجزائري في رحاب الثورة و التحرير، ص45

والقضاء نهائيا على وجود من كان يطلق عليهم إسم العصاة والخارجين عن القانون، فقام المحتل الفرنسي بسياسة القمع لهذه الإنتفاضات الشعبية، وعمد إلى إذلال الإنسان و تعمد تحطيم معنويات الإنسان الجزائري بشتى الطرق، ومن بين مظاهر هذه السياسة المطبقة بصرامة وإحكام ودون شفقة أو رحمة ضد الشعب الجزائري " تسليط حرب إبادة حقيقية، بدأها بتدمير القرى والمد اشر على سكانها، وحرق الغابات والمـــزارع وإلقاء القنابل على كل من يتحرك من إنس أو حيوان في مناطق بأجمعها، ناهيك عن إقامته لآلاف من المحتشدات والمجمعات والمراكز المعدة خصيصا للقتل الجماعي والتعذيب"(1)

وقد كانت السجون والمعتقلات من أخطر ما أصاب الإنسان الجزائري فيها من تنكيل وبطش ودمار نفسي ومعنوي، ومن أخطر الوسائل التي لجأ إليها المحتل الفرنسي لقتل وزهق روح المبادرة و الإرادة لدى الإنسان الجزائري، وضرب أعماق غضبه وتعمد زعزعة إيمانه بقضيته، وتثبيت بذور الرهبة والفزع والهلع في نفسيته، حتى يصاب بالخوار والوهـــن، ويركن للإستسلام، ويفشل بذلك في الإستمرار في نضاله وكفاحه، وإذا كان المعنى التقليـــدي أو الهدف المتعارف عليه " من وجود السجون والمعتقلات، هو سلب للحرية أو تقييد لها، في أخطر الظروف وفي أسوء الحالات"(2).

فإن السجون التي أقامها المحتل الفرنسي قبل و إثناء الثورة التحريرية على نطاق واسع، تفوق حدود التصور، المتعارف عليه أن السجون تهيكل وتوضع للذين يرتكبون أعمالا مخالفة للقانون، أو المجرمين الذين يقترفون سلوكيات منافية لجماعة إجرامية، والتي تقضي حبسهم في انتظار

1- نـــور السلمان : الأدب الجزائري في رحاب الثورة و التحرير، ص 46

2- المرجع نفســه : ص86

ينظر أيضا : **أحمد فتحي بهنسي** : العقوبة في الفقه الإسلامي، دار الرائد العربي، بيروت، 1983 ، ص204

الألم : برزت معالم الألم في هذا الشعر، من نوعي السجن على حد سواء.. آلام نفسية وأخرى خارجية..وما أكثرها، حيث يتحول الألم داخل السجن إلى عزف دائم من النشيج والإنسياب الحزين والمفرح في آن واحد..الحزين لأنه مؤلم والمفرح لأنه يؤدي رسالة مهمة نضالية يرتضيها عن طيب خاطر... ص ص 30-31

صدور الأحكام المناسبة والموافقة لجرمهم، لكن المحتل الفرنسي، المتنكر لحق الإنسان أصلا وخاصة الجزائري، في الحرية والحياة الكريمة، والسيادة على أرضه، قد حول تلك السجون إلى زنزانات ومقابر ظل يمارس فيها مالا يتصوره العقل من ألوان العذاب الجسدي والنفسي والتقتيل والتشنيع ضد الشعب الجــــزائري رجالا ونـــساء، رفضوا سياسة التغريب والتنصير والإدمـــاج، والعبودية ومن أشهر " السجون التي ظلت طوال حرب التحرير أداة للممارسات الإنسانية (سجن بربروس) بالقصبة وسجن (الحراش) بالجزائر العاصمة، وسجن (لامبيز) ...بتازولت بباتنة، وسجن (الكدية) بقسنطينة وسواها، وفيما يخص المعتقلات التي تعني هي الأخرى (محابيس) فإنها في الثورة التحريرية، تتمثل في مختلف الأماكن التي كان الإستعمار يجمع الناس فيها لنفس الهدف الذي - سبق وأن اشرنا إليه - ومما يميز المعتقلات عن السجون أن الأولي يلجأ إليها الإستعمار في أوقات خاصة وحرجة، فيقيمها حيث شاء، والأشخاص الذين يساقون إليها للإعتقال لا يخضعون للتحريات الدقيقة ولا يحاكمون، وهم في الغالب ينقلون باستمرار من معتقل إلى آخر حسب الظروف والمستجدات"[1].

من حيث المعاملة، فإن ما يتعرض له المعتقلون من تعذيب و إهانة، قد يفوق بكثير ما يتعرض له المحبوسون في السجون.

ومن أشهـــر المعتقلات التي تحولت اليوم إلى متاحف للثورة معقل" **قصر الطير**" بعين ولمان (قصر الأبطال) اليوم ومعتقل " **الجرف**" ومعتقل " **آفلو**"[2] .

ومفدي زكريا يمثل طليعة الشعراء الجزائريين الذين ذاقوا غربة المكان وألوان العذاب داخل هذه السجون، أكثر من أي شاعر جزائري آخر، وكان شاهدا عما يجري في تلك السجـــون، من شتى أنواع العذاب ، وألـــوان التنكيل المسلط على أبناء الجـــزائر، وخاصة في سجن " **بربروس**".

1- محمـــــد زغينة : شعر السجون والمعتقلات في الجزائر (1954-1962)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، 1990، ص ص17-19

2- المرجع نــفسه : ص 19

ومن الأنسب، وقبل أن نتطرق إلى إبراز وتوضيح واستعراض ما أمكن من الشواهد الحية عن ظروف الإنسان داخل هذه السجون المظلمة من أشعار، أن نبدأ الحديث عن حياة مفدى زكريا التي كانت صورة طبق الأصل لأحاسيسه الحزينة الفريدة، وذلك من مقاله الأدبي ذي المسحة الشاعرية الرقيقة الحزينة، و الإحساس النابض [1].

والذي صور فيه الحياة داخل ذلك السجن الرهيب تصويرا دقيقا، يدل على معاناة حادة وغربة قاسية، ومهارة شاعرية وقدرة أدبية، والنص في الحـــــقيقة " وصف لأحاسيس المسجونين حين يصدر الحكم بالإعدام على أحد إخوانهم من لدن عودتهم من المحكـــمة إلى حين تنفيذ الحكم بالإعدام، فهو متابعة حية دقيقة لمشاهـــد البطولة التي كان (بربروس) يزخر بها وتجسيد للأحاسيس الثائرة التي كان السجناء يشعرون بها وهم يشاهدون مواكب الصاعدين إلى منابر الشهادة في أنفة وكبرياء، وكان حرص مفدي زكريـــا على ألا تفوته جزئية من جزئيات هذا المشهد البطولي، هو الذي رفعه إلى إختيار النثر الوصفي التحليلي وسيلة بيان لأنه أقدر على تسجيل التفاصيل ورسم الملامح والقسمات، وهو أطوع على إفراغ كل ذلك في قالب قصصي جذاب"[2] .

يفتتح الشـــاعر مقاله الرهيب الذي فضل أن يكون عنوانه مـــؤثرا ذا أبـــعاد نفسية حزينة " كيف تتحدى الموت أمام المقصلة"[3].

إذ تحـــث عن آلام السجن، وما لقاه بين جدرانه من عـــذاب*، وما عرف به من غربة ورهبة وذعر، واصفا سوء المعـــاملة من طرف زبـــــانيته، وما يتعرض له إخوانه المســـاجين

1- محمد نـــــاصر : مفدي زكريا شاعر الثورة و النضال، ص74

2- المرجـــع نفسه : ص75

3- تـــوفيق بـــروّ : جنون الاستعمار و جرائمه في الجزائر، مجلة سيرتا، العدد6-7، 4 جويلية 1982 ، ص14

* **تعـــذيبـــه** : تعرض مفدي زكريـــا في **السجن** إلى أشـــد العذاب، كالتعذيب بالتسليط المتواصل و المستمر للأضواء الكـــاشفة على عينيه ليلا نهـــارا لأكثر من ثلاث سنوات مما جعله يشكو- بعد ذلك ومدى العمر- من ألام حادة و دائمة في عينيه أفرزت مضاعفات على مستـــوى جهاز النخـــامي إذ أحدثت صداعا رهيبا ملازم له و أدى إلى انهيار في الجهاز العصبي طول عمره المتبقي فخشي زبانية المحتل الدخيل أن يمـــوت **الشيخ المجاهد مفـــدي زكريـــا** في السجـــن تحت سياط و كهرباء التعذيب مما يحدث ضجة و فـــضيحة و ثورة داخـــلية و خـــارجية، -

من عناء كبير يقول :" هناك بين حنايا سجن (بربروس) المظلمة، وتحت أقبيتها المتآكلة المتداعية يجثم ثلاثة آلاف أو يزيدون من خيرة شباب الجزائر، بين دفين في أعماق الزنزانات السرية- رهن التحقيق- وبين منتظر إحالته على المحكمة للبث في قضيته التي تم التحقيق فيها منذ ما يزيد عن سنتين، وحضرة القاضي في شغل برحلات الشتاء والصيف عن إتمام الملفات المكدسة فوق مكتبه، وما يستعجله والعصافير في أقفاص من حديد؟و بين محكوم عليه بإحكام أقصاها إعدام وأدناها ثلاث سنوات"[1].

وبعد تصنيف أنواع المساجين واستعراض الإهمال المطلق واللامبالاة من طرف رجال قضاء المحتل الفرنسي، والمعاناة وحالة الغربة والظروف المزرية التي يعيش فيها إخوانه المساجين داخل هذه الغياهب الرهيبة الموحشة، يأتي المقال على وصف مشهد حزين أخر، وصف زنزانات السجن وظروف وحالة السجناء الذين يقتدون ويساقون إليها- بعد الحكم عليهم بالإعدام- كالأنعام وهم مكبلون بالحديد، يقول مفدي زكريا : " تحت هذا الهيكل العابس (بربروس) الذي يئن تحت أغلال السنين، ويتندى من برحاء المعذبين وأنات الموكوريـــن، توجد سراديب عليها غبرة، ترهقها فـــترة نحتوا- كذا- منها زنزانات أشبه شيء بالجحور أعدوها لإنزال – ضيوف الموت- المحجلين بالخلاخل في السوق والمصفدين بالسلاسل من الأعناق، أولئك الذين يسموهم- المحكوم عليهم بالإعدام- ونسميهم– الشهداء الكرام-"[2].

ويحرص مفدي زكريـــا في مقاله العجيب على نقل المشاهد الدقيقة المحزنة، وكل ما تقع عليه عيناه، و كل ما يمر على مسامعه من أصوات الأنين والألم والحسرة، ويضمن كل ذلك ما يخطر بباله ويصفع خياله من صور وانفعالات ومشاهد وأصوات وصور، فيدقق.

- فاندفعوا مضطرين إلى إطلاق سراحه بعدما تأكدوا من انه لا يمكنه – وهـــو على هذا الحال- فعل شيء ضده لأنه موهن الجسد مضطرب العقل. ينظر : بولحيا الطاهر ، تأملات في إلياذة الجزائر، ص ص 36-37

1- مفدي زكريـــا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، المجاهد العدد 48 ، 1959/08/10 ، ص9

2- المرجع نفســـه : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص9

الشاعر مشهد هذه الحركية الدائمة بكل مرارة وشرارات الغضب والحسرة والألم تتطاير من بين الحروف والكلمات فيقول: " يذهب كل صباح عشرات من السجناء للمحاكمة ليعـــودوا في المساء مثقلين بالأحلام، وسكان 'بربروس' لا يشعرون بعود الركب الميمون إلا عندما يسمعون صلصله السلاسل فتنطلق الحناجر بالزغاريد والأناشيد على شرف الذين عادوا من المحكمة مصدرين بوسام الشهادة الكبرى شهادة الموت في سبيل استقلال الجزائر، ثم تتجاوب الأنباء في جميع قاعات 'بربروس' وزواياه الخمسة بالإعدام وثـــمانية بعشرين سنة والباقون بأحكام تافهة وهي من اصطلاح المناضلين ما دون العشرة"[1].

بعد عرض هذه الظروف الحـــــادة المأساوية التي يعيشها أبناء الجزائر، داخل السجون، يعرّج مفدى زكريا إلى المشهد الثالث، وهو مشهد الصبر على البلوى، ليصور الموقف الحزين الفريد من نوعه في الصبر والتجلد أمام المصير والموت، صديقا له "مصطفى" هذا البطل الشجاع الذي حكم عليه من طرف السلطة القضائية العسكرية الفرنسية بالإعدام شنقا، وقد جرت العادة أن يتسامر دوريا معه ومع سجين ثالث يدعى "خالد" حتى أواخر الليل حول سيرة أبناء الجزائر الأبطال ويذكرون الشهداء، وطريق التضحية من أجل استقلال الجزائر، إلا أن يد القدر ومفعول الغدر قادته في ليلة مشهودة من زنزانته إلى المحكمة، مما جعله يتأخر على الموعد المعتاد، ولا يعود في الوقت المحدد المعتاد، ولما عاد بعث إلى مفدي زكريا بخطاب مفعم بالإيمان والشجاعة والتضحية، وقد حرص الشاعر على نقله كما هو ضمن مقاله، لأنه خطاب أحرق أحشاءه على فراقه، وفرق ليله ألما لفقده، فكان عهدا عليه أن يستمر صوت صديقه ماثلا بين سطور مقاله، الذي قدم له ، وهذه توطئة الشـــاعر مع الخطاب نفسه " وإن أنس، فلا أنسى- ما دمت حيا- تلك الكلمة الخالدة التي كتبها إليّ أخي مصطفى أحد رفاقي الزنزانة رقم 57 غداة رجوعه من المحكمة نزيلا في سراديب، وقد كنت أنتظر عودته للزنزانة ليتناول معنا طعام العشاء كالعادة، 'أخي العزيز ورفيقي في الجهاد سلامي عليك وعلى الأخ - خالد- أعرف إنكما تألمتما لعدم رجوعي إلى الوكر

1- مفدي زكريـــــا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص9

الذي ألفناه والذي إعتدنا أن نتسامر فيه إلى ساعة متأخرة من الليل يفضي كل منا للأخر بذات نفسه ويبثه أشجانه فيجد عنده العزاء والسلوى، وكم كنا نستعرض معا تاريخ أبطالنا وشهدائنا الأبرار ونفسح لأمالنا أفاقا غير محدودة، وكنا نقول دائما إن التضحية في سبيل الجزائر لا حد لها، وأن استقلال الجزائر لا يقدر بثمن.

نعم لقد حكموا علي بالإعدام، وأقسم لكما بشرف الجزائر إني لم أشعر يوما في حياتي بالطمأنينة والراحة و السكينة التي شعرت بها حين نطق رئيس المحكمة بالحكم ، فكأن الله أفرغ علي من سمائه سعادة لا عهد لي بها، وأودع فيّ روحا قدسية أصبحت أرى بها الدنيا ابتسامة خالدة والإخوان كلهم على حالة واحدة، فلـــو اطلعتما علينا لرايتمانا نتعانق بالمحكمة ونصرخ بلسان واحد في وجه الطغاة الجبناء : نرحب بالموت في سبيل إستقلال الجزائر، إنكم مهما تقتلون وتعدمون فإن فكرة الإستقلال لن تموت ما دام بالجزائر كبد حر، بلغ سلامي لجميع الإخوان وتدرّعوا بالصبر"[(1)].

إن قارئ هذه السطور، يشعر بمرارة الظلم، وبغربة مفدى زكرياء الحادة أمام هذا المشهد البطولي العظيم، الذي وقف أمامه عاجزا عن رد الكرب عن صديقه، فلم يكن منه إلا أن حفظ له هذه الرسالة التي تظهر بصدق العبارة حالة السجناء من أبناء الجزائر داخل هذه الأكوار الرهيبة، والمعاناة التي يتلقاها يوميا أصحاب هذه ألاماكن الدامسة، والشيء الذي يقوي الإنفعال الحزين الذي يقطع الأحشاء، هو هذه المواقف الرهيبة الخالدة، ومخالفة مثل هذه الأعمال والسلوكيات المتعارف عليها عند السجناء أو حتى العامة.

إن المحكوم عليه بالإعدام يقابل الحكم بالإغماء أو الهلع ويصاب بالفزع، ويسعى بشتى الـــوسائل والطرق القانونية وغير القانونية إلى إلتماس التخفيف أو طلب إعادة الحكم لأجل المماطلة وإيجاد فرصـــة لحل آخر أفضل. لكن هذه الأفـــعال أو السلوكات هي صفة وشيمة رموز المشنقة

1- مفدي زكريـــا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص ص9 -10

ومتحديها من أبناء الجزائر الأبرار، أمثال" أحمد زبانة " و "مصطفى" هذا الأخير الذي يقسم بشرف الجزائر الغالية عليه أكثر من نفسه، أنه لم يشعر العمر كله بالسعادة و لم يذق يوما طعمها، مثل اللحظات التي عاشها عند إعلان الحكم عليه بالإعدام، فأمثال هؤلاء من خيرة أبناء الجزائر، يستقبلون أحكام الطغاة الجبناء سفاكي الدماء، بالصبر والتجلد والتحدي، يظهرون الفرح والسرور، ويعلنون أصوات الحق من تكبير وتهليل، ويندفعون إلى بعضهم البعض بالمعانقة في رحـــاب المحكمة- أمام صائغي قـــرار الظلم – تغيرا منهم على أنهم صانوا الأمانة، وحصولهم على شهادة الإستشهاد في سبيل الحرية لمرضاة الله و الوطن.

يعمد مفدي زكريا لذكر بعض زبانية السجن والموت بأسمائهم، غيضا وحقدا وألما، أولئك الزبانية الغـــلاظ الذين لا ينتدبون إلا للمهمات القذرة ومن هؤلاء السفاحين "بوجي وقرفيلوف" في"حراسة الليل" وعن أعمالهما الشنيعة يذكر موثقا مفدي زكريا : " كلمة يتهامس بها السجناء كلما لاح لهم في الحراسة الليلية شبح الحارسين 'بوج' و ' قرقلوف' وهما لا يتناولان الحراسة بالليل إلا لأمر خطير تنتدبهما إدارة السجن كلما عزمت على تنفيذ حكم الإعدام لقساوتهما و غلظة كبدهما ولا يظهران أمام السجناء إلا في ساعة الموت' الثالثة صباحا' و لكن ذكاء السجين يكشفهما أينما كانا"(1).

ويتابع مفدي زكريا الأحداث والمشاهد الحزينة الدامية التي يتعرض لها الإنسان الجزائري داخل هذه الدهاليز المظلمة ويعمد إلى رصد المعاناة ورسم المأساة وتأزمها لحظة بلحظة، و تحتد الغربة عنده ، عندما يتقدم المحكوم عليه بالإعدام في إبـــاء وشمـــوخ ، هـــازئا من الأقدار وساخرا من أسئلة القاضي البليدة التافهة، وهو يصعد إلى المقصلة مكبرا مهللا، فيغتاض مفدي زكرياء، ويشعر بالألم الشديد والحزن العميق، فيقـــول : " وهناك أمام المقصلة وفي حفل من الجلادين يسأله القاضي : ألك طلبة تريـــدها؟ فيجيبه بسخرية وإزدراء : ليس من عاداتنا أن نطلب، بل من عاداتنا

1- **مفدي زكريـــا** : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص ص 9-10

أن ننتزع وسننتزع منكم إستقلالنا، أن عاجلا أو أجلا. ألا تخاف من المقصلة؟ ما أنا بالذي أخاف من مقصلة أعدت منبرا لأمثالي، بل أن المقصلة سترتعد فرائصها من بعد قليل، فيسأله (فضيلة الإمام)، هل لك وصية توصي بها؟ لقد كنت إماما تصلي بالناس فوصيتي لك ولأمثالك أن أكون اليوم إماما لتصلي ورائي!، ثم يصعد المقصلة شامخا أنفه، رافعا رأسه صارخا في إذن الدنيا: الله أكبر، تحي الجزائر :

صَرْخَةٌ، ترجف العوالم منها … ونِداء مضى يهزّ الوجُودَا :
" أشنِقوني فلست أخْشَى حِبَالاً … واصْلبُونِي فلستُ أخْشَى حَدِيَا "
" وامتثل سافرًا محيّاكَ جَلاّ … دِي، ولا تلتثم، فلسْتُ حَقُودَا "
" واقْضِ يَا موتُ فِيٌّ مَا أنت قَاضٍ، … أَنَا رَاضٍ، إِنْ عَاشَ شعْبِي سَعِيدَا "
" أَنَا إِنْ مِتُّ ، فَالجزائر تَحْيا، … حرَّة، مستقلة، لن تبِيدَا "[1]

ومن المواقف الدامية الكئيبة، التي ترسخت في عوالم الشاعر الباطنية ألما وذكرى حزينة لا تنسى، مواقف الصبر والتحدي النادرة التي يتحلى بها شهداء المقصلة في تنافسهم إلى دعوة الشعراء لينظموا لهم مراثي البطولة والإقدام، يترنمون بها وينشدونها في مهرجان الموت، فيقول منكسرا حزينا على فراقهم، فخورا بشجاعتهم معتزا بصبرهم الكبير أمام الموت، " الشهداء المتنافسون في ميدان الخطابة فيوجهون طلباتهم سلفا للأدباء والمثقفين من أخوانهم المساجين ليتفننوا لهم في تحرير نصوص أقوى من سابقيهم يصرصرون بها في مهرجان الموت؟"[2].

تسمع هذه الصرخة الصامدة المتحدية تبلغ الآفاق حيث يطلب الشاعر أن يسكت الكلام ويعلو الرصاص لأن العدو لا يستفيق من غثيانه إلا تحت دوي الرصاص.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص 10

2- مفدي زكريا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص9

مثل هذه المواقف نجدها منتشرة بكثرة في اللهب المقدس تبرز أشعاره صمود الإنسان فوق الأرض حيث يرتقي الإنسان الجزائري فوق المآسي طلبا للعزة والشهادة.

ومن المواقف التي رسخت بواعث الحزن والغربة، في عوالم مفدي زكريا وسكنت ذاكرته دون أن تبرحها لحظة، مشهد أبناء الجزائر أمام المقصلة، وهم يتسابقون ويتنافسون، وكل واحد منهم يريد أن يتقدم إليها قبل غيره، لينفذ فيه حكم الإعدام مما يستدعي تدخل إدارة السجن لفض النزاع، والرجوع إلى السجل الذي تقيد فيه أسماء المساجين، وعلى ضوء ذلك يتقدم الأبرار كل حسب رتبته أمام مشنقة الموت، فينادى عليه، فيقوم ابن الجزائر، يقـــول: بحرقة ، وصبر وتحد، واصفا المرحوم أحمد زبانة* الذي يمثل أول شهيد دشن هذه الآلة اللعينة.

قَـــــامَ يختـــال كالمسيح وئيـــدَا ... يَتَـــهَادى نَشْوانَ، يَتلُو النَّشِيـــدَا
بَاسِمَ الثّغرِ، كالمَلاَئِك، أو كـــالط ... فْلِ، يستقبل الصباحَ الجدِ يـــدَا
شَامخًا أَنْفـــُهُ، جــَلاَلاً وَ تيهـــًــا ... رَافِعًا رَأْسَهُ، يُنـــَـاجِي الخُلـــُودَا
رَافِلاً في خَلاَخلِ، زَغْردت تـَــــمْ ... لأُ مـــن لحْنِها الفَضَاء البَعِـــيدَا!
وامْـــتَطَى مذبح البطـــولة مـــــعْ ... راجًا، ووَافَى السَّماءَ يرْجُو المزِ يدَا
وتَـــعَالَى، مـــثل المؤَذن، يتْلـُـو... ... كلمات الهُدَى، ويَدْعُـــو الرُّقُودَا
صَرْخَةُ، ترجف العوالـــم مـــنها ... ونِداءُ مـــَضَى يهز الوُجُـــودَا :[1]

لا شيء يقـــوله السجين إلا كلمة –الله أكبر تحي الجزائر- و لاشيء يعظم و يكبر في تلك الخطا الرهيبة الحزينة، إلا كلمة –الله أكبر- تتردد في أرجـــاء السجن، و في هذا المشهد الكئيب المفـــزع يخلص مفـــدى زكريا من صور المعـــاناة، ليشيد بإخوانه المساجين أبناء الجزائـــــر الأبرار، الذين يعانـــون ألوان البطش والقتل الشنيع داخل السجون ، فيقول : " هكذا يستقبل أبناء

* **أحمد زبانة :** أول شهيد نفذ فيه حكم الاعدام ليلة 18 جويلية 1955، بسجن بربروس.

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص ص9-10

الجزائر الموت لأجل الحياة، وهكذا يموتون إبتغاء البقاء، وإنّ شعبا له من قوة الإيمان وصدق العقيدة، هذا الرصيد لن يخيبه الله أبـــدًا، ولن تستطيع أية قوة في هذا الوجود أن تصده عن بلوغ ما يصبو إليه من مجد وكرامة"[1].

ومما تقدم ندرك عمق مأساة مفدي زكريـــا، ومن خلال المشاهد المرعبة التي نثرها داخل المقالـــة، ندرك قيمة حـــرصه الشديد على نقل هذه الأنـــفس المغتربة المتألمـــة المقبلة على مقصلة الموت بكل شجاعة وصبر، وتوضيحا دقـــيقا لما يجري داخـــل سجن " بربروس" من آلام وغربة ومآسٍ وما يصاحبها من معاناة وما تتركه من حزن ووحشة وغيض، لذلك كان سجن "بربروس" بحق سجن غربة ما وراءها غربة إلا الموت.

ومن جملة المآسي التي يمكن الوقوف عندها- وهي عديدة- في غربة السجون، إبان الثورة التحريرية، والتي عبر عنها مفدى زكرياء داخل دهاليز "بربروس" العميقة، الخوف والقلق والألم والعذاب والشوق والحنين... وسواها من ظواهر الغربة والحصر.

عرفنا عن مفدي زكريا الصبر والتجلد في شعره، ولغة التحدي المطلق للسجن وزبانيته من السجانين، فقـــد مر داخل هذه الدهاليز بإنفعالية مؤلمة تولدت عن أفعال شنيعة شاهدها وحدثت له شخصيا، فيحكي لحظات الغربة والألم والعذاب المنبعثة من أعماق أناته الباطنية، وتخرج تسابيح بخياله نحو العلياء، ومَنْ حوله في نوم عميق لا يدرون ما بحاله البائسة السابحة في عوالم الحرية المفقودة، وأصوات الشهداء التي لا تنام ." وتعطلت لغة الكلام"

وِرسالةٌ صَاغ (الشَّهيدُ) بَيانَهَا	و زكَّا بِهَا، في الخَالدينَ (عصَام)
أَسْرى بها من "بَربروس" خياله	وَهفتْ بـــه لحماكُمُ الأَحْـــلامُ
غَنَّى بِهَا في الْلَّيل، يعزف لحنها	وقْعُ السَّلاسل...و الرِّفاقُ نيامُ...

1- **مفدي زكريـــا** : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص9

والقَلبُ، بالآنَّات يَقْطعُ بحـــرها دقّـــاتُهُ : الأوزانُ، و الأنـــــغَامُ[1]

ومن الطبيعي أن تتحول حياة السجين جحيما وغـــربة لا تطاق، لأن المحتل الفـــرنسي لم يترك أدنى وسيلة إلاّ و جربها في عملية التنكيل بالمساجين، مما جعلهم لا يميزون في غياهب تلك الـــدهاليز المظلمـــة بين الليل والنهـــار، ومَلـــّوا معانقة الهمـــوم التي لا تبرحهم عـــلى الإطلاق، فيصاب السجـــين بالأرق والقلـــق وتصبح حـــياة السجن عنده سيان يقـــول : مفـــدي زكـــريا " نشيد بربروس" :

يا سجن إزخـــر.. بجنود الكفاح
فأنت يـــا سجن طريق الخلودْ..!!
أنت، محراب الضحايـــا
في حناياك الأســـود
أنت.... أنت .... أنت ....يـــا بربـــروس ...[2]

لقد أثارت غربة السجن لدى مفدي زكريا حنينه وشوقه إلى الأهل والأبناء وهواء الوطن، فهو يحترق وراء القضبان غـــربة ولهفة واشتياقا إلى أهله، في الساعة المتأخرة من الليل عندما يكون الجمع ينام، يزوره الهم و تتزاحم عنده الذكريات، ويترل عليه طيف "سلوى" صاعقة محملا بالشوق، شاكيا مرارة الفراق والبعاد، فيدخله هذا الطيف في عـــوالم الذكريات، فيطير سابحا مسترجعا لحظات فريدة من نوعها عند اللقاءات، فيقول :" من زنزانة العذاب رقم 73"

وربّ نـــجوى، كـــدنيا الحب، دافئة قد نام عـــنها رقيبي، ليس يستـــرقُ
عادت بها الروح، من (سلوى) معطرة فالسجن، من ذكر(سلوى)، كله عبق
يـــــا فتنة الروح، هلا تذكرين فتى ما ضره السجـــن، إلا أنّـــه وَمِـــق؟

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام) بمناسبة خذلان المنظمة الدولية لقضية الجزائر في دورتها الثالثة عشرة سنة 1957، ص52.

2- المصدر نفسه : (نشيد بربروس)، ص88

هـــل تذكرين، إذا ما الحظ حالفنا إليك أهتف يا سلـــوى، فنتفـــق؟
أم تذكرين، و لحـــن الموج يطربنا إذ نفرش الرمل في الشاطئ و نعتنق؟(1)

كما تتضح غربة الشاعر شاخصة، عندما يتذكر أبناءه وهو بعيد عنهم، فدفعته غربته إلى الحنين، وتهزه الذكريات والأشواق تمنيه إلى لقائهم وضمهم إلى صدره، فإن تعذر عليه ذلك راح يعبر عما يختلج في نفسه من مشاعـــر وأحاسيس بشتى الوسائل التي تمكنه من التعبير عن تلك الحالة العصبية، والحـــرقة التي لا نظير لها، يقول مفدي زكريـــا في صفحاته الضائعات." خفقة فـــؤاد : زهرات ضائعات في صفحات ضائعة " .

وكم بين أستـــار، الدجى من مدامع، تكـــاد من إللألاء تشـــرق الظلما
و كم بين طيـــــات الأثير من الأسى يكاد صدى أناتـــه يسمع الصَّـــما
فيا أيـــها البـــين الممـــض صـــبابـــة ويا أيـــها الدّهر المسيء بنا حكما
و يا كبـــدي الحرى، ويا مهجتي التي تسيل مع الأيام واللوعتي ســــــقما
هل القرب مكتوب؟ هل الدهر باسم؟ هل البرء مقدور، مرجى لنا يـــوما؟(2)

يحـــملنا هذا الوصف المضن الأليم إلى الصورة المـــادية التي يتراكم فيها قـــوة الحـــدث - التعذيب- وهو المنتج للألم الذي لا يقف عند حد الرومنطيقي المتغني بالألم لمجرد أنه كذلك بل هو ألم موظف لخدمة قضية إجتماعية وسياسية ..

كما يظل موضوع الوطن من أعمدة ظاهرة الغربة عند مفدى زكريـــــا، حيث خصص العديد من القصائد لهذا الغرض، وعبر بصدق ولهفة عن حبه واشتياقه لهواء وأرض الوطن، إلى درجة المبالغة و المغـــالاة في كثير من الأحيان، و تعد " إلياذة الجزائر" أعظم عـــــربون للوفاء

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس (زنزانة العذاب رقم 73)، زج بالشاعر في زنـــزانة انفرادية مظلمة بسجن بربروس، يوم 28 أفريل 1955 فهاجت في أعماقه المواجع، فقالها وحفظها دون أن يكتبها، ص ص 21-22

2- مفدي زكريا : أمجادنا تتكلم (خفقة فؤاد، زهرات ضائعات في صفحات ضائعات) ، ص ص 89 - 90

للـــوطن، لأنها " قد خلدت أمجادا حقيقية، وسطرت وقائع دامية، وأحـــداث أليمة، هي من روائع الدهر، لأي من خلق الجن، ولا من اصطناع شاعر، ولكن من صنع الإنسان الجزائري في الميدان!... وهي أحسن سجل لمأساة و تاريخ الجزائر حتى اليوم، أي أحسن كتاب، و حتى إذا ما كتب هذا التـــاريخ يوما ما، بصفة كاملة، شاملة، فستبقى إليـــاذة الجزائر أروع تاريخ لها، وأكثـــره وقـــعا في النفوس، وأسهله على الحفظ، والتذكر، والإستشهاد في مغرض الإستشهـــاد و الإحتجاج!"[1]. من أجل هذا كان مفدي زكريـــا يستعذب آلام السجن ولا يهابه سواء أكان " منغلقا أم مفتوحا".

ملحمة امتدت فصولها ومآسيها عشرات السنين يتألف من أحداثها وأيامها، ونضال رجالها، وأدبائها صفحات مثالية من العناد المستميت للحفاظ على التراث: إغنائه بجهاد جديد ضد قوي قاهرة ومدمرة ..

وقد أنشد مفدي زكريـــا في " إلياذة الجزائر" معاناته، وصرخاته، وصيحاته، وغضباته، وسخرياته...حبه لملحمة الوطن فيقول :

جزائر يـــا مطلع المعجـــزات   و يا حجـــة الله في الكائنـــات
و يا بــــــسمة الرب في أرضه   و يا وجهه الضاحك القسمات
و يا لـــوحة في سجل الخلـــو   د تمـــوج بها الصور الحالمـــات[2]

ويزداد حبه، و تتفجر حناياه عشقا و لوعة في حب الوطن، فيقول :

فيا أيـــها الناس...هذي بـــلادي   ومعبد حـــبي، وحـــلم فـــؤادي
لأجـــل بلادي، عصرت النجوم،   وأترعت كأسي، و صغت الشوادي

1- مولود قاسم نايت بلقاسم : إلياذة الجزائر مجلة الثقافة، وزارة الثقافة و السياحة، بالجزائر، السنة السادسة عشر، العدد 1 9 فبراير 1986، ص ص14- 15

2- مفدي زكريـــا : إلياذة الجزائر، المعهد التربوي الوطني الجزائري، ب ت، ص ص 14-15

وأرسلت شعري...يسوق الخطى بساح الفـــدا...يوم نادى المنـــادي
وأوقفت ركب الـــزمان طويـــلا أسائلـــه: عن ثمود....و عـــاد....
وعن قصة المجد.. من عهد نوح وهـــل إرم.. هـــي ذات الـــعماد؟
فـــأقسم هـــذا الـــزمان يمينـــا وقـــال: الجزائر... دون عــــــناد![1]

وعند هذه الأبيات يقف المرحوم مولود قاسم نايت بلقا سم مشدوها،و يتساءل عن عظمة هذا الحب إن كان موجودا عند أدباء التاريخ فيقول رحمه الله " هل هناك من قال مثل هذا؟ إبحثوا في تاريخ الأدب العالمي! من، دلوني، من فضلكم، بربكم وهو ربنا ورب العالمين، و أنا شاكر لكم مقدما، أيها القراء الكرام"[2].

وكأنه في غربته وهو يكتب آخر سطور إلياذة الجزائر ،قد أحس بقرب الميعاد مع خالقه والإلتحاق بإخوانه الشهداء، ثمن حرية الوطن ، إذ توفي بعد ذلك بقليل، بعد أن مجد بلاده، ويودعها الوداع الأخير ... قبل أن يعود إليها جثمانه الهامد ، الذي لم يعرف الراحة، ولا السكينة سوى ألم السجن والترحال والنكران والجحود...

بلادي، بلادي، الأمان الأمـــان أغـــنى علاك ،بـــأي لســـان؟
جلالك، تقصر عـــنه اللـــغـــى ويعجزني فيك سحـــر البيـــان
و هام بك الناس، حتى الطغـــاة وما احترموا فيك حتى الـــــزمان
و اشـــراقة الروح منك تناهت تشيع الجمال، وتـــفشى الحنـــان
إليك صلاتي، وأزكى سلامـــي بلادي، بلادي، الأمان، الأمان[3]

1- **مفـــدي زكريا** : إلياذة الجزائر، ص21
2- **مولود قاسم نايت بلقاسم** : إلياذة الجزائر، مجلة اللثقافة، ص15
3- **مفدي زكريـــا** : إلياذة الجزائر، ص 102

هذه منابع غربة مفدي زكريا في حب الوطن، وهذه زفراته الحارقة التي نثرها طوال العمر في التعبير عن كفاح الشعب وذوده عن أرضه، وهذه هي بواعث غربته، التي تغنى بها حبا وتخليدا للوطن، الذي كافح من أجله، و ظلم من طرف بعض الزعانف- الأفّاقة- الذين شردوه، وكاد الوطن أن يفقده ظلما، وعدوانا وتزييفا للتاريخ.

وإذا كان الشعر الجزائري في أغراضه المختلفة عموما يحفل بتصوير مأساة وغربة ما يدور داخل السجون ألوان الممارسات اللاإنسانية، فإن شعر مفدي زكريا في هذا الموضوع يبقى المرجع الوحيد، و يحتل المقام الأرفع، لأن الشاعر قد دخل السجن مرارا وتكرارا، ويمثل الجزء الأول من ديوانه" اللهب المقدس " التي اختار لقصائد السجن عنوانا مثيرا"من أعماق بربروس"، قد عرف غربة " السجن ما يعرفه كل الثوريين من ألوان التعذيب النفسي، الجسدي، كهرباء، ثلج و جلد، وغطس في الماء إلى حد الشرق، والحبس في الغرف الإنفرادية، و تجويع، و الصلب على الأشجار في العراء، والتعريض لنهش الكلاب، وتسليط الأضواء الكاشـــفة على العينين مدة طويلة وغيرها"[1].

كل هذه الأعمال الوحشية لم تجد عند مفدي زكريا سوى الصبر على الآلام، والتضحية بما يملك من أجل مبادئه ودينه وحرية وطنه، ولم تكن الغربة والجراح والآلام إلا أقلاما كتب بها أحـــزانه ومعاناة إخوانه وما يلاقونه صباح مساء من طرف زبانية المحتل الفرنسي المستبد من بطش وتنكيل بدون انقطاع، وداخل هذه الدهاليز الرهيبة وهذه السجون أبدع مفدي زكريـــا أروع قصائده الثورية إن لم تكن أروع ما نظم من شعر، لان المعاناة هي التي تفجر الصدق الفني، وكان الشاعر نفسه يعتز بتلك القصائد التي كتب بعضها بدم، ويقول أنها القصائد الوحيدة التي يحفظها من شعره عن ظهر قلب. وأحسب أن تلك الظروف التي شرفته بأن أهداه شعبه وسام الجهـــاد، فـــسماه بحق شاعر الثـــورة الجزائرية، ويـــكفيه ذلك الوســـام، وهـــذه التسميـــة أيْ (وسام أو تسمية أخرى) "[2]

1- **محمد ناصر** : مفدي زكريـــــا شاعر النضال و الثورة، ص19

2- **المرجع نفسه** : ص19

ويمكن إعتبار أشهر قصيدة في شعر السجون في الثورة التحريرية ، والتي تظهر أبعاد المآساة والظلم، وتعكس بصدق عظمة الإنسان الجزائري، وإقدامه على تحمل الآلام والشدائد، وتعطي صورة ناصعة في التحـــدي والإيمان عند أول شهيد - سبق الحديث عنه - من شهداء العزة و الكرامة .

في هذا القصيد المشحون بالغضب والألم والفراق المر، فجر مفدى زكرياء " أروع مناظر الفرح والإستبشار من خلال أفضع المواقف هما وحزنا، واستخدم فيها لغة هامسة، تتصاعد في نغم هادئ، حزين فتشعر وكان القصيدة صفحة من بحر ساكن، هادئ ولكنه يحمل في أعـــماقه العظمة والقوة"[1].

وهي قصيدة قد تعرضنا لبعض أشعارها، وقدم لنا الشاعر معاناته الخاصة وغربته الموحشة داخل السجن، وعدم اكتراثه بما يحيط به من زبانية، لأنه أصبح في غربته تلك لا يخشى لا السجن ولا زبانيته، لأن ملّ الحياة التي أصبح يراها وكأنها تحولت إلى سجن هي الأخرى ، فيقول مغتربا متألما وحيدا لا يرى سبيلا، فيزداد اضطرابا وقلقا ويشعر بالضياع :

سِيَان عِنـــْــدي، مفتوحٌ ومغلـــق يا سجن، بابك، أم شُدت به-الحلقُ
أم السّياط، بها الجلاد يُـــــــلْهبني أم خازن النـــار، يكـــويني فَأصْطَفقُ
والحوض حوضٌ، وإن شتَّى منَابعُه ألقى إلى القعـــْـرِ ، أم أسْقَى فأنشرِقُ
سَرِّي عظيم، فلا التعذيب يسمح لي نطقًا، وربّ ضعاف دون ذا نَطقُـــوا! [2]

هذه صور الغربة التي عاني منها مفدي زكريا، تحكي بصدق العبارة عن بواعث هذه الغربة التي تصور جوانب متعددة من ألـــوان التعذيب الوحشي الذي كان يتعرض له أبـــناء الجزائر

1- **محمد ناصـــر** : مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، ص 65

2- **مفدي زكريا** : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، - بنت الجزائر .. أهوى فيك طلعتها - ص ص 20- 21

الأبرياء داخل هذه الدهاليز الرهيبة، فأصبحت الحياة عندهم جحيما لا يطاق، فلم يزدهم بطش زبانية المحتل الفرنسي إلا صمودا وصبرا و تحديا، وأضحى السجن عندهم لا يخشاه أحد، لأنهم عرفوا فيه كل ألوان العذاب والألم، فيقول :

يا سجن، ما أنت؟ لا أخْشاكَ تعرفني　　من يحذِقِ البحرَ، لا يُحدقْ به الغـــرق
إني بلوتك في ضيق، وفي سَـــــعـــة　　وذقت كأســـك، لا حقـــد ولا حنَقُ[1]

إن غياهب السجن وظلماته وغربته عند مفدي زكريا ليست إلا الرمز الأبدي لطموح الإنسان الجزائري، وحرصه على دخول المجد من بابه العريض لا بوصفه فردا يهوى المغامرة والإندفاع وراء المخاطرة بالنفس، ولكنه بصفته يحمل رسالة شعب يرنو إلى الخلاص والإستقلال والحرية، يقول مفدي زكريـــا :

واحْشرِي في غياهب السّجْن شعبًا　　سيم خَسفًا، فـــعاد شعبا عَنيدَا
واجْعَلي "برْبرُوس" مثوى الضَّحَايَا　　إن في بربروس مجــدًا تَـــليدَا!! [2]

إن قوة الصبر واحتمال الألـــم في سبيل الحرية سبيل مفدي زكريـــا في النضال، لأنه يحمل قضية وطنه وشعبه في قلبه ويتوقع الأهوال في سبيل بلوغها. فالسجن عند مفدي زكريـــا لا يمثل حالة فردية يعاني منها في غربته شخص ما، بل بوصفه وضع جماعة وأمة تجسد بحق مأساتها وتشردها وغربتها القاتلة، وإن السجن أحــــد هذه البواعث الإرهابية التي يـــسلطها المحتل الفرنسي يوميا ضد أبناء الجزائر، وعلى هذا الضوء فإن موقف الشـــاعر منه لا يختلف عن موقفه من وسائل الإرهاب و بواعثه الأخرى يقـــول مفدى زكريا.

لاَ النَّار، لا التقتيل، يَثْني عـــَزمَهُ　　لا السِّجن، لا التنكيلُ، لا الإعْـــدَامُ!

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص 21

2- المصدر نفسه : (الذبيح الصاعد)، ص 18

لا الذّاريَات، الماحِقَاتُ، هَوَ طِــلاً لا الشّامخَات، تَدُكُّها (الألغَـــــــــامُ)[1]

هذه الزفرات الشعرية، تظهر بصدق حقيقة المعاناة، وتبرز عظمة البلوى والمأساة، وتقدم للعالمين صورا حزينة، لموقع لا يحوي إلا أشكال البطش والإعتداء والعذاب، وأنماطا مشكلة من أنواع غرائب التعذيب، كالسياط الحارقة للأجسام البريئة، والغطس في مياه الأحواض المملوءة بـــالدرن، وغياب أوقات الراحة والحرمان لحظات النوم، والتواصل بدون توقف لألوان التعذيب، وكل ذلك يصاحبه فراغ رهيب في أعماق الذات، وليل مظلم، تتآلف فيه الهموم وتتضاعف الأوجاع وتتعاظم غربته، ويطول ليله " ذلك أن ليل الهموم طـــويلا، وخاصة إن الشاعـــر يرسف في القيود، ويعاني ثقـــل الحديد مربوطا به جسده"[2] غـــربة وعذاب مرير يتصل ليلها بنهارها ولا سيما في ذلك الوقت الصعب، وداخل ظلمة ليل بهيم قاتل يزيد الوضع كآبة وتتعاظم فيه الأحزان يقـــول :

و الليلُ يكتُم في ظُلمائِـــه شبـــــحًا يـــــأوي إلى شبح، ضاقت به الطرق

يا ليل! كم لك في الأطواء من عجب!! يـَـا ليلُ! حالك حَالِي، أمرنا نسق![3]

وعندما لا يجد مفدي زكريـــا في وحدته وغربته أنيسا لكربته ومأساته في واقعه، يعـــود إلى ذكر الماضي، محاولـــة منه للإنعتاق مـــن وطـــأة الحاضر الألـــيم التعيس، وهـــذه الظاهـــرة " أمثلتها كثيرة في واقع الفرد والمجتمع، إذ يحس المرء بثقـــل الحياة و ماسيها، فيهرب الى الذكريات الجميلة أو الحزينة، وربما تذكر الإنسان لحظات حزينة ليعمق حزنه باللحظة التي يحيا، وهو يسترجع اللحظات الأليمة التي مرت به، فيزيد حزنه حزنا، و لكنه على كل حال يهرب من واقعه التعيس"[4]

1- مفـــــدي زكريـــا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص45

2- عبد الرزاق الخشروم : الغربة في الشعر الجاهلي، ص185

3- مفـــــدي زكريـــا : اللهب المقدس ، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص25

4- عبد الرزاق الخشروم : الغربة في الشعر الجاهلي، ص241

فهو في غربته وآلامه يستنير بالموروث، ويستعين على بلواه، بما نثره من مسبقوه من فحول الشعراء كالمتنبي*:

كن أيُّها السجن كيف شِئتَ فقد وطنت للمْوت نفس معترف
لو كان سكنايَ فيـــك منقصةً لم يكُن الدر ساكن الصَّدفِ (1)

وهو في غربته يقف متحديا للسجن، ذاكرا فنون التعذيب كلها، غير مبال بها، وبالذي يأتون به من ألوان التعذيب، فالسجن خلق في النفس شعورا بالغربة والأسى فقد ظل يلاحقه في كل مكان يترل به. ويتقمص مفـــدي زكريا ظروف وأحوال غيره ممن سبقـــوه و ما حدث لـــهم ويرفض معهم وعلى لسانهم لما يجوب العالم من ظلم وسلب وعدوان منذ أقدم الأزمـــان ويثور في غربته على هذه الأوضاع المأساوية التي سكنت عصره والتي يسيرهـــا الطغاة والظلمة والجبابرة كما يشتهون، وهكذا يصبح صوته استمرارا لهذا الصدى المدوي المعبر عن الرفض عبر الزمن دون انقطاع، و يقول :

ثارت على الظلم، مثل السَّيل جارفةً فَلا الفَيَالِقَ، تثنيها ولاَ الفـــرقُ
لـــم يَثْنِهِ دون إدرَاك المنى رهـــــق وإن هُم، أَحرقُوا بالنَّار، أو شنُقُوا(2)

ومهما أظهر مفدي زكريا في سجنياته الصبر مخفيا ذاته الحزينة المغتربة، فان واقعه داخل السجن، وما تعرض لهمن ويلات وعذاب مزمن، لا يـــزيل ويغير حقيقة الغربة التي يعيشها، ولا يذهب أو يشفع ألوان الإذلال والإحتقار التي تعرض لها في سجـــنه :

أَسْرَى بها من (بَرْبَرُوس) خَيَالهُ وَهَـــفتْ به لِحِمَاكُمُ الأحـــلامُ

* هو **أبو الطيـــب أحمد بن الحسين الجعفي**، نسبة إلى قبيلة جعفي (على وزن كرسي) اليمنية، ولد بالكوفة (915-965م) في حي كنـــدة، ينظر : **ماهر حسين فهمي**، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص 53

1- ديوان المتنبي : شرح عبد الرحمان البرقوقي، ج3 ،دار الكتاب العربي بيروت، ب ت، ص24

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص27

غَنَّى بها في الليل، يعزف لَحْنها وقْعُ السَلاسِلِ...والرِّفاق نيَــامُ...
والقلبُ، بالأَنَّاتِ يقْطعُ بحــْرَهَا دقــاتُه : الأوزَانُ، والأنغــَــام[1]

فظاهرة الغربة بــارزة لتوفر عواملها الأساسية، رغم ما يظهره من صبر وثورة ورفــض، إذ نجده من لحظة وأخرى يعود إلى ذاته الجريحة التي قهرها التعذيب، وإنزوى بها البعد و النوى.

وتتضاعف غربة الشاعر داخل السجن وضوحا، خاصة عندما يصاب بضيق الوثاق وصلابته على معصميه ورجليه، فيعمد إلى النداء المدوي المشحون بالألم والأسى، لأن البعد أنهك صبره، وإنفصام الصلة بين الحياة و الحرية أجهد فكره، ومأساة انتظار ساعة الإعدام بعد ساعة أظناه.

سلوى! أناديك سَلوى! هلى تَجَاوبني سَلْوى؟؟ فإن لساني باسْمهَا ذلــقُ
رُدِّي عليَّ أهازيجــي مــــوقعةً فقد أعَارك وزنًا، قَــلبي الخفــَقُ[2]

فالغربة المقيمة مع الشاعر داخل السجن، دليل على عمق مأساته التي يريد أن ينقلها شعره، كما نقلها من سبقوه من فحول الشعراء* العرب فئ مثل هذه المواقف والظروف التي مبعثها ظاهرة الوجدان وردود أفعال الوجدانية.

وبهذا يصطع القول: إن غربة السجن عند مفدي زكريا، قد جسدت في شعره حديث الذات فيما تحب وتكره لشعر السجون ... وهي رفيقة له قبل السجن وفي أثنائه وفيما بعده وبين الوجدانية والرومانطيقية صلة وثيقة تتجلى في شعر السجون في أوضح صورها ومجمل الموضوعات الوجدانية التي عالجها هذا الشعر تندرج في نطاق التغني بالذات. الكثير من بواعث هذه الظاهرة، وأبرزت أشعاره المعاناة والممارسات الإنسانية داخل تلك السجون.

ويعد مفدي زكريا دون منازع أبرز الشعراء الجزائريين وصفا لتلك المؤسسات وما يــمارس في داخلها من ألوان وضروب القمع والأعمال الوحشية الفريدة من نوعها.

1- مفدى زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص 52

2- المصدر نفسه : (زنزانة العذاب رقم 73)، ص 25

* المعاناة نفسها سجلها أبو فراس الحمداني في شعره عــندما قال :

دعوتك و الأبواب ترتج دوتنا فكن خير مدعو و أكرم منجد

ديوان أبو فراس : رواية ابن خلويه، دار صادر، للطباعة و النشر، بيروت، 1979 ، ص83

إن اهتمام مفدي زكريا بالقضايا العربية والقومية، يرتبط إلى حد كبير بالجذور التــاريخية المشترك للأمة العربية، وهو ما يعنى وحدة القيم اللغوية والتاريخية والــدينية، ووحدة المصير. وكلاهما يمثل عند مفدي زكريا الأرضية التي تعيد نسيجا للأمة، وتجعلها تتواصل مع تراثها وحاضرها، فهي تَمَكّن الشاعر من إستعاب الواقع العربي خاصة في وضعه المغترب وحالته المأسوية، وكان مفدي زكريا، وهو يتجاوب مع آلام شعبه ويعبر عن غربته الطويلة ومع أحداث ولهيب الثورة التحريرية، لم تكن فكرة الكيان والوطن الجزائري في مفهومه بمعــزل عن جذوره العربية الإسلامية " بل كانت الــدعوة إلى كيات جزائرى ... تعنى في حقيقتها وبعدها عودة إلي ذلك التاريخ العربي الإسلامى وإلى ذلك التراث بكل مقــوماته، والذي حاول الاستعمار بكل الــوسائل والطرق القضاء عليه "[1].

1- البعد الـــــوطنى :

يمثل البعد الوطني * بالنسبة لظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريــا، البؤرة الحادة لمعظم مظاهر معاناته ومأساته، إذ يمثل تعلقه الفــريد بوطنه المحتل، ومــا يمليــه عليه ضميره من حقوق وواجبات، وما يفرضه من حقــوق، وبمواطــــن العروبـــة، مغربه ومشرقه، ثم مواطن الإنسانية.

1- ~~محمد الصالح الجابري : (الـوعي القومي و الديني~~ عند الشعراء الجزائريي المهاجرين إلى تونس)، مجلة الفكر، عدد 7، 30 أفريل 1985 ص32.

***كلمة الوطن لغة** : تعني مكان إقامة الإنسان ومقره، "فوطن الإنسان هو مسقط رأسه، ومكان سكن أهــله وأقاربه، إنه المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته.

- **وهيب طنوس** : الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، منشورات جامعة حلب كلية الآداب مديرية الكتب والمطبوعات،1979، ص 379.

"والوطن عند الجاهليين لا يصور حدودا جغرافية معينة، ولكنه يصور جماعة من الناس، تربطهم أواصر النسب، ...." المرجع نفسه : ص285

أما كلمة الوطن : في الإصطلاح الحديث، تعني القطر الذي ينتسب إليه الإنسان من حيث جنسيته.

أما كلمة الوطنية : فيراد بها ارتباط الفرد بوطنه وتعلقه به، باعتباره مثوى أبائه وأجداده......المرجع نفسه : ص379 وما بعدها.

يعتبر ابن الرومي من أشهر الشعراء الذين مجدوا الوطن وتغنوا به يقول:

ولي وطن آليت ألا أبيعــه   وألا أرى غيري له الدهر مالكا
وحب أوطان الرجال إليهم   مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذ ذكروا أوطانهم ذكرتهم   عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا

المرجع نفسه ص.285

وبالنظر إلى الشعر" نجد أن تمديد مفهوم الوطن والوطنية تمديد معاصر لم يكن معروفا عند القدماء بهذا المعنى، رغم أن كلمة الوطن ترددت بكثرة في أشعارهم"[(1)].

فنظرة القدماء للوطن معناه محصورا في النزول والإقامة في مكان "لأن العرب في ذلك العهد كانوا سادة ديارهم، فإذا تشوقوا أو تعلقوا بالأوطان، فلأنها بعيدة عن العين أو لأنها أثارت ذكريات الطفولة المحببة"[(2)].

وهذه الظاهرة التليدة، دفعت الشعراء القدامى إلى جعل المطالع العربية " الطليعة للقصائد المتضمنة موضوع الوطن، والتي تتردد فيها أصداء فقدان الأهل والأقرباء والمواطنين والحنين للأماكن المهجورة، تحمل معاني جديدة، فتولدت تحت تأثير الشروط الجديدة للحياة ولا سيما استقرار العرب في أماكن منفصلة متميزة عن الصحاري"[(3)].

لذا الوطنية والقومية* التي مصدرها الوطن تعتبران من أهم النزاعات الإجتماعيـــة " التي تربط الفرد البشري بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلـــها، ويضحي في سبيلها. ومن المعلوم أن الوطنية هي حب الوطن والشعور بارتباط باطنـــي نحوه، والقومية : هي حب الأمة والشعور بارتباط باطني نحوها، والوطن ـــ من حيث الأساس ـــ إنما هو قطعة من الأرض، والأمة - ـــ في حقيقة الأمرـــ إنما هي جماعـــة من البشر، فنستطيـــع أن نقول ـــ بناء على ذلك ـــ إن الوطنية : هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الأمة. ولهذا فإن مفهوم الوطنية لا يختلف ـــ في الحـــقيقة ـــ عن مفهوم القـــومية : كل الإختلاف كما أن حب الوطن يتضمن في الـــوقت

1- إبراهيم الســـولامي : الشعر الوطني المغربي في عهد الحـــماية، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الـــدار البيضاء، المغرب، 1974، ص 65

2- عبد الرزاق الخشروم : الغـــربة في الشعر الجاهلي، ص 38

3- وهـــيب طنـــوس : الوطن في الشعر العربي (من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي)، مـــنشورات جامعة حلب، سوريا، 1979، ص 379

* **القـــومية** : تعني الأمة، التي تتسع لتشمل أكثر من وطن مثل القومية العربية.

ينظر : **إبـــراهيم السولامي** : الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، ص 379

نفسه حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة. ولهذا السبب يتقارب مفهوم الوطنية من مفهوم القومية تقاربا كبيرا"[1].

وتأسيسا من هذا الترابط والتداخل بين الوطنية ــ مصدر الوطن ــ والقومية، فإن الحديث عن ظاهرة الغربة عن الوطن وأبعادها النفسية، لا يقتصر فقط عن مفهوم الوطن وما يرمز إليه ويدل عليه بل سيتسع إلى ظواهر وأبعاد قومية في بعض ملامحها وصورها، وكل ذلك سندرسه ضمن نصوص شعرية، ثم إفرازها من عوالم ذات مفدي زكريا في مواقف ومناسبات عديدة. ويمثل البعد الإغترابي الإسلامي والعروبي والقومي، في مقدمة أبعاد الغربة عند مفدي زكريا، والتي تتدرج في منظور ظاهرة الغربة عنده بعد البعد الوطني، فإن الشاعر قد تجاوب مع الحدث، و لم يكن اهتمامه موقوفا على البيئة المحلية أوالمجتمع وحده" وإنما اهتم إلى جانب هذا بالحديث عن الوطن والعروبة والشرق، كل هذا في إطار الدين الإسلامي، فكثيرا ما تختلط هذه الأمور كلها لدى الشاعر، إذ يتغنى بالوطن ويقرن هذا التغني بالعروبة والإسلام، مازجا بين هذه الموضوعات الثلاث، لأنه لا يفرق بينها ولا ينظر إليها باعتبارها قضايا منفصلة، بل ينظر إليها نظرة واحدة، فالوطن والقومية والدين كلها بالنسبة له تعني أمرا واحدا، ولعل الحس التاريخي هو الذي فرض عليه هذه الرؤية، أو أن الضغط الإستعماري جعل الشاعر يرى رؤية شاملة للتحرر، فالوطن لا يتحرر إلا إذا رجع إلى أصالته إلى قومه، ولا يتم ذلك كله إلا بالرجوع إلى القومية العربية، وهذه لا يعلو شأنها إلا إذا اعتمدت على الدّين الإسلامي[2]. ويمكن اعتبار نظرة العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس* عن معنى الوطن وهو يوضح معالمه ومراميه وأبعاده، في ما نشره في مقالته التأصيلية المشهورة "لمن أعيش" عندما يوضح بدقة نظرته و يقول :"...أما الجزائر فهي وطني الخاص، الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه

1- **وهيب طنوس** : الوطن في الشعر العربي، (من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي)، ص 379

2- **عبد الله ركيبي** : الشعر الديني الجزائري الحديث، ش و ن ت ، ط1، الجزائر، 1981، ص ص 680-681

* **عبد الحميد بن باديس** : رائد الإصلاح الديني في الجزائر، ولد ليل 4-5 كانون الأول 1883، من أسرة بربرية عريقة في العلم، ويرجع أصلها إلى المعز بن باديس الصنهاجي (1014-1062) ، مؤسس الدولة الأولى التي سبقت دولة الأغالبة.

ينظر : **عمار طالبي**، ابن باديس حياته وآثاره،دار اليقظة العربية، دمشق، ج3، ب ت، ص 483

خاص، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة إليه : إلى رجاله وإلى ماله وإلى حاله وإلى آماله...نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عـــزيزة علينا دائما مـــنّا على بـــال، ونحن فيما نعمل... لوطننا الخاص نعتقد أنه لابد أن نكون قد خدمناها، وأوصلنا إلـــيها الـــنفع والخير من طـــريق خدمتنا لوطننا الخاص وأقرب (هذا)* الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآدبا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة. ثم الوطن العربي الإسلامي ثم وطن الإنسانية[1]".إن شعر مفدي زكريا بخاصة، وهو يعبر عن مأساة شعبه، واحتلال وطنه وتشريد وإبادة شعبه، لم يكن يفكر ـــ في غربته وأحزانه الملونة بالعذاب والألم ـــ في كيان الوطن الجزائري في مفهومه الضيق المنفرد، منفصلا بأي حال من الأحوال عن قضية إلتحام هـــذا الكيان بجـــذوره العربية الإسلامية، بل كانت الدعوة إلى كيان جزائري مستقـــل في نظره " تعني في حقيقتها وبعدها عودة إلى ذلك التاريخ العربي الإســـلامي وإلى ذلك التراث بكل مقوماته، والذي حاول الإستعمار بكل الوســـائل والطرق القضاء عليه[2]".

وبناء على هذه النظرة عمد مفدي زكريا من خلال القصائـــد إلى إيصال الماضي العربي الإسلامي الشامخ بالأيام الحافلة بالأمجاد والحضارة، بالحاضر الذي أصبح عابسا، فنحده يتألم ويصاب بالغثيان على هذا الحاضر الذي لا يمثل الماضي ولا يمجده.

وعلى الرغم من أن ظاهرة التمزق والشعور بالإنفصال عن الوطن ظاهـــرة تليدة في حياة الإنـــسان، فإن الشعراء اتخذوا من إنفعالاتها - أحيانا- حالة وطنية. وقد ظهر الوطن في أشعاره، هو مكان تواجد القبيلة ومرتع الصبا، ثم تحول عند المتأخرين منهم، هو الوطن الذي فيه أهل الشاعر وقومه، وتحده حدود سياسية ويرفرف عليه علم ذلك البلد ورمزه.[3]

---

* هـــذا : هكذا ورد في النص ...وهي معناها هذه

1- عـــمار طـــالـــبي : ابن باديس، (حياته وآثاره)، دار مكتبة الشركة الجزائرية، 1968، ص ص 237-236

2- محمد الصالح الجابري: الوعي القومي والديني عند الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس، (مجلة الفكر)، ص 32

3- أبو قـــاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، ش و ن ت، الجزائر، 1981، ص 30

لـــذا إن الإحـــساس بالغربة وبالشقاء بعيدا عن الوطن والشعور بالتمزق والحرمـــان من الأهل والأصدقاء، يعد مصدرا لليأس والإنكسار، وبذلك تبدو الحياة وكأنها الفراغ الموحش، ويبدو الوجود مظلما مخيفا بل مرعبا فظيعا، فإذا المغترب أو المهاجر لا حول له ولا قوة، وإذا هو مستسلم للأمر الواقع. وأنه يشعر دائما بأنه غريب وأنه في عزلة عن الناس، وأنه ليس ممن حوله منه، فيعيش كالطير السجين في قفص، قضبانه من ذهب، ولكنه لا يهنأ يوما، لأن جوه وأفقه الذي يرفرف ويحلق فيه، سلب منه، ومن هنا كان الطابع العام بالنسبة لشعر الإغتراب هو التشاؤم والشوق والتحرق إلى الوطن وإلى الأهل والأحباب (1)

إن ظاهرة الغربة والتمزق تعد - أيضا — مصدرا من مصادر الفهم، ومن مصادر الإشعا ع - والتي ليست بالإغتراب - هي وضع يكون طبيعيا عند الأديب والشاعر والفنان، يفرضه عليه ذلك البحث عن حقيقـــة المجتمع ويتطلبه التعمق في طـــياته، وهذا لا يتم إلا بالتجـــاوز والإبتعاد إلى حد ما.

لأن التجاوز لا يجب أن يؤدي إلى القطيعة وإلى تفكيك الصلة بالمجتمع والغربة الثقافية ضرورية لفهم المجتمع وللتعرف على كنه حقيقته، فهي سد للفراغ وإمـــــلاء الهوية، وهي إيجابية في مضمونها وفي أهدافها وفي محصولها، وتمثل عربون أصيل للإنتاج الثقافي في المناخ الإجتماعي. أما الإغتراب فهو سلبي جملة وتفصيلا، لأنه يعوزه الوضوح والوعي والشعور بالمسؤولية، وتلك الإرادة الخلاقة لوضع المجتمع والمحيط محل درس وتحليل. وكثيرا ما نلاحظ تقليدا أعمى للغير- أو للماضي — وليس ذلك التقليد في نهاية الأمر إلاّ ضربا من محاكاة الآخرين - زمانا ومكانا — والتنكر للماضي أو لبني المجتمع أو الأمة — والإغتراب أنواع وأصناف، وأبشعها ما يأتي لنقص في البعد أو لإنعدام التحكم في المصير الثقافي[2].

1- مـــــاهر حسين فهمي : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ص 71

2- عبد الوهاب بوحديدة : النثر الثقافي العربي المعاصر، وعلاقته بالمجتمع، مجلة الثقافة الجزائرية ، ج 2، العدد 76، السنة 3 جويلية — أوت 1983، ص 23.

إن التحرق والتمزق والشوق إلى الأهل والوطن لا يكون إلا عند الإغتراب أو الغربة، يكون عندما يقع الشاعر في الأسر أو في حالة النفي أو بسبب حرب أو مغامرة في سبل متعددة أو غيرها، ففي مثل هذه الحالات، نجد الشعراء ينطلقون في القول ويكثرون من النظم في الشوق والحنين، وقلما نجد من يسكت منهم في الغربة عند مناجاة وطنه والتشوق إليه وإلى أهله[1].

لذا فإن شعر الغربة والتحرق إلى الوطن الجزائر، هو شعر التمزق الوجداني، الذي يأتي متضمنا أبياتا ومقطـــوعات غنائية يغلب عليها طـــابع التـــأمل والتخيل، وتتميز بالصـــدق العميق في معظمها - وهي في نظرنا أفضل ما نظم حول ظروف الجزائر تحت السيطرة الإستعمارية - وفي منظور هذا الشعر إستطاع الشعراء تخطي حدود المناسبات والتغيير عن مأساة الإنسان الجزائري في ظل الإستعمـــار والإستغلال [2]، لقد أضطر كثير من الجزائريين غداة الإحتـــلال الفرنسي إلى مغادرة بلادهم والهجرة إلى بلدان شقيقة كالمغرب وتونس أو إلى بلدان المشرق العربي، فقد شعروا بمرارة الغربة عن الوطن، على الرغم من أنهم ظلوا يعيشون بين أشقائهم العرب إلا أن الشعور بالمرارة والإحساس بالألم لم يكن نتيجة للإغتراب عن الوطن فحسب، إنما كانت نتيجة للوضعية التي كانت تعيشها الجزائر تحت كابوس الإحتلال وقسوته(3).

منذ أن وطئت أقدام المحتل الدخيل أرض الجزائر، عمد بكل ما يملك من آليات ومخططات إلى محو وطمس المظاهر العربية الإسلامية للجزائر وأن يزيل من على أرضها كل ما له صلة بتراثها الحضاري والفكري الذي تركه الأجداد إرثا ناصعا للأبناء والأحفاد، ولتحقيق مساعيها الإستغرابية عمدت السلطة الفرنسية إلى منع" تدريس تاريخ الجزائر والشرق العربي، وقد حاولت عبثا الكتب الفرنسية المقررة في المؤسسات التعليمية المفرنسة آنذاك، أن تقنع الجزائريين أنهم أحــفاد" شـــارلمان وجان دارك" وأن أجدادهم هم" الغول"وأن فـــرنسا هي الوطن الأم"[4].

1- **محمد عبد الغني حسن** : دراسات في الأدب العربي والتاريخ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1985، ص 185.

2- **نـــور ســـلمان** : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر، ص 334

3- **شلتاغ عبـــود شراد** : حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 101

4- **حـــنفي بن عـــيسى** : المستشرقون وتاريخ الجزائر، مجلة المعرفة، وزارة الأوقاف، الإدارة العامة للمنشورات، العدد 6، 1983، ص16.

وتظهر الغربة عن الوطن، متجلية في هذه الأبيات التي يرسلها مفدي زكريا، في حركة قلب دامي، ويأس مضني، فيقول :

الحُـــبُّ أرّقــنِي، واليأسُ أضْنَانِـــي		والبَيْنُ ضَاعفَ آَلامِي وأحْزَانِي.
والرّوحُ في حب لَيْلاَي*استحال إلى		دمع، فأمْطره شعري ووجدانِي.

بعد أن عرض حالته النفسية المغتربة، وكيف كانت بلاده الجزائر المكبلة سبب بلواه وآلامه وأحزانه، هذه الإضطرابات العديدة، هي التي أفرزت هذه الأنغام المشحونة برسالة الشوق الدامي الدامع ثم يقول :

أُساهِرُ النَّجْمَ، والأكــْوانُ هامــدة		تُصْغَي أنيني، بأشواق وتَحْنــَانِ
كأنَّما وغُرابُ الليـــل**منحَــــدر		رُوحي وقلبي بجنبيه جَنَاحـــَـان
نَطْوي معًا صهوات الْليلِ في شَغَف،		ونَــرْقب، الطَّيف من آنٍ إلى آنٍ

وصف حي ودقيق ما يصف به مأساته، ووصفه حي بحياته ودقات قلبه، وجيشان عاطفته وغربته عن الوطن شديدة التأثير في القلوب، والغربة ظاهرة فريدة في دنيا الإنسان فهي في تهويل الخطب، وفي جعل الشعر كله في جو مكفهر حافل بالأحزان، وفي أساليب الوجدان المختلفة من تنوع وتقلب في الكلام، ثم يصل إلى مسبب هذه الإضرابات، التي لو لم تكن لكان العدم فيقول :

رفقاً بلادي فأنت الكَون أجمعــــــه،		لولاك كنت بلادي هالكـــًا فَانِي
« لك الفؤَادُ وما في الجسم من رَمَـــــقٍ،		ومن دمـــاءٍ، ومن روح وجثمان »***
لك الرقاب، وما في الكون من نـــفسٍ،		مُدّي يمين الوفا، يا عين إنــْسَانِي
« لك الحياة، فجودي بالوصَال، فمـــــا		أحْلى وصَالِكِ في قلْبِي ووجداني» (1)

*ليلاي : يقصد الوطن (الجزائر)

**غراب البين : ورد شرح ظاهرة التطير في الفصل الأول من الرسالة، ص 9.

*** مفدي زكريـــا : أمجادنا تتكلم، (قصيد لك الحياة)، هذا البيت والبيت التاسع علق عليهما الزاهري بقوله : " لمصطفى كامل المصري،شهيد الوطنية "، اقترح عليه شاعرنا تضمينهما مثل ما رأيت، الديوان، ص51

1- مفدي زكريـــا : أمجادنا تتكلم، (لك الحياة)، ص ص 51ـــ52.

الوطن ذكرى القلوب المتحابة، وذكرى الإجتماع فالفراق، وهذه الذكرى صبغت لوعة وحزن وغربة، قد درج الشعراء قبل الإستقلال على إفتتاح قصائدهم بهذا اللون في الغربة التي كانوا يعيشونهـــا فعلا في كثير من الأحيان.

كما يصف مفدي زكريا ما تعرض له هذا الوطن، من أعمال الشقاق الدّامية، والإنفصامات الحاقدة، المدمرة للكيان الجزائري، الذي صبر وتصدى بكل ما يملك من جهد لإفشال هذه المخططات والمناورات الهدامة المؤذية للإنسان والمكان يقول :

فلكم تصارع والزمانَ، فلم يجدْ فيه الزمانُ ـــ وقد توحد ـــ مطْمعَا
وإستقبل الأحْداث، منها ساخرًا كالشامخات، تمنُّعـًا وترفعـــــــا
وأراده المستعمرون، عنـــاصرًا فأبى مع "التاريخ" أن يتصــــــدَّعا [1]

ثم يعدد مفدي زكريا مظاهر الغربة، ومسبباتها الحقيقية التي جعلت هذا الشعب يتوحد حول الجراح والآلام الحمراء الدامية.

عَاث فيها الطُغَاةُ، عسفًا وظُلمًا ورَماهَا البغاة، جهْلاً وفقْـــــرًا
واسْتُذلَتْ رقَابُها، فَتَـــــــــراها وهي في أرْضها، تَجُوعُ وتَعْرَى
نحْنُ في هذه الجزائر، إخـــْــوَا نٌ، جراحاتنا الثخينة (حمـــرآ)[2]

كما يزيد الشاعـــر في عوالمه الداخلية غربة وحسرة، نداء ووصايا الآباء والأجداد "المتعالية من القبور، منادية بدر لك الخطر، والوقوف في وجهه، وإصلاح ذات البين، مما يشكل الوحدة، التي يتوقف عليها الإنتصار وتحقيق الإستقلال وهو الأمر الذي سيجعله الله مصيرا"[3].

1- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (إقرأ قتابك)، ص.59
2- **المصدر نـــفسه** : اللهب المقدس، (شاكر الفضل ليس يعدم شكرا)، ص ص 281- 283
3- **يحي الشيخ صالح** : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص9.

هذه الأصوات المتعالية، لو سألها الجزائري الوفي لأجابته بأجوبة حادة مملوءة بالحسرة والغضب، ويقول مفدي :

فـــاسألوها..تجبْكمُ من حشاهـــا صَرخـــَاتُ الجدود، تُنـــــْذر شرَا
وتـــُــــنَادي : أَلَيْسَ فيكم رشيـــدٌ يدفعُ اليومَ، مُنْكَرَ القـــــَوْل، جَهْرَا
أصْلِحُوا ذاتَ بينكم، واسْتَقِيمُوا إن فعلتـــُــــمْ سيجعلُ الله أمـــــــــرا..(1)

وتعتبر الوحدة الترابية بالنسبة لمفـــدي زكريا، أمّ الغربة وأبرز عناصرها ومسبباها. فالشعب الجزائري عندما ثار على العدو الدخيل، كان من أجل أن يزيل من على أرضه مسببات تعاسته، وتشرده وفقره وجهله، وكانت صورة الوطن الموحد شعاره في مسيرته الدامية الطويلة:

إنّ للأرْضِ كالنُّفــوس حنَينًا، إنّ(للتـــُّرْبِ*) كالعباد كُبُـــودَا
نَحن جُـــدْنا حِيالَها بالدَّمِ الغَا لِي، فـــَماذَا يَضرُّها أنْ تَجُـــودَا
إنْ تَناسَتْ أوْ أنكَرَتْ ذكِّرُوهَا جُثثَ الشَّـــعب تملأ الأُخْدُودَا(2)**

ويذكر الشاعر العدو الدخيل بأنه مهما حاول أن يتناسى أعماله الوحشية، والجرائم البشعة التي اقترفها في حق الأبرياء من أبناء الجزائر، فإن التاريخ سيحفظ له هذه المخازي التي ملات الأخاديد بالجثث البريئة، وأن الجزائر لن تكون إلا لأبنائها الحقيقيين الذين سقوا تربتها الزكية، وأسانيد التاريخ شواهد على ذلك على مر العصور والأزمنة وتعاقب الأجيال جزائريتها وعروبتها وإسلاميتها.

وأنزل بدارات (سِرْتا)*** مطرقا أدبًا فبين أضلعها آبـــــاؤنا الصيدُ !

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (شاكر الفضل ليس يعدم شكرا)، ص283.

* من الوثيقة، في الأصل و"الأمة" ومفدي زكريا، "التراب"، الديوان ، ص.147

2- المصدر نفســه : أمجادنا تتكلم، (سوق عكاض)، ص ص147ـــ151.

** تذكيرا لفرنسا بوعودها أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما وقف الجزائريون إلى جانبها، وسقط الآلاف من أجل تحريرها..

*** **"سرتا"** : إسم لبلدة رومانية، هي قسنطينة اليوم.

وامْش الهُوَينا، ففي أحشائها أمـــم   وفي جوانحها، أسد مـــــعاميد
دَمُ الصَّحابةِ، مَعْجُـــون بتُربتِهَـــا   قدْ خلدتْهَا علي الدنيا الأَسَانيد(1).

ثم يعود إلي عالم غربته، فيذكر أن هذه الأشعار، مبعثها أمجاد هذه الأمة التي أرادها العدو الدخيل أن تتهاوى إلى الحضيض، ومبعثها آهات غيض وألم وحسرة لما آلت إليه هذه الأرض العزيزة علي أهلها، من سلب ونهب وكل مظاهر الظلم والإذلال يقـــول :

هذا نشيدي - بني أمي– سكبت به   رُوحي، قـــوافيه، آنات وتَنْهيد
قطَّرْتـــها، من شَرَايِيني ومن كبدِي   في ذمّة الله، والتاريخ، يا عيد*!(2)

وهكذا يتضح أن مفدي زكريا قد تعلق بالوطن وتغنى بـــالإرتباط به والتوق والشوق إليه إلى آخر لحظة وهو من حياته بعيدا عن أرض الوطن وهو بعيد في بعاده وغربته التي رافقته طوال الحياة : ولعل خلود مفدي زكريا من خلال أشـــعاره الوطنية الملتهبة الحزينة، يعـــود في الأســـاس إلى شحنها بالروح الوفية للوطن، والتمسك الكامل للوعي بالوطنية والـــدفاع عن ساحاتها، ويمكن أن تكون دراسة أخرى عن صورة الوطن في شعر الرجل، قائمة بذاتها.

فالشاعر الأصيل يحكم دوره في الحياة يكون أكثر الناس وعيا بمعاناة وآلام الأمـــة وأوجـــاعها، رغم أنه ذاتي في كثير من الأحيان، إلا أنه لا يغفل مصير وطنه وأمته، فـــكلاهما جزء من مصيره الشخصي، فلا حياة إلا من نبع الأمة كلها. وكان مفدي زكريـــا مدفوعا بمثيرات داخلية عـــميقة، نحو الأحداث العـــربية ويتفاعل معها ويدمجها باستمـــرار في أشعاره الحزينة الثورية، بقضايا وطنه الشخصية، ولعل أهم القضايا القومية التي عالجها بشغف في شعره، قـــضايا المغرب العربي، الذي وضع له المحتل سياسة فرق تسد التشتيتية الجهنمية، طوال تواجده واحتلاله لهذه

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (من يشتري الخلد ؟ إن الله بائعه!)، ص 263.
*بمناسبة تدشين دار (ابن باديس) لطلبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بقسنطينة في 25 أكتوبر 1953، الديوان، ص 263.
2-المصـــدر نفسه : (من يشتري الخلد ؟ إن الله بائعه!)، ص 272

البقعة الغـــالية على ساكنيها، إلا أن هذه السياسة العدوانية ،قد تصدى لها أبناء المغرب العربي الكبير، وأحبطوا مفعولها بالصبر والتعاون والتضامن، وأضحت المأساة المشتركة المتمثلة في الإحتلال الغاشـــم، تعني كل أبناء المغرب العربي، وأصبح التضامن ضد العدو المشترك واقعا ينطق به كل لسان " فإذا تألمت الجزائر، فما تطيق تونس صبرا لآلمها ولا تسكت مراكش عن التأثر لمصابها "(1).

ويبـــرز مفدي زكريا هذا التلاحم والانصهار الابدي لدي أبناء المغرب العربي، الـــذين أريد لهم البتر و قطع السبل لعدم التواصل والإنفصام والغربة يقـــول :

و تعمدوا قطعَ الطريق، فلم تـــــُردْ أسْبابـــُه، بالعـــُرب أن تتقطّعـــا ...
نسَب، بدنيا العُرب زكّي غـــرسه ألـــَم، فـــَـــأوْرَق دَوْحه و تفرعا
سَبَب، بأوتار القلوب، عُروقــــــه إنْ رنَّ هـــذا، رن ذاك، ورجَّعـــا
وارتج في الخضراء، شعب مـــاجد لـــم تَثْنيه أرزاؤُهُ أن يفْـــــــزعا
وهوت مراكُشُ حوله، وتألمت لبــــ نان، واستعدى جَـــديسُ وتُبَّعـــا! (2).

2- البعد المغــــــــاربي :

لقد دعا مفدي زكريـــا أبناء المغرب العربي إلى الوحدة من أجل مجـــابهة العدو المشترك ومن أجل التحرر والإنعتاق، و لم يتوان لحظة واحدة للوقوف مع أبناء المغرب العربي الكبير فى السراء والضراء، وها هو يعيش فرحة الشعب التونسي في الإحتفال بالذكرى الرابعة لإستقلاله، ويذكرالشعب التونسي أن هذه الأفراح جاءت بعد معاناة ودماء غزيرة، قدمها أبناؤها قربانا على مذبح الحرية والإنعتاق وأنها صاحبة مكانة هامة في المغرب العربي، وعليها مسؤليات ما تزال قائمة في وحدة المغرب الكبير يقول :

في مثل يومك، تُكْرمُ الأعيـــــادُ* وبيـــوم عيدك، يعذب الإنشادُ

1- جريدة "العلم" المغربية : الرباط، 1957/06/30، ص7.

2- مفـــــدي زكريـــــا : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك ..)، ص 60.

* تخليدا للذكرى الرابعة لعيد تونس ، 30 مارس (1956- 1960)، " المغرب العربي أنت جناحه "، الديوان، ص 171

(عِشرونَ مَارسَ) جَلٌ يومًا خَالدًا   قد حُطمت في فَجْره الأَصْفادُ[(1)].

ثم يبرز مأساة الشعب التونسي أيام النظام الاستبدادي الفرنسي، وكيف كان الإنسان التونسي يعيش الغربة والظلم والجهل، وكيف كان يسومه زبانية المحتل ألوان الذل والبطش والاستعباد، يقول :

فِيكَ انْطَوى شَبَحُ الحمايَة، وامَّحى   عَهْد الظُّلام ، وأَشْرقَ المــــيلادُ
وتنفَسَ الصُعَدَاء شَعْب طـَــالما   ضُربَتْ بتونس دُونَهُ الأَسْـــــدادُ
وَرَأَى السِّيادة، في بلاد طــــالما   قَضَّت زَمـــانًا، لِلهَـــوان تُقـــادُ [(2)].

ثم يذكر بالتضحيات الجسام التي قدمتها تونس من أجل الحرية والإستقلال ،

يَا شعْبَ تونس، كم لتونس في الفدآ   صفَحاتُ مَجْدٍ، خطُّها الأمـــجادُ
أكْرِمْ بها حـُــــــريةً قـُـــربانـــها   - يا تونس- المُهْجات و الأكْبَـــادُ
المغــْرب العَـــربيٌ، أنْتَ جَـــنَاحـــهُ   حرِّكْ جناحك، يصْعدُ المْنطــَــادُ
ولتشهْـــدِ الـــدنيا، هـــنالك وحدةً   جَــــبارةً، تُفتحْ لهـــا الآبـــَــادُ[(3)].

ويلفت انتباه تونس أن الجارة العزيزة المحتلة الجزائر ،قد عقدت العزم على تقديم المزيد من القرابين والضحايا، من أجل الحرية والإستقلال، بلغة فيها الكثير من الحزن والألم والحسرة، يقول :

شَعبُ الجزائرِ قَام يَبنِي صَرْحهَـــا   بـــدِمَائه، والْحَـــادثاتُ شِـــدادُ[(4)].

والوحدة المغاربية المنشودة في أبعادها المأساوية، ليست وحدة منفصلة عن الوحدة العربية الشـــاملة، التي تعاني ألوان الغربة والظلم والإحتلال والإستبـــداد هي الأخرى، بل هـــذه الوحدة

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، " المغرب العربي أنت جناحه "، ص .171
2- المصـــدر نفسه : ص ص 171-172
3- المصـــدر نفسه : ص.172
4- المصـــدر نفسه : ص 172

التي جمعت شملها المعاناة والآلام هي أساس بناء الصرح العربي الشامخ من المحيط إلى ديار بكر والذي يراه مفدى زكريا في صفة وحدة عربية قوية في المغرب يقــول :

نَصَبُوا العصيّ* على الحدود سَفاهةً	و سَعُــوا إلــى تَوْزيعه لضــرَارِ
والمغْرب العـــربيُّ، شعب واحـــد	ملءَ العرُوقِ، دمُ العروبَة جَـــارِى
للشَّرق لا للْغَرْبِ ، وَلَّى وجْهــَه	فغَــدَا له سنـــدًا لخوْضِ عمــَار[1]

فالأســلاك الشائكة المزودة بالطاقة الكهربائية، وزرع الألغام الــمجاورة لها الفتاكة ليست في ضمير أبناء المغرب العربي الكبير، سوى عصى تافهة نصبها المحتل الفرنسي لايهام سكان المنطقة بأن هناك فواصلا وحدودا، بين أبناء القطعة الواسعة الأرجاء الواحدة الموحدة في شتى الميادين والأعراف والقيم. كما وقف مفدي زكريــا مع أبناء الأطلس العظيم، وتألم للأحداث التي أصابت أبناء الريف المغربي الأشم وذرف دموعا حمراء. ولهيب مهج تذيب الصخر على ما أصابهم من ظلم وبطش يقول :

(بَنِي الرِّيف)** ليسَتْ سوى جُرعَةٍ	مـــنَ الهوْلِ، ثُمَّتَ تُجْلَى الْــغِيَرْ
(بني الريف) ليست سوى خطوة	عـــلى النار، ثُمَّت يُجْنَى الثَّمَـــرْ
(بَنِي الرِّيف) ليسَتْ سِوَى جـَـوْلة	على الضَّيمْ ثم يــطيبُ المَقَـــــرْ
نضالاً نضالا (بني الــرِّيف) عـــنْ	تـــُراثٍ لكمْ غَـــالِيَ المدَّخَـــــرْ
أجِيبـــُوا أجِيبُـــوا نــِداء الضَّمِيـــر	ودعوةَ عَــظْمٍ رَمـــيمٍ نَخِـــــرْ[2].

---

* نصب العدو الفرنسي حدودا وهمية بين أقطار المغرب العربي الثلاثة (تونس، المغرب والجزائر) بالشمال الإفريقي...(قالوا نريد ..)، الديوان، ص 118.

1- مفدي زكريــــا : اللهب المقدس، (قالوا نريد ..)، ص 118

** تخليدا لثورة الريف المغربية بزعامة عبد الكريم الخطابي زعيم الثورة، (أمجادنا تتكلم : إلى الريفيين)، ص 23

2- المصــــــدر نفسه : (أمجادنا تتكلم : إلى الريفيين)، ص24

ثم يحثهم على الصبر والتجلـــد لأن الحرية دروبها وعرة، ومسالكها خطيرة، فالحرية والعزة لهما ثمن غال، إذن الصبر و السير نحو ميادين التضحية و الفـــداء.

(بَني الرِّيف) مَن كانَ يَهْوى الحَياة يَهـــونُ عليه رُكوبُ الخَطِـــرْ
و بيْن البِـــلادِ و دُستــــــورِهـــا ضَحَايا نُفوسٍ و سِجْنُ أُســـَرْ
و لن يَبْـــــلغَ العِزَّ إلاَ الـــــذي على رَشْفِ كأْسِ العذابِ صَبَرْ[1].

يترآىء لنا مما تقدم أن مفدي زكريـــا قـــد قـــام برسالته الشعرية أحسن قيام : دافـــع عن الكيان المغربي وحريته، وأهتم بالأحداث المـــؤلمة التي ألمت بالمغرب ونادى بمؤازرة المظلومين، والدفـــاع عن المغرب العـــربي الموحد. وإيمانه بهذه الوحدة راسخ في أعماقه، لاهث لتحقيقه طول حياته. وإذا لم تتحقق هذه الوحدة كما أرادها مفدى زكريـــا، وشعوب المغرب العربي، وذلك راجع إلى الظـــروف السياسية، ويبقى صوت الشاعر صرخة دائمة مشحونة بالأمل والغـــربة والأسى من أجل هذه الوحدة التي تعيش في أعـــماقه إلى أبد الآبدين.

3- البعـــد العـــربي والإسلامي :

نـــظر مفدي زكريا، نظرة متجاوبة مع مأساة كل الأقـــطار العربية، التي كانت تـــواجه المشاكل والأحداث الجـــسام، من طرف الإستعمار الغاشـــم، ويذّكر في غربته وآلامـــه أن الجزائر لا يـــمكنها أن تنسى أو تسكن رغم ظـــروفها الصعبة وما ألـــم بـــها من أحداث قـــاسية، آلام الأمة العربية ومعاناتها، وأن مصاب الأمة هو مصاب الجزائر، وآلام وأحزان الأمة هو آلام وأحزان الجزائر، إن مثيرات الأحاسيس وإنفعالات النفوس، وإضطرابات القلوب، لا يمكن أن يحدها حـــد : فكل اضطراب في الجزائر له رد فعل في بلاد العرب، يقول الشـــاعر :

يـــَا أُمـــةَ العرب الكرام، كـــَرامةً لَكَ في الجزائـــر، حُرمة وَذمـــامُ

1- مفدي زكريـــا : (أمجادنا تتكلم : إلى الريفيين)، ص24

في كل أرضٍ للعروبة، عِنـــْدنـــا   رَحـــم تَشابَكَ، عندها الأرحـــامُ
إن صاح في أرض الجزائر صائح   لَبّتهُ مصـــــرُ، وأدركتـــه شـــآمُ
عِزَ العروبة، في حمى استقلالـــنا   أيَطِيرُ (مقـــصوص الجناح) حمامُ ؟[1].

لقد إهتم مفدي زكريـــا إهتماما كبيرا بالقضايا العربية، ورغم مشاكل الجزائـــر ومعاناتها والظروف الإستعمارية القاسية، لم تمنعه من أن ينظر ويفكر في القضايا الخارجية ولا سيما العربية منها ، لقد تحفظ بقوميته العربية التي يعتز بها، ومن خلال أشعاره التي تدل دلالة واضحة على أنه يفصل بين معاناته و معاناة بلاده ومأساة الأمة العربية، كيف ينسى مفدي زكريـــا، وهو العربي الأصيل لحما ودما ونسبا، حاولت فرنسا مرارا أن تضرب ســـدا منيعا بينه وبين إخوانه العرب وتفصمه عن أصله وإنحـــداره، لكنها خسئت، لم تفلح و لم تقضى البتة على قوميته ولغته وإسلامه ومن جراء ذلك رآى ألوانا من الغربة والتعذيب والتنكيل، وما بدل تبديل، فيقـــول :

وتعمدوا قطع الطريق، فـــلم ترد   أسبـــابه، بالعرب أن تتقطـــعا
نسب، بدنيا العرب زكى غرسه   ألم، فـــأورق دوحه وتفـــرعا
سَبَب، بأوتار القلوب عروقـــه   إن رن هذا رن ذاك، ورجّـــعا
إمـــا تنهد بالجـــزائر مـــوجَع   آسى الشآم جراحه، وتوجـــعا
واهتز في أرض الكنانة خافـــق   وأقضٌ في أرض العراق المضجعا [2]

لقد استطاع مفدي زكريـــا عن طريق الكفاح أن يجسم الروابط القومية في إطار التضامن الجغرافي والحضاري والنضال المشترك، وأن يعمق هذا التجسيم إلى مستوى الإحساس الدقيق بالانفعالات والاضطرابات وردود أفعالها، مثل تدفق الدماء وتسارع دقات القلب، وتزاعمها وتوازنها، ولعل أهم القضايا القومية العربية على الإطلاق التي عـــالجها الشاعر في شعره وكـــان لها

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص.51
2- المصـــدر نـــفسه : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك)، ص60.

بعد مأساوي شديد على المستوى العربي، هي نكبة فلسطين، فهي أولى القضايا التي تأثر لـــها وتجاوب مع أحداثها، منذ أن تفطن لخطر المؤامرة التي تحاك ضد هذا الوطن الشقيق والأرض الإسلامية المقدسة. " من هذا المنظور الوحدوي شكلت القضية الفلسطينية بالنسبة للثورة الجزائرية أحد أبعادها الأساسية التي خصصها شعراء الجزائر بخاصة وشعراء المغرب العربي بعامة في أشعارهم المشهودة في هذه الثورة بذبابات تعبر عن إحساس شعوبهم وتعلقهم بهذه القضية وإيمانهم بحق أبناء فلسطين في الحرية والكرامة، فــوق وطنهم السليب "(1).

لم ينظر مفدي زكريا إلى نكبة فلسطين (1941) بروح المتعاطف، بل اعتبرها قضية مركزية تهـــم الوجود العربي كله، فهي في المقام الأول صراع حضاري هـــدفه محق الـــوجود العـــربي وكسر وتقـــزيم مـــكانته في المجتمع الإنساني، ومن هـــذه الـــرؤية كانت " قصيدة فلسطين على الصليب " التي جاءت على شكل حوار حزين دامٍ بين الشـــاعر وفلسطين والعـــرب، تبـــدأ القصيدة بنوع من الحـــزن. ينادى من أغـــوار الـــذات المنكسرة، من مصاب الأحـــرار فـــوق أرض الجزائر، من أنات جراح أبـــناء المغرب الـــزين السائر إلى الغربة، والمشـــردين ينادى الشاعر داخل هذه الأحـــوال وآلام فلسطين.

أنـــاديك، في الصرصر العاتيه	وبين قـــواصفها الـــذاريـــه
وادعـــوك بين أزيـــر الوغى	وبين جـــماجمها الجـــاثيـــه
وأذكر جرحك، في حـــربنا	وفي ثـــورة المغرب الفانيـــه
فلسطين... يا مهبط الأنبياء	ويـــا قبلة العـــرب الثانيـــه
و يـــا حجة الله في أرضـــه	ويـــا هبـــة الأزل، الساميـــه (2).

وبعـــد هذه المقدمة، يستعرض مفـــدي زكريا مأساة الشعب الفلسطيني المشرد، ويـــعتبر أن مـــأساة فلسطين هي مأساة الإنسان المحتل المظلوم، الغريب في كل مكان وزمان، والأمة العربية

1- **عبـــد الله ركيبي** : قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الـــدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1977، ط3، ص.44

2- **مفـــدي زكريـــا** : اللهب المقدس ، (فلسطين على الصليب)، ص ص 336- 337

تعيش في غيبوبة من أمرها لا تحرك ساكنا أمام الأعمال الإرهـــابية الصهيونية التي تقوم بها ضد أبرياء فـــلسطين، هذا السكوت العربي، أدخل الشاعـــر في غربة حادة وزكت في أعـــماقه نيران الغضب والألم، وفتحت أبـــواب الجراح على مـــصراعيها، ودفعت بالشـــاعر أن يشعر بمرارة الحياة والإغتراب.

ويتفجر الشـــاعر ألما للواقع المر الذي وصل إليه الإنـــسان العربي، والضعف والخوار والجبن الذي نال الحكام العرب، وتقاعسهم وتفريطهم في مقدساقم ، وتناسيهم قضية فلسطين وإهمال أرضها المقدسة وترك شعبها يذوق ألوان البطش والإبادة والتشريد، ويزداد نواحا كلما نظر إلى الخلف الذي فرط فيها، وشغله عن القضية الأساسية، متاع الدنيا الزائل من لهو وعبث، وتبديد لخيرات الأمة فيما لا طائل منه، كأنهم أصيبوا بمس، أو يعيشون في سبات عميق، رغم أن الأحداث جسيمة والوضع خطير وكرامة الأمة في الميـــزان، يقول مفدي زكريا بلهفة ودمعة حارة :

ويح العروبة ..كم ديست قداستها! وسامها الخلف، إفلاسا وخذلانـــا!
وعاكفين على النعمى....يهدهدهم صفو الليالي...وما رقـــوا لبلـــوانا
ناموا...و في الدار(اسرائيل) ترصدنا وأغمضوا دون(اسرائيل) أجفانـــا[1].

هذه البلوى التي أصابت الأمة العربية، وبهذه النكسة التي أضعفت الإنسان العربي بواعث حزن وألم لدى الشاعر لأن لها منابت وأصول فوق أرض الجزائر الجريحة المقاتلة التي تعاني الظاهرة والوضع نفسه يقول مفدي زكريـــا :

وفـــي الجزائر، أشـــلاء ممزقة راحت، عن العرب، قربانا، وغفرانا [2]

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (رسالة الشعر في الدنيا مقدسة)، ص 293
2- المصـــــدر نفسه : ص 294

فــلسطين :

أيا شاعــر العرب ذكــرتني	وهــجت جراحاتى الــداميهْ
لقد كـــان لي سبب للبــقآ	فــقطع قــومى أسبابيـــــهْ
ورحت أباع واشترى كما	تــباع لجــزّارها المـــــاشية
واشنق في حبل مستعمـــري	واصـــلب في كف جـــلاديه
ويسلبنى عــزتي غـــــاصبي	وتنهب داري قـــــــطاعيه [1].

ثم يقدم صورة العرب المتخاذلة تجاه مأساة الشعب الفلسطيني، فيتقمصون حالة الضعف والخوار ويبرزون مــظاهر الأسى والحسرة والألم، وبعد نوم عميق، وكــأنهم كانوا تحت مخــدر أو سكارى، يتساءلون عن أسباب المؤامرة، وعن حيثيات النكبة، التي كان حكامهم أحد أطرافها، لما أصابهم من ضعف وخيانة وصمت رهيب أمام الفاجعة، الشيء الذي أدى إلى تشريد شعب فلسطين وضياع من الأرض المقدسة، يقول مفدي زكريا بأسلوب فيه كثير من السخرية وألم شديد وحرقة.

وقـــال ابن يعرب، لـــما تيق	ظ - لم أدر - من سكرتي -ما هِيه ؟
ولـــم أتفطـــن (لثـــالوثها)*	و لم أدر - من غفـــــوتى - ماهيه ؟
و لم تجد في صدها حســـرتى	ولـــ يفدني— فـــي القـــضآ- ماليه [2]

ثم يتوجه غاضبا للحكام العرب، الذين تقاعسوا عن نجدة فلسطين، ويقدم صور حكام الأمة العربية بحسرة وفي أبشع المظاهر، وكأنهم كسحاء، لا يستطيعون الحركة، همهم الوحيد من الحياة الترف والنوم والكسل والأكل...يقــول :

وفـــوضت أمري للحـــاكمينْ	فـــضيّع قـــــدسي حـــكّاميه.

1- **مفــدي زكريا** : اللهب المقدس، (فلسطين على الصليب)، ص 341

*- يقصد به الإعتداء الثلاثي على القنال بمصر، الديوان، ص 344

2- **المصــدر نفسه** : ص ص 344-345

وهام السّراة بنعمى الحــــــياه　　وعاثـــوا (انتهازا و اقطاعيه)؟
وهل يرتجى العون من معشــــر:　　قـــواعد، طاعمة، كـــاسيه...[1].

4- البعــد الإفريقي والإنـــــساني :

ولإرتباطه بقضايا وطنه ومعاناة أمته العربية. لم يقتصر مفدي زكريـــا على معالجته قضايا وطنه أو معاناته أمته ومأساة الإنسان العربي تحت ظل الإستعمار، بل نجده تجاوز هذا الحيز المحلي والقومي في غربته وهمومه ليواكب كل مشاكل وقضايا الإنسانية التي تفجرت فوق هدا الكوكب بعد الحرب العالمية الثانية، والتي إتخذت شكل الثّورة ضد الظلم الإستبداد وإحتقار الإنسان وبطشه وقسوته على أخيه الإنسان، وليقف بصدق إلى جانب معاناة و نضال الأحرار في العالم من أجل التحرر والإستقلال، وقد أدرك " وحدة النضال الإنـــساني ووحدة الأهـــداف النبيلة له، وعـــرف أن إنتصـــار الإنسان المعذب في كل مكان هو انتصار لقضايا الإنسانية الخاصة، لأن المستعمر واحـــد "[2]. و لهذا ينبه ويسترجع، أبناء إفـــريقيا لماض ليس بالبعيد، ماضي المآسى والظلم والإستعباد ذاقه من طرف المحتل الفرنسي العدو المشترك الذى طال بطشه، وبـــالغ في ارتكاب جرائمه، وجعل من القـــارة السمراء منطقة تجاربه الذرية التي دمرت الانـــسان وأفسدت الأرض وما عليها من حياة يقول مفـــدي :

شعب إفـــريقيا، أحاط به المكـــ　　ـــر فأمسى للمجرمين، ضحية
و رمته عبر القرون، فرنـــــــسا　　طعمـــة للقـــنابل الـــــذرية
و سرى الموت فيه، جيلا فـــجيلا　　يـــوم هزت شعوبه الحيـــوية

ويدعـــو الشـــاعر بـــحرارة وحسرة، أبناء إفـــريقيا الأحـــرار، إلى ضـــرورة النهـــوض من سباقم، والكفاح والنضال المستميت بشتى الطرق والوسائل، ودفعا للظلم وقهرا للطغيان المتمثل في الإســـتعمار الفرنسي العنصري الذي لم يقم وزنا للحرمات والأعراف والإنـــسان واستـــرداد

1- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (فلسطين على الصليب)، ص 345
2- **ماهر حسين فهمي** : الحميم والغربة في الشعر العربي الحديث، ص 36

للحرية والإنعتاق يقــول :

شعب إفــريقيا، ستنصفك الــد   نيا، وتصغي لك الشعوب الأبية
وسيحكي هذا الزمان، ويــروي   للبــرايا، فــضائح، المـــدنية
فخذ الثأر من فــرنسا، وخلــد   في الضحايا تلك النفوس الزكية
وانفجر صارخا...و قل يا فرنسا   أنت في الأرض، هفــوة أزليــة
يا فــــرنسا يا لعنة الــــبشرية !! [1].

كما يلتفت الشاعر إلى قادة وزعماء الشعوب الإفريقية، ويحذرهم بالخطر الداهم على قارتهم من طرف الإستعمار الفرنسي، وغـــيره، ويشد بحرارة ومرارة على أيديهم بأن يكون صفا واحدا ضد أعداء إفريقيا من الإنتهاز بين مصاصي دماء الفقراء، أعــداء القيم الإنسانية و الحرية يقــول مفــدي زكــريا :

ووحد الأهداف، من عــالم   بات به، لا يفلــح الواحد !!
فالظلم، ما زال على حالــه   والغــدر، في هذا الورى سائد
والغرب، لا ينفك مستعمرا   ثــعبانه، في أرضنا راصـــد
والقــوم، لا حد لأطماعهم   تاريخهم، عن مكرهم شاهــد
إن شعوبا فرقت أمــــرها   سرعان ما يصطادها الصائــد
وأمــــة لم تتخذ حــذِرها   يــكيدها في أرضها الكائــد.[2]

ويؤكد مــفدي زكريــا على الوحــدة وعدم الإنــفصام والشقاق، ويصرخ عاليا محذّرا أن العــدو المحتل من عاداته الخبيثة و دهائه الماكر، أنه يسعى دائما كالوحش المفترس، إلى بث سموم

1- مفدي زكريـــــا : اللهب المقدس، (وليد القمبلة الذرية)، ص .165
2- المصدر نــــفسه : (المارد الأسمر)، قيلت في مؤتمر الشعوب الإفريقية، تونس، 1960، الديوان، ص 146.

الشـــقاق و التناحر، ويعمل إلى انتهاج سياسة فـــرق تسد للحيلـــولة دون تمكن تلك الشعـــوب من إعداد العدة لمواجهته وطرده من أراضيها، و يحث أبناء إفريقيا، أن العدو رابض بـــالمكان، لأن أرض إفـــريقيا بها خيرات كثيرة، وتنام على كنـــوز خيرها على بنيها عميم، ويـــدفعهم إلى ميادين التضحية، والنضال من أجل استرجاع هذه الأرض، والإستفادة من نعيمها الذي يستغل من طرف المحتل الدخيل، يقول مفدي زكريـــا :

إفريقيا ، أنت عـــروسِ الـــدنى   والـــوطن، المنبعث، الصامد
(نضارك الأسود) حشو الثرى   في أمـــره، يحسدك الحاســـد
سيري إلى التحرير، في عـــزة   والحزم درع، والحجى قائـــد
وفاوضي الأقوام، في حكـــمة   ما خاب من تفكيره، الرائـــد
واضطلعي بالعبء في جـــبهه   شعبية، يـــرهبها القـــاصـــد .[1].

وبعد فـــإن الشاعر في معاناته، تجاه قضايا القارة السمراء لم يقف عند حدود المعاناة اليومية لدى أبناء إفريقيا، وما يسببه الإستعمار الفرنسي للشعوب الإفريقية من متاعب إجتماعية وإقتصادية كالفقر والحرمان والجهل والغربة والتي تعتبر جزءا صغيرا من المعاني الدالة على الغربة والمعاناة الذاتية، بل تعرض إلى مناجاة الحرية، باعتبارها أساس الحياة الكريمة ومصدر السعادة الإنسانية ومنبع نزعتها قبل كل شيء بالإضافة إلى إشادة النضال الهدف المنشود، وعامل الوحـــدة التي تمثل القوة، في التحرير الشامل للقارة من النفوذ الأجنبي الدخيل.

1- **مفدي زكريـــــا** : اللهب المقدس، (المارد الأسمر)، ص ص147-148.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لظاهرة الغربة

في شعر مفدي زكريا

تمهيد : الغربة الشعرية ومدلولـــها

قبل الشروع في دراسة شعر مفدي زكريا، نرى أنه من الأنسب أن نمهد للموضوع بصورة موجزة، وذلك بالحديث عن مفهـــوم اللغة الشعرية ومدلـــولها، لأن وظيفة اللغة الشعـــرية " تعبيرية جمالية انفعالية، تستخدم للتعبير عن أحاسيس، واتجاهات وآثارها عند الآخرين" (1)

بالتالي فـــإن " اللغة هي الظـــاهرة الأولى في كل عـــمل فني، يستخدم الكلمة للتعبير وقد عرف الإنسان العالم أو حاول أن يعرفه لأول مرة، يوم أن عرف اللغة، وهو لم يعرف السّحر إلا يوم أدرك قـــوة الكلمة، و لم يعرف الشعـــر إلا يوم أدرك قـــوة السحر. فـــالشعر هو الإمتداد المستمر لتلك الفرضية الأولى، هو استكشاف دائم لعالم الكلمة، واستكشاف دائم للوجود عن طريق الكلمة. ومن ثم كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة وغنى الحياة على السواء، والشعر الذي لا يحقق هذه الغاية الحيوية لا يمكن أن يسمى شعرا بحق"(2).

ومن خلال اللغة ينطلق المرء في رحلة نحو ميادين المجهول وأغواره، ليكشف عوالم وأفقا لا حدود لها في أعماق النفس الانسانية، وهي عوالم بنيت على أسس من العلاقات الغريبة، تجمع بين التشبيه والكناية والاستعارة وغيرها، وفي كل وقـــفة من الوقفات الشاعـــرية تبرز اللغة لتزيل الستار عن حـــال أو تنير زاوية غـــامضة في النفس الانـــسانية، وكل ذلك يتم من خـــلال عـــملية خارجية عن سياق الكلمة العادية (3).

ومن جملة ما تتضمنه وتـــعنيه اللغة أنها أداة للتواصـــل(4)*، ونقل الأفـــكار والعواطف،

1- **مصطفى ســـويف** : الأسس الفنية للإبداع الفني، دار المعارف بمصر، 1969 ، ص ص281-282 .

2- **عز الدين اسماعيل** : الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية، ط3، دار الفكر العربي، ب ت، ص ص173-174

3- **أحمد الطريسي اعراب** : الرؤي، المؤسسة الحديثة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء المغرب، 1987، ص ص131-.132

4- **محمود أمين العالم** : مجلة الفـــكر التونسية، العـــدد 9 ، السنة 26 جوان 1981 ، ص ص 22-24 .

* التواصل أو التوصيل في الشعر، قضية قديمة ، قدم الانسان، و هو يعني هذه الدلالة الفعالة النابعة من بنيته اللغوية الخاصة، ولعـــل هذا هو ما يجعل الشعر بطبيعته غامضا أي مختلفا عن اللغة العادية رغم استعانته بمفرداتها، انه يصوغ هذه المفـــردات و يوظفها على نحو يختلف عن صياغتها و عن توظيفها في لغة الحديث العادي الذي يتسم بالتقريرية والمباشر..

المرجع نفسه، ص ص22-24 .

ووعاء لحفظ التجــارب والذكريات[1] ثم هي تمثل أبنية صوتية تحمل مــعاني ودلالات محددة، وهي لا تكون شاعرية إلا إذا تغيرت معانيها ودلالاتها المحددة و تحولت إلى شكل أدبي أكثر بعدا عن لغـــة الواقع أو اللغة العادية [2].

أولا : اللغة الشعرية مفهوما ومدلولا

واللغة الشعرية، كما يعرفها عباس محمود العقاد هي اللغة التي " بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن منه كلام الشعراء "[3].

هـــذا من جهة، ومن جـــهة أخرى، فإن رسالة اللغة ومهمتها في مجال العمل الشعري " لا تقتصر على المعاني الذهنية بدلالاتها المعجمية المحددة فحسب، وإنما مهمتـــها الأولى أن تـــثير الأحاســـيس والمشاعر لدى المتلقى بصورها وظلالها، وتلك هي الوظيفة الحـــقيقية للفـــظة في التعـــبير الأدبي، وهـــو ما يميزها حقا عن وظيفة اللفظة في التعبير العلمي"[4]. وبالتالي فإن اللغة تـــؤدي وظيفـــتين أساسيتين، فهي قد تكون أداة للتعبير عن الحقائق والقضايا العلمية، وفي هذه الحالة لا يكون هدفها ولا غايتها إلا عملية توصيل الأفكار وتبليغ المفاهيم، ولكنها زيادة على ذلك قد تكون آداة لتأديـــة وظيفة أبلغ إنفعالية عند التعبير عن الأفكار فحسب، بل " أنها إلى جانب هـــذا يمكن أن تكون غاية في ذاتها حينما تتضمن إلى جانب الافـــادة خصائص جمالية تستروحها النفـــوس وتلتذ بها الآذان، وتسمو بـــها اللغة إلى مستوى الفنـــون الجميلة، حتى تصير اللغة مظهرا من مظـــاهر الجمـــال، كالرسم والنقش والتصوير والموسيقى والنحت"[5].

1- **محمد ناصر بو حجام** : أثر القرانفى الشـــعر الجزائـــري الحـــديث، المطبعـــة العربيـــة، غردايـــة، الجزائـــر ، جـــزء الأول، 1992، ص217 .

2- **حاتم عبد الحبوب الساعي** : الإمام الحسين في الشعر العربي الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1984 ، ص.275

3- **عباس محمـــــــود العقاد** : اللغة الشاعرة ، (مزايا الفن و التعبير في اللغة العربية)، دار غريب للطباعة، القاهرة، ب ت ، ص.11

4- **محمـــــد نـــــــــاصر** : الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص281 .

5- **قـــــاسم مـــــــومني** : نقد الشعر في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ، 1982 ، ص ص 335-337.

من هذا المنطلق نلحظ أن لغة الشعر متميزة، وذات خصوصية لأنها لغة إيحاءات، ثم أنها تقف على نقيض اللغة العامية أو لغة العلم، التي هي تحديدات ولغة الإيضاح، فاللفظة الشعرية تفرغ كلية من دلالاتها العادية لتشحن بدلالة جديدة، وذلك في النسق الكلامي أو في السياق العام للنص الشعري(1).

والمقصود بعملية تميز لغة الشعر عن اللغة العادية، لا يعنى أن لكل منهما مسلكا خاصــا تنتظم فيه، و إنما يعنى أن "الأولى قد ترشحت ترشيحا جديدا، أعطاها الشاعر معنى غــير معناهــا السابق، و حياة غير تلك الحياة، أو بعبارة أخرى إنها وبفضل الشاعر المقتــدر -المالــك لأدوات التجربة الشعرية - تشكلت تشكيلا جديدا على هيئة لم يتمكن منها سوى ذلك الشــاعر الــذي وظفها خلال تجربته الخاصة، فأعطاها دلالة غير دلالتها المحدودة، وطاقة تختلف عن طاقاتها السابقة، وبذلك اختلفت اللغة فصارت موحية متوترة وقادرة على الاثارة، لأنها أمست تصدر عن وجــدان عميق، وتتألف من ألفاظ ذات مدلولات نفسية وشعورية خاصة"(2).

وإذا عرفنا أن لكل شاعر إنفعلاته المميزة ومشاعره الخاصــة، وأن منهجــه وأســلوبه الشعري يختلف من شاعر إلى شاعر آخر " أدركنا أن اللغة الشعرية ليست واحدة بل هى متعددة تعدد التجارب الانسانية، التي يعبر عنها الشعراء. فالحكم على لغة الشاعر لا يتوقــف على النــظر فى الكلمات ذاتها بقدر ما يتوقف على طريقته فى تركيب هذه الكلمات بعضها مع البعض الآخر، وعــلى ما تحمله العبارة الناتجة عن هذا التركيب من مشاعرخاصة تميز شاعرا من غيره "(3).

وبذلك تكون اللغة شعرية ووفق هذا التكوين ستقيم علاقات جديدة بــين الإنســان والأشياء، وبين الأشياءو الأشياء، وبين الكلمة والكلمة، بمعنى آخر فإنها تقدم صورة جديدة للحياة والإنسان كما يرى أدونيس(4)

1- **أحــمد الطــــــريسي** : أعراب الرؤية و الفن في الشعر العربي الحديث، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص64.

2- **حاتم عبد الحبوب الساعي** : الإمام الحسين في الشعر العربي الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1984، ص 76.

3- **محمـــد مـــــصايف** : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ط2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 345.

4- **أدونــــــــــيس** : سياسة الشعر، دار الآداب، طبعة 1 ، بيروت، 1985، ص 154.

1- المعجم التقليدي للشعر الجزائري:

إن المعجم التقليدي لظاهرة الغربة عند أغلب الشعراء الجزائريين الذين عاصروا مفدي زكــريا أثنـــاء الثورة التحريرية وفترة الاستقلال، يشتمل على مـــادة لغوية استمدت مـــنابعها من الكتاتيب أو الزوايا، أو المعاهد الدينية أو الجامعات الاسلامية، كالزيتونة بتونس أو القرويين بالمغرب الأقصى، أو مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لهذا نلحظ أن معظمهم كان ملما بعلوم القرآن الكريم، ودارسا متمكنا من أصول الفقه وعـــلم الكلام والأدب العربي القديم وسائر المعارف التراثية، ساعدهم على ذلك المناخ الثقافي الرديء المسيطر الى هدف محـــدد هو " التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التي أنتجتها الأجيال الســـابقة "(1).

والتي تتمثل في دواوين الشعراء أمثال المتنبي، أبي فراس الهمداني، إبن زيدون وأبي العلاء المعري، ومن كتب الدين والفقه الإسلامي ، وما يتفرع عنها من شروح عديدة وتفاسير دقيقة ، هذه الأعـــمال العظيمة والجليلة أمدهم بلغة تعبيرية سليمة، وبقاموس بليغ ، فحرصوا على التمسك بها ، لـــذا فإنه من الطبيعي أن يصطبغ شعر الشعراء سواء الذي أنشد قبل إندلاع الثورة أو الذي قيل أثناءها أو الذي أنشد عند الإستقلال، بالصبغة التراثية والأخلاقية، وأصبح الأمر يعد عارا بيِّنا وفاضحا لكل من لا يـــدرس أو يحفظ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهـــاني المـــوسوعة العـــربية " فهو الذي يقوي المـــادة اللغوية وينمي الثروة الفكرية ويغـــــــذي الملكة البيانية "(2).

وأيضا كـــل من لا يعتمد اللغة العربية بـــاعتبارها لغة الوحي والقرآن الكريم والدين الإسلامي يعدُّ كافرا " فـــالإحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط في صيانتها من التطـــور وآثـــاره السيئة واجب ديـــني لا سبيل إلى جحوده "(3) ويتميز الدين الإسلامي بميزة خـــاصة، لـــما حل

1- **كـــــارل بـــــروكلمان** : تاريخ الشعوب الاســـلامية، ترجمة نبيه فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملاييـــــن،ط8، بـــيروت، 1978، ص482

2- **الشيخ محمد البشير الابراهيمي** : عيـــــون البصائر، ش و ن ت، ط2، الجزائر ، ب ت، ص210

3- **كـــمال نـــــــــشأت** : أبو شادي و حركة التجديد في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة و النشـــر، القـــــاهرة 1967، ص 223

باللغة العربية في هذه الديار من غربة وتشـــويه وحصار وإبـــعاد " فشعراء الإصـــلاح بإعتبـــارهم رجـــال علم وفكر ديني إصلاحي رأوا في اللغة أمرا مقدسا، لأنها لغة القرآن، فالتجـــديد فـــــيها أو الخروج عن مقاييس القدماء، أو الثورة على قوالبها يعد خروجا على المقدسات "[1].

لـــذا نجد معظم شعـــراء الغربة لـــهذه الفترة قد نظروا و تعـــاملوا مـــع القـــاموس اللغـــوي " استجابة لدعوة لها أبعادها النفسية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية، وردُ فعلٍ تلقائي لواقع كان يعيشه المثقف العربي في غمرة إرهاب ثقافي"[2].

ووفق هذه الرؤية، أصبحت العناية بالقاموس اللغوي العربي القديم، مقصودة عند هؤلاء الشعراء، إذ أيقنوا أنهم يعيشون غربة مزدوجة، غربة اللغة المضطهدة في وطنها، وغربتهم النفســية داخل السّجون أو بعيدا عن الوطن. وبناء على أن ثقافة شعراء هذه الحقبة الصعبة والمعقدة والأليمة، في مجملها تمثل ثقافة تقليدية تراثية باستثناء فئة قليلة منهم، الذين ثقفوا بالعلوم والآداب الحديثـــة، واطلعوا على فصول محدودة من ثقافة العصر. دراسة ظاهرة الغربة اللغوية التي تناثرت في معجـــم مفدي زكريا التقليدي انطلاقا من روافده ومصادره الأساسية الأولى وهي القرآن الكريم والشـــعر العربي القديم، وبعض مما يتعلق بالأثر الاسلامي من عظماء الأمة في مجالات عديدة منـــها الدينيـــة والرموز التاريخية، وأماكن وعوالم ونحوها، والتي ظلّ مفدي زكريا يستمد من مناهلـــها مفرداتـــه الفريدة، وتراكيبه المتنوعة البليغة.

2- أثر القرآن الكريم في الشعر الجزائري الحديث :

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأساسي الأول لشعراء الغربة التقليديين الجزائريين، فقد أفنوا العمر كله مجندين لإعلاء مناراته المقدسة، منجذبين لفصاحته وقوة بيانه، مستمدين من آياته البليغة الفريدة، العبارة، والأفكار والأحاسيس، ومستخرجين منه لغتهم الشعرية، التي كانت تنثر للانسانية،

1- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ش و ن ت، الجزائر، ط1 ،1981 ، ص633

2- محمـــد نـــاصر : الشعر الجزائري الحديث، ص 51 .

شكواهم، وغربتهم، ورفضهم للظلم والعبودية ونبذ العادات والأخـلاق الـرديئة، معلنين حربـا هوجاء ضد الفكر المتخلف، والضمائر المفقودة الميتة، ورفع راية الاعتزاز بحب الأوطـان، والتـوق للحرية والعدالة الإنسانية، والإنعتاق من قيود الاحتلال والاستعمار.

إذن بالنسبة لأثر القرآن الكريم في لغة شعراء هذه الفترة نسجل بأنه " نظرا لكثـر ة تعامل الشعراء مع القرآن تلاوة و دراسة و تدبرا، فقد رسبت في ذاكرهم ألفـاظ قرآنية تكـررت في القرآن مرارا، فدارت في أشعارهم كثيرا، لارتباطها بحياهم من حيث التعـبير عـن مكونـاهم والافصاح عن مشاعرهم"(1).

وبسبب خيبة الآمال الفردية والجمعية التي عاشوها أو تأثروا بظلالها، جـاء مـزاجهم الحزين متطابقا مع مزاج عصرهم، وبما أن المرحلة تعتمد على لغة الرصاص في ساحات الـوغى، فألهبت نيران الثورة التي تعالت ألسنتها ربوع الوطن، وكانت الأوضاع وظروف الشعب الجزائري مأساوية، هذه الظواهر وغيرها كثير، ظلت ميدانا فسيحا غنيًا بالظواهر الانسانية المعقدة والمتنوعة، هيج منابع المشاعر الحزينة، وتلهب الحماسة والاندفاع داخل النفس المتالمـة وتسـتعرض منـاظر الأهوال، وصور الحيـاة الصعبة القاسية، فتدفع الشاعر إل ىالتعبير عن مكنونـه بالشـعر. لـذا نلحـظ أن الشعراء الجزائريين المتأثرين بالقرآن الكريم قد استدلوا واهتدوا إلى إختيار اللفظة القرآنية المؤدية بدقة للمعنى المراد قصده، والمناسبة لهذا الأوار الملتهب حمما داخل النفوس، كلفظة تفور"(2) . التي وظف فيها مفدي زكريا ذكاءه، واستغل من خلالها طاقتها التعبير الدالة على الغضب و الثوران والانفجار، للتعبير عن مكـامن النفس الحزينة المتألـمة قال تعـالى " **إِذَاأُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَـا شَهِيقًا وَهِيَ تَـفُورُ**" (سورة الملك الآية 7)

1- محمد ناصر بو حجام : أثر القران في الشعر الجزائري الحديث، ج 1 ، ص 134.
2- المرجـــع نفسه : ص 139.

إن هذا التوظيف في شعــر مفدي زكريا، يكشف عن معاناته، واضطراباته الحادة، فيعبر عنها ليؤجج غليان الثورة في النفوس البائسة النائمة، ويبرز أن الأكباد في أجهزته قــد فارت بها وأصبحت لا تطيق صــبرا أو سكوتا على الألم، كما تفــور القدر في الظــاهرة الطبيعية. وهــذا لما يتجــرعه الجزائري من طــف الــدخيل المغتصب من ظلم وحــيف، وتشــريد وغربة.

يقول مفدي زكريا :

ألا فــــارُوا لِلآبد يا دهرُ قِصٌة تَفُــورُ" بها أكبادنا ملِئتْ صــدقَا [1]

ثم يركز مفدي زكريا على مواطن الداء ومنابعه الباطنية، فيقول في موطن آخر:

يَا نُفوسًا وإن لاذَت بِرَفــْرفها من وحْيِها الشّعْب قد" فَارَتْ" حَناياه[2]

لقد وظفت لفظة " تفور" في القرآن الكريم، في السياق المناسب للمعنى اللغــوي الــذي يــدل على الاضطراب الحاد الذي يسببه الغليان والحمم التي تدل على قوة الهيجان والجيشان، فقد استعمل مفدي زكريا الدلالة اللفظية في المعاني الأخرى، وإن كانت ترجع كــلها إلى معنى واحد هو النبع والإنتشار[3].

كما ركز مفدي زكريا في مواضع كثيرة. إذ نجده يستخدم اللفظ القرآني دون استيحاء معنى الآية أو الأيات مصدر اللفظ. وتأثر الشاعر بالقرآن في هذه الحالة أقل، لأنه اقتبــاس للفــظ فحسب دون المعنى، وهذه الظاهرة. متفشية في شعره، فهو كثيرا ما يستعمل اللفظ القرآني للتعــبير عن معاني غير قرآنية "[4].

1- مفــدي زكــــريا : تحت ظلال الزيتون، دار النشر، تونس، 1965، ص 41 .

2- المرجــع نــــفسه : ص70.

3- محمد ناصر بو حجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج1 ، ص 141 .

4- يحي الشيخ صــالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 368.

لــذا عدٌ مفــدي زكريا عند العديد من الدارسين أكثر الشعراء الجزائريين إلتفـــاتا إلى توظيف المفردات القرآنية في قصائده. وهــا هو يصف أبطال الجزائر من المجاهدين البواســل، فيقول :

بناشئة هــناك، أشــد وطأ وأقــوم منطقا وأحــــد نابا [1]

فهــذه الصورة الحركية لكواســر الجزائر، التي ضمنها البيت الشعري اقتباس لفظي من الآية القــرآنية الكريمة في قــوله تعالى : "إِنٌ نــاشئةً الليــلِ هي أَشــَدُّ وطأً وأَقْــومُ قـــيلاً"(المزمل الآية 6)

والملاحظ هنا أن الآية القرآنية لا تصف حركة الجهاد، ولا تتحدث حتى عنه وإنما تتناول زمن الليل وتبرز أوقاته، إذ تركز على أن قيام الليل بالنسبة للإنسان المؤمن للتعبد، هو أشد ثقلا بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة، أي أجمع للخاطر في أداء قراءة القرآن وتفهمه من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش[2].

ثم يعمد مفدي زكريا ليغيض العدو الدخيل، وأذنابه، في ذكر خصال المجاهدين، وما حققوه من تقدم وانتصارات على المستعمر فيقــول :

والُزرع أخرج في الجزائر شَطأه فمضى وهبّ إلى الحصاد كرام[3].

فالبيت الشعــري في معاناته وثورته وتحديه للمستعمر الــدخيل، مقتبس من الآية القرآنية الكريمة عند قــوله : " كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزٌراع " (الفتح الآية 29).

1- **مفدي زكــــريا** : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، نظمها بسجن " البرواقية "، 1957، ص31 .

2- **تفسير إبن كــثير** : مكتبة النهضة الحديثة، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، 1968 ، ص.461

3- **مفــــدي زكريا** : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، نظمت بسجن "بربروس" ، القاعة 9، 1957، ص44 .

وهذا الإستنجاد بالآيات القرآنية الكريمة يدل على الحالة النفسية المتألمة المعذبة التي يعيشها مفدي زكريا، وما يصاحبها من ذعر وغربة، فنجده كالجلمود صامدا، ينتظر القدر المحتوم على لسان أحمد زبانة في شموخ وكبرياء، رغم الدماء التي تجتاح عوالمه الباطنية حسرة على فقدان هـــذا العزيز الغالي، فيقول صابرا قانتا بقضاء الله و ظلم البشر.

واقض يا موت في ما أنت قاض أنـــا راض إن عاش شعبي سعيدا[1]

هذه الحالة النفسية التعيسة التي عايشها بأم عينيه بسجن " بربروس" قد اقتبسها الشاعر من الآية القرآنية الكريمة عند قـــوله تعالى : " **فاقْضِ مـــَـــا أَنتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَـــاةَ الدُّنْيَا** " (طه الآية 72)

كما يصف حالة الشعب الجزائري المشرد، فيثور كالبركان ينثر حمم المآسي، ويعدد أيام البطش وسنين القهر، طالبا من أبناء وطنه الثورة على العدو الدخيل، وإحداث هزة قوية موحـــدة تزلزل دعائم الدخيل وتحدث في أبراجه الحاكمة شرخا وانقلابا.

وزلزل من صياصيها فـــرنسا وأوقع في حكـــــومتها انقلابا [2].

ويستنجد بالظاهرة نفسها، مرة أخرى في ديوان له آخر، ليؤكد حالة الغليان والغضب على العدو الدخيل، ويبرز بدقة إنتفاضة الشعب من سباته، واستجابته لنداء الكرامة وحب الشهادة، فيقول :

وزلزل صياصيها بثورتك التي تسامت تشق الغيب في سيرها شقا[3]

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، نظمت بسجن " بربروس "، القاعة 9، 1955، ص 10 .

2- المصدر نفسه : (قال الله)، ص 32

3- مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، دار النشر، تونس، 1965، ص42.

ففي البيت الأول نلحظ أن مفدي زكريا قد اقتبس لحالته الانفعالية التعيسة، المشحونة بالحسرة والألم من القرآن الكريم ما يناظرها عند قوله تعالى : " وأنـــزَلَ الَّذِينَ ظَاهَـــرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلونَ وَتَأْسِرُونَ فَــرِيقًا" (الأحزاب الآية 26)

كما ركز على نفس مثير الظاهرة السابقة في البيت الثاني لإثبات حالة الذعر واليأس والتشرد التي سببها العدو الدخيل في أعماق نفوس الشعب الجزائري، وتتضح قدرة استيعاب مفدي أكثر للنص القرآني، عندما نجده قد جمع أربع سور* في أبيات معدودة، عند قوله :

وفـــي صحرائنا جنـــات عدن	بـــها تنساب ثـــروتنا انسيابا
وتحت خيامها، انبجست عيون	لها "هاروت" قد سجد احتسابا
وتحت خيامها، انبجست عيون	أسالت من فـــم الدنيا، لعابـــا
وإنّـــا أمّة وسط، نصـــــافي	مـــودتنا الأولى قالوا صوابـــا
وخضناها (ثلاث سنين) دأبا	فأصبحنا من التحرير، قابـــــا(1).

وهذا تنوع دليل يبين شدة إعجابه بالنص الموروث، الذي تحول إلى نسيج في تدفق الذاكرة، يهدف من ورائه التعبير عن معاناته واظهار قوة بيانه، وتحقيق الصورة الطبيعية الفـــريدة من نوعها فوق أرض الجزائر.

إن الدارس للمعجم القرآني في شعر الغربة عند مفدي زكريا، يلحظ للوهلة الأولى شغفه وتمسكه بالإرث الاسلامي قراءة وحفظا، فهو النهج القويم الذي سلكه في مسيرة معاناته الطويلة، حيث تجلت الغـــربة الروحية والفكرية واضحة بارزة في قصائده، وتـــكاد تكون السمة الفـــريدة في شعره " لا تخلو أية قصيدة - تقريبا- من ألفاظ وتراكيب قرآنية يستخدمها الشاعر مع استيحاء

---

* القـــرآن الكريم : سورة البينة الاية 8 ، سورة البقرة الآية 102 ، سورة يوسف الآية 47 ، سورة النجم، الآية 9 . **وأيضا ينظر** : مفـــدي زكريا : اللهب المقدس ص21- 23- 29- 31- 44- 105- 273 للإفادة.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وقال الله)، ص ص ص34، 40، 41

معاني آيـــاتها وقصصها أحيانا، وفي الغالب مجـــردة من مضمونها المحدد للتعبير عن مضمون جديد للشاعر يختلف من مكان إلى آخر في درجة إبتعاد عن (جو) الآية واقتـــرابه منها "[1].

لقد كان مفدي زكريا كما شهد له العديد من الدارسين والنقاد، في مقدمة وطليعة الشعـــراء الجزائريين التقليديين المتأثرين بالقـــرآن الكريم لغة ومعنى، فكان النموذج الرائـــد عنده المحتذى والمعين الوافر المعبر عن معاناته الروحية والفكرية، وعن آلام غربته المريرة داخل السجون، بحيث تفردت هذه الأخيرة عن أي إنتاج شعري جزائري، في إبراز ظاهرة الغربة، وعند استعمال الألفاظ والـــدلالات والصيغ القرآنية.

3- المعجم اللغـــوي التقليدي في شعر مفدي زكريا:

تمثل ظاهرة الحماسة اللغوية في شعر الغربة عند مفدي زكريا، حقيقة عرف بها منـــذ نعومة أظافره، تفتحت على المبادىء الاسلامية من قرآن و فقه، ثم تدرجت إلى دراسة الأدب العربي القديم، والتـــزود بشعر فحوله، حيث ارتوت وتشبعت قريحته بأشعارهم التي كانت ثمرة زفـــرات في الحياة، ونتاج فكرهم فوق البسيطة، فراح مفدي زكريا يحاكي – نهجا عليها – الشعراء القدماء في جزيئات قاموسهم اللغوي الخاص، ويمكن أن يكون معين معجمه اللغوي فترة العصر العباســـي، نظرا لاسماء الشعراء الذين اعتمدهم وحاكاهم أمثال المتنبي، أبي تمام، البحتري، إبن الرومـــي وأبي فراس الذين ظل معجمهم اللغوي العربي التليد الفصيح، معتمدا ومتداولا في قصائده بحماس ولهفـــة وحب منقطع النظير.

إن ظاهرة الحماسة والمباشرة عند الشاعر كانت من أبرز الخصائص التي عـــرف بهـــا شعره، مما دفع بقصائده العديدة الى أن تفتقد إلى عناصر فنية هامة، ويرجع ذلك كما يرى الدكتور صالح خرفي إلى " متطلبات هذه الأخيرة - القصيدة- وحاجتها إلى صوت يبعث الحماس في نفوس

1- **يحي الشيخ صـــالح** : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص371.

ضمن الفاظ وعبارات هي إلى ميدان المعركة أقرب منها إلى عالم الوجدان والعـــاطفة "[1].

إن هذه الظاهرة الفنية، وهذا الاتجاه لا ينطبق على شعر مفدي زكريا في تلـــك الفتـــرة الاستعمارية الرهيبة القاسية فقط، بل يمكن أن نقول إنها تنطبق على أغلب شعر الشعراء الجزائريين الذين عايشوا تلك الأوضاع المأساوية، وعانوا من ويلات الظلم والغربة " فـــإن معظمهم قد آمنوا بأن مواكبة البطولة، ومتابعة المناسبات لتخليدها وتمجيدها كـــانت أكثر ضرورة من تطوير الإطار الشعري أو تجديد التعبير فيه فغرق أكـــثرهم في البلاغة الجماهيرية، معرضين في شعرهم عن التأمل الداخلي الذي يساهم في إعطاء الثورة أبعادا فكرية جديدة ...فكان الشعر بمجمله تمـــرّدا موثّبـــا وهجوما على المحتل الظالم السفاح"[2].

إن المتمعن في طبيعة اللغة الشعرية التقليدية في قصائد مفدي زكريا يلحظ أنه كثـــيرا ما يلجأ إلى أسلوب الصنعة وما يتطلبه هذا الأسلوب المعتمد، من لغة مناسبة مباشرة وحافلة بالخطابية في آن واحد، يعبر من خـــلاله عن غربته ومعاناة ومـــآساة شعبه، مما يجعل بعض قـــصائده، تبتعد - إلى حد ما- عن اللغة الشعرية المنشودة، ومن أمثلة هذه المواقف النفسية والفنية التي تنتاب الشاعر وتناثره هنا وهناك بين سطور قصائده، والذي يشبه فيها محاكاة القصيدة العربية التقليدية بكل ما تملكه من خصائص غنية معروفة، قوله عندما يستنجد في غربته الفريدة، بلغة فحول الشعراء القدماء بظاهرة الحماسة :

هـــذا (نوفمبر)، قم! وحيٌ المـــدفعا   واذكر جهادك و السنين الأربـــعا
و قل الجزائر! ..واصغ إن ذكر اسمها   تجـــد الجبابر ساجدين وركعـــا! [3]

فالشاعر في البيت الثاني، يمكن أن يكون قد أعجب أو تأثر الى حد ما بالشاعرالجاهلي عمرو بن كلثوم في قوله المشهور:

1- **صـــالح خرفي** : أطلس المعجزات، (المقدمة)، ش و ن ت، الجزائر، 1974، ص ص 5-6
2- **نور الـــسلمان** : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 401
3- **مفـــدي زكريا** : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك)، نظمت بزنزانة رقم 375، بسجن البرواقية، 1958، ص ص 57-58

إذا بلغ الفـــطام لـــناصبي تخـــرُّ الجبابـــر ســـاجدينا[1]

ومما يؤكـــد تأثر مفـــدي زكريا في لغته الشعـــرية هذه، بالمعجم اللغـــوي الجاهلي، هو إحساسنا بصعوبة النطق، عند قراءتنا لكثير من الكلمات التي يوظفها في شعره بسبب تنافر حروفها.*

كما أن مفـــدي زكريا كثيرا مايشحن قصائده ببعض أسماء الأماكن والأعلام التي يحولها إلى لافتة إعلامية، وهذا العمل الشعري مبعثه الثقافة العربية التقليدية التي نهل من حياضها.

إن المتتبع للخصائص الأساسية للغة الشعرية عند مفدي زكريا، يلحظ أنها في مجملها وعمـــومها، تتصف بمميزات عديدة أبـــرزها، الدقة والجرس الموسيقي والقـــوة، والفخامة لأن مفدي زكريا قد رفض، وبكل ما أوتي من قدرة و قوة، لغة الشعارات والنـــدوات التي لا تنبعث من أعماق الذات المعذبة المغتربة، ولا تدرك أبعاد الحقائق المتناقضة، فيقول :

وتعقد باسم السلم للحرب ندوة يصرفها السمسار (بالعملة الصفرا)[2]*

فهو يعلي رفضه صراحة " سياسة المماطلة واستهتار الطغاة بحق الشـــعوب في المحافـــل الدولية غير منتجة، ولا يرى في الشعارات التي تحملها الأمم كالعدل والسلام، إلا خرافة يضحك بها القوي على أذقان الجماهير الضعيفة، ويذريها الرماد في أعينهم، ليحلل لنفسه الآثام والإعتداء، وكان مفدي زكريا لا يرى الشعار إلا الصورة المنقلبة، فيرى الظلم في العدل، ويرى الحرب في السلم "[3].

1- التـــــــبريـــزي : شرح القصائد العشر، مطبعة المدني، القاهرة، 1965، ص322 .

* **ما شابه هذه الكلمات** : مصقع، تضعضع، لعلع، شلعلع، و قد وردت هذه الكلمات في قصيدته المشهورة ، " إقرا كتابك" مفدي زكريا : اللهب المقدس ص ص ص ص 57، 60، 65، 66.

2- مفـــدي زكـــريا : اللهب المقدس، (فلا عز .. حتى تستقل الجزائر !)، نظمها أثناء زيارته لبنان، 1961، ص312.

*المقصود "بالصفراء" الذهب الأصفر.

3- أحـــمد رحمـــاني : لغـــة القوة في شـــعر مفدي زكريا، مجلة الضاد، معهد الآداب واللغة العـــربية جامعة قـــسنطينة، العـــــدد 6-7، أكتوبر 1983، ص18.

هذه النظرة الحزينة المتألمـــة، مبعثها الحقيقي إدراك مفدي زكريا لحقائق الأشياء وأبعـــاد الآراء والأفكار الإستعمارية التي تعرض على مسرح الحياة، فيقول رأيه بكل صراحة ووضوح :

والعدل زور، والسلام خـــرافة   لغة، تحلل بـــاسمها الآثـــام
فلتكتب الأقلام، سفر هناتكم   للعالمين وتنطق (الأفـــــــلام)
ولتشهد الأكـــوان أقدس ثورة   للحق حارت دونها الأفهام..! [1].

نلحظ أن مفدي زكريا، قد اعتاد في شعره، ولا سيما الثوري منه، أن يسير على هذا النهج والفهم، باللغة المجلجلة الصاخبة، فلا تقرأ فيه إلا الرفض لوسائل التحذير اللينة، ولكنه عندما يرفض يحضرالبديل، على أن يكون في كل الحالات يحمل القوة والعنف[2].

فيندفع كالبركان، قاذفا حمم الألم والغضب والثورة على أعداء الحق والحرية، مزلزلا دعائم الباطل في كل مكان فوق الأرض وعلى رؤوس الهمم العالية، ليراها أعداء الانسانية فيقول :

ولعلع من (شلعلع*) ذو بيان   فانطق فـــوق (جرجرة**) الجعابا
وشبت من ذرى(وهران) نار   رآهـــا (برج مدين***) فاستجابا[3].

فمفدي زكريا، بهذه اللغة الشـــاعرية الحزينة الحادة، وبهذا البيان اللفظي القاطع، شبيه في يراعه بالمحارب في ساحة الوغى، لا يمكن أن ننتظر منه الأناقة والزخرفة الفنية، فهو يلبس لبـــاس الميدان الخشن، وتدفعه إلى ساحة الوغى، حالته النفسية التعيسة الغاضبة، فلا يمكن أن تقرأ في شعره

1- مفدي زكـــريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، بنت الجزائر : أهوى فيك طلعتها، ص 46

2- أحمد رحـــماني : لغة القوة في شعر مفدي زكريا، ص18.

* **الشلعلع** : جبل في الأوراس بالجهة الشمالية لمدينة باتنة .

** **جرجرة** : جبال القبائل الكبرى، سلسلة الأطلس ، ص ص 31-32

*** **برج مدين** : كناية عن مدينة **تلمسان** التي تضم ضريح الصوفي الشيخ **شعيب أبو مدين** .

3- مفدي زكـــريا : اللهب المقدس، ص ص31-32.

إلاّ لغة الرفض لوسائل التخذير، فما علينا إلا أن نتفهم حالته، وأوضاعه ونعفيه من طلباتنا الجمالية الكثيرة، فهناك ما ينوب عنه في واقع العمل الثوري الملموس[1].

ويقدمها مفدي زكريا ناصعة مدورية صريحة، أن اللغة السورية والمناسبة الدامغة في وقته التعيس، هي اللغة التي تعيد الغريب إلى أهله ووطنه، وترسي قـــواعد العدل في الكون، هي لغة القنابل ودوي المدافع وأصوات الـــرصاص المتناثر، وفي زمجرة الأبـــطال، حين يشتد الصدام والقتال في ساحات الوغي فيقول :

لغـــة القنابل في البيان فـــصيحـــة	وضعت لمن في مسمعيه صُمـــامُ
بـــلادنا بيد (الكُلاصِ)* خلاصها	هيهات يجدي (مجلس)**وخصام
و(لـــوافح) النيران، خير(لوائـــح)	رفعت، لمن في ناظـــريه ركـــام
و(روائح) البارود، مسك نـــوافج	سُجرت، لمن في منخريه زُكـــام
والحق، والـــرشاش إن نطقا مـــعا	عَنَتِ الوجوه، وخرت الأصنام ![2]

هذه لغة شعر الغربة والثورة عند مفدي زكريا لمن يرغب الفهم أو الدراسة، فهي اللغة الشعرية التقليدية، التي عبرت بصدق عن معاناته الحادة، وغربته المركبة الطويلة، داخل غياهب دهاليز السجون، وبعيدا عن الوطن، غريبا عن الأهل والأحبة، مبعدا عنوة عن الديار.

فاختار لظاهرة حزنه وغربته، اللغة المؤثرة النابعة من أعماق عوالمه الباطنية، وأمطرهـــا حمما قاتلة، ضد أعداء الحرية والإنسانية، لغة تتسم بقوة البيان والدلالة، ذات وقع مؤثر في النفوس. لغـــة قادرة على نقل عوا لم النفس الحزينة الجريحة الدامية الضائعة، ترسل ذبذبات الآهات وصـــدى

1- **عبد الرحمان حوطش** : شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1971 ، ص451.

* **الكـــــلاص** : كلاش : باللغة الروسية، كلمة أجنبية، معناها آلة حرب.

****مجلس** : مجلس الأمم المتحدة.

1- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص ص 44-50.

الزفرات، التي تنبعث نيرانا في النفوس الحية، وتنثر فيهم الحماس، وتأجج العواطـــف، وتحي فيهم بقايا الشهامة، و تدفعهم الى التضحية، لذا جاءت هذه اللغة التي اعتمدها مفدي زكريا في قصائده الغنائية النائحة، تحمل رسالة منابعها ذاته المغتربة، قد شحنت" بالألفاظ الجزلة ذات الرنين الضخم، والجلبة القوية، فهي تملأ السمع وتثير الإنتباه بقوتها، وصريرها، ولعل للمواقف الحماســية والنضال السياسي الذي كرس له أغلب شعره، تأثيرا مباشرا على تمييز لغته بهذه الميزة، ولعله كـــان يختارها عن عمد وإدراك لأدواته، واستجـــابة لمواقفه الشعورية، فإن شعرا يتسم بالحماسة والثورة، لا تليق به الألفاظ الرقيقة الهامسة، بقدر ما تليق به لغة تملأ الأشداق وتقرع الآذان"(1).

لقد رفض مفدي زكريا أسلوب الليونة و سلوك المداهنة اللغوية، مع الدخيل المحتـــل، وأحضر معه السلاح البديل الوافي الشافي، كهذا الذي تمثله (الكُلاَصُ) والنار والصفائح، فتخـــرس كل ذي صوت، وتشل كل ذي حركة، فيقول :

السيف، أصدق لهجة من أحرف كتبت، فكان بـــيانها، الإبْهـــامُ
والنّار، أصدق حجة، فاكتب بها ما شئت، تصعق عندها الأحلام
إن الصحائف، للصفائح أمـــْرها والحبْرُ حربُ، و الكلام كـــلام
عزٌ(المكاتب)، في الحياة(كتائب) زحفتْ، كأن جنودها الأعـــلام*
خيرُ المحافل، في الزمان جحـــافلُ رُفعت، على وحداتها الأعـــلام**(2).

والمتمعن لسياق النص الشعري، يلاحظ أن مفدي زكريا، قد تناثرت أبيات قصيدة أبي تمام بين أبيات قصيدته الشهيرة (وتعطلت لغـــة الكلام) التي تمثل مـــأساة الشعب عندما خـــذل في حقه أمام العالم، حيث وظف " السيف أصدق أنباءا من الكتب"(3).

السيف أصدق أنباءا، من الكتب في حده الحد بين الجـــد واللعب

1- **محمـــد نـــاصر** : المحافظة و التقليد في الشعر الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 40، السنة أوت - سبتمبر 1977، ص71

***الأعـــلام الأولى** : تفيد الجبال الشامخات.

****الأعـــلام الثانية** : تعني الرايات الخفاقة

2- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص43..

3- **أبـــو تـــــمام** : الديوان، المركز العربي للبحث و النشر، القاهرة، ب ت، ص7.

هذه الجملة المؤثرة، المعبرة عن الغضب الكبير، ومرارة الموقف، إذ سقط في فضائها اللغوي، فراح يسبح في محسناتها البديعية، المواكبة لغربته وحزنه، والمعبرة بصدق عنها، وذلك باستعماله ألوان الجناس، كما يظهر جليا عند قوله : لهجة وحجة، صحائف وصفائح، حبر وحرب، مكاتب وكتائب، محافل وجحافل، لوافح و لوائح.

وفي ظلمته وغربته المحتومة، ينفض مفدي زكريا يديه من الحبر والورق، كأنه ليس بالشاعر الأديب، حين يرى في دم الأحرار الحروف التي لا تمحى، والأصداء التي تخترق الصمم، معلنة أن الحق المهضوم، والظلم المستديم، لا يؤخذ إلا عن طريق التضحية بالدم الغالي فيقول :

حقوقنا، بدم الأحرار نكتبها   لا الحبر، أصبح يعنينا، ولا الورق[1]

ولا يتردد الشاعر من أن يسبغ العظمة والألوهية على آلة القتل والدّمار، آلة الرشاش مزيلة الحسرة و العبودية عن المكبلين بالحديد والقهر، فيسجد له سجدة التقدير والإجلال والتبعية الدائمة، لأن الدنيا لا تعرف الراحة والانسان فوقها السكينة، إلا عندما يسمع هتاف أصوات نيرانها تتعالى، واتبعها الشاعر بعبارات مدوية مجلجلة، وضمنها بجرس موسيقى حاد صاحب يفي بقوة الانفعال ويبرزه بدقة، فيقول :

وتكلم الرشاش، جل جلاله..!!   فاهتزت الدنيا، وضج النّير
وتنزلت آياته، لهابة   لواحة، أصغى لها المستهتر
والنار، للألم المبرح، بلسم   يُكوى بها العظْم الكسير، فيجبر[2].

وبناء على هذا يتضح أنّه على الرغم من استمرار لغة الغربة والثورة والغضب، في قصائد مفدي زكريا والذي يمثل المنظور التقليدي في شعره، إلا أنه وبتأثير من الظروف والمواجهة التي أفرزت هذا النوع من الانفعال الشعوري والشعري، والتي تتسم بالحسرة والألم والغربة،

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، نظمها في الظلام بعد عذاب شديد من طرف الزبانية، 1955، ص 28
2- المصدر نفسه : (وتكلم الرشاش جل جلاله !!)، ذكرى احتلال الجزائر 1830-1959، ص 134

والعنف والقوة في أكثر الأحيان، فإن بعض قصائده، وجدت ذريعة وإلتزاما للإتكـــاء على ما في اللغة من طاقة سماعية، ذات أصوات إنفجارية، وقادرة على الإمتداد هنا وهناك لتحمل احتجاج الشعب وغضبه، ورفضه المطلق للواقع المفروض عليه [1] إن المتتبع لطبيعة اللغة الشـــعرية وخصائصها ومميزاتها في التيار الوجداني بالمقارنة مع اللغة الشعرية عند مفدى زكريا، الذى يمثـــل التيار التقليدي، يلحظ من قصائده العديدة ، أن معجم شعره اللغوي قد تطور كثيرا، إذ أصـــبح التعامل مع هذه اللغة عنده، خاضعا لذلك النهر الهائل الذى يروى الحياة كلها ، المتدفق من النفس* دون التقيد بالمواصفات والأنماط الكلاسيكية التي شاع استعمالها عند الشعراء المتـــاثرين بـــالمعجم المحافـــظ[2] .

إن اللغة الشعرية التي كتب بها الوجدانيون، كانت في مجملها نابعة من أعماق الإحساس الذاتي، الملون لمآسيهم و غربتهم وصورهم بلونهم المميز الفريد، والمبعد بينهم و بين الأنماط المعتادة المألوفة في الشعر الكلاسيكي، وبسبب هذا التغير والتحول من النمط التقريري إلى النمط الذاتي، إبتدع الشعراء الوجدانيون لأنفسهم " معجما شعريا جديدا يعتمد - في الغالب- على ألفاظ شفافة......ترتبط بإيحاءات نفسية و وجدانية عديدة، أكثر من ارتباطها بدلالات مادية محدودة"[3].

ومن ملامح اللغة الشعرية الرومانسية الوطنية الحزينة المغتربة، والتصويرية المجسمة لأغوار الأحـــاسيس الـــدامية، ما تنفس به مفدي زكريا لـــهيبا، وكأنه الهمس الأليم، الذي هو أبـــعد عن الصخب المعتاد في أشعاره، عندما وصف هذه الظاهرة الرهيبة، حيث يقول :

1- عبد الرحمان حـــوطش : شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، ص438.

* **ينظر :** المرجع نفسه، ص658.

يرى عبد الله الركيبي بأن" الاتجاه الرومانسي عند الشعراء الجزائريين، لا يمثل رؤية معينة للطبيعة او الاسلوب، إنما يشبه هذا، فهم يحسون بواقع سيء، فيثورون عليه، كما ثار الرومانسيون، و يلوذون احيانا بالطبيعة يتغنون بها، و لكنها ليست تلك الطبيعة المثالية او (الام الرؤوم)، و انما هي طبيعة الوطن، طبيعة الحضارة، و لكنه حب يترع الى الاشارة بالوطن و تقديسه، فهي وطنية رومانسية ان صح التعبير يلتجيء اليها الشاعر لانه يائس من واقعه، من حاضره، يائس من العدل و الحاكم الاجنبي، فيلتمس العزاء في طبيعة بلاده التي يضاعف من جمالها، بطش الاستعمار، و من ثم اختلط الحديث عن الطبيعة، بالحديث عن الوطن، و بالحزن عليها او على النفس"، ص658 .

2- عبد الله الـــــركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص.658

3- عبد القـــادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط3 ، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص16.

قـــام يختال كالمسيح وئيـــدا   يتهادى نشـــوان، يتلوا النشيـــدا
يا "زبـــانا" أبلغ رفـــاقك عنا   في السماوات، قد حفظنا العهودا
كل من في البلاد أضحى"زبانا"   و تـــمنى أن يـــموت"شهيدا" !!
أنتـــم يا رفاق، قـــربان شعب   كنتـــم البعثَ فيه والتجـــديدا !!
فـــاقبلوها ابتهالة، صنع الرشـــ   ـــاش أوزانها، فصارت قصيدا !!
واستريحـــوا إلى جـــوار كريم   واطمئنوا، فـــإننا لن نـــحيدا !![1].

" تمثل ألفاظ القصيدة معاناة الشاعر الحزين، اليائس عن رد المكروه عن رفيقه زبانة لذا جاءت ألفاظ القصيدة بإيحاءاتها وأنغامها وصورها، مصدر تفجير هذه الأحاسيس في أعماق الملتقى الذي لا يشعر وهو يقرأ مثل هذا الشعر سوى بالعفوية المتأثرة الحالمة، وكأنه في عوالم الرومانسيين"[2].

وبعـــد هذا الفحص الوجيز، يمكن أن نوجز القول : إن اللغة الشعـــرية التي صـــادفتنا في المعجم الوجداني، بالمقارنة مع مثيلتها في المعجم التقليدي المحافظ، قد نمت و تطورت في قصـــائد مفدي زكريا، وتحددت مناهجها، ويبدوا ذلك واضحا في توجهه الى الطبيعة، وإلى عوالم الـــذات خاصة لاستنباط لغة جديدة، تعبر بصدق عن غربته وآلامه المختلفة، وفـــــق تنـــوع مشـــاعره، واختلاف خلجات أحاسيسه واضطراباته، بعيدة عن لغة التراث التليد، حتى وإن حاول التمســـك بنهجها، في بعض الأحيان، لكن ما لبث أن عدل عنها بعد التطور الذي حدث، فغير- إلى حد ما- من نظرته الى الشعر، لعوامل وأسباب مستجدة في واقعه اليومي، و ظروف حياته القـــاسية.

وعلى العموم، فإن هذا التغير أو التطور- إن صح التعبير- الذي طرأ على لغة الشـــعر عند مفدي زكريا، كان من نتائجه البارزة، تحويل المعجم الشعري عنـــده من الطـــابع التقـــريري إلى الطابع التصويري، المجسم بدقة للمشاعر الحزينة والأحاسيس الدامية والعواطف الجياشة المتقطعة.

1- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص ص ص 9-11-19.
2- **محمـــــــد ناصر** : الشعر الجزائري الحديث، ص324.

ثانيا : الصورة الشعــرية

إن تشبيه الشعـــر بالتصوير، ظـــاهرة فنية قديمة في النقد العـــربي، حيث تحدث أبوعثمان الجاحظ عن هـــذه الظاهرة، عندما تعرض في استخـــداماته لكلمة التصوير فأورد قـــائلا: " فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير "(1).

وهـــو النهج- تقريبا- الذي سلكه في "الصناعتين" أبو هلال العسكري حين أرشد إلى" حسن الأخذ "، فقال: " أن المعاني مشتركة بين العقلاء، فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي و الزنجي... وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليقها ونظمها "(2).

وقد يبدو أن أعظم ناقد عربي، وقف قديما مليئا عند موضوع الصورة الشعرية، هو عبد القاهر الجرجاني، فهو عندما تصدى لهذا المصطلح قـــال: " ومعلوم أن سبيل الكلام التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب، يصاغ منهما خاتم أو ســـوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النـــظر في صوغ الـــخاتم وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة – كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه، وكما أننا لو فضلنا خاتما علىخاتم، بأن تكون فضة هذا أجود أو فصه أنفس لم يكن تفضيلا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام، و هذا قاطع فأعرفه "(3).

فأنت تلحظ أن المـــعاني عنده، هي مراد الشعـــر، وأن المـــعاني لا تؤثر في قيـــمته، بل التي تـــأثر فيها ألفاظه أو صورته، وعليه المعول في الحكم له أو عليه.

1- **أبو عـــثمان الجاحظ : الحيوان**، (تحقيق)، عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ط3 ، ج3، بيروت، 1969 ، ص132 .

2- **أبوهلال العسكري : الصناعتين**، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتـــب العلميـــة، بـــيروت، مطبعـــة العجالـــة الجديـــدة، 1981، ص217.

3- **عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز** ، شرح محمد عبد المنعم خفاجي، نشر مكتبة القاهرة، 1969، ص ص255-256 .

وعلى العموم، فقد عالج النقد القديم، موضوع الصورة الشعرية، معالجة تتناسب مع ظروفه التاريخية والحضارية، وكان اهتمام النقاد بدراسة الصورة الشعرية، يكاد يطغى على إهتماماقم الأخرى كاللـــغة والموسيقى، ولـــعل ذلك راجع إلى أهميتها البـــالغة في القصيـــدة، كما يرى " كولورج " " أن الشعرمن غير المجاز، يصبح كتلة جامدة، ذلك لأن الصورة المجازية جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة"[1].

كما نجد أن النقد القديم قد اهتم، بالتحليل البلاغي للصورة القرآنية، ولتمييز بين أنواعها و أنماطها المجازية، والتركيز على دراسة الصورة الشعرية عند كبار الشعراء[2].

كما حرص على موضوع الإثارة التي تحدثها الصورة الشعرية في ذات الملتقى، حيث قارن هذه الإثارة بنوع متميز من اللذة والألم، والتفت- إلى حد ما- إلى العلاقة والصلة الوثيقة بين الصورة الشعرية، على اعتبار أنها احدى خصائصه النوعية، التي تميزه عن غيره، عـــلاوة على ذلك، فإن الصورة كانت تفرض نفسها على النـــــاقد، وهو يحاول تتبع ما حققه الشعـــراء من اختراع أو ابتكار أو ابداع، وبذلك يكون النقد القديم عبر قرونه الطويلة، قد قدم مفاهيمه المتميزة التي تكشف عن تصوره الخاص لطبيعة الصورة الفنية، وأهميتها ووظيفتها، من تحليله البلاغي للنصوص الشعرية والقرآنية[3].

ولا حاجة بنا الى استعراض كل ما قيل في الصورة الشعرية، لأن معظم التعريفات والدراسات تقترب من مفهوم الأمريكي" إزراباوند " حين قال أنها : " تلك التي تقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن"[4].

1- **اليــــزابيت درو** : **الشعر**، كيف نفهمه و نتذوقه، ترجمة محمد ابراهيم الشوشي، مكتبة ميمنة، بيروت، 1961 ، ص59.

2- **المــــرجع نفسه** : ص63 وما بعدها.

3- **جابر أحمد عصفور**: الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي، دار المعارف، مطبعة القاهرة الجديدة، ب ت، ص ص5-6.

4- **عز الدين اسماعيل** : التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، دار غريب للطباعة، ط4، القاهرة ، 1977، ص63.

والصورة الشعرية لا تنفصل عن اللغة لأنها :" انبثاق عن اللغة ومـــعنى هذا أن الصورة لا تتقرر بمحض الصدفة، بل تولد من جهد الشاعرالفنان على وفق انتقائية دقيقة تقررها الخصال الشخصية لأنها عميقة الجذور في التجربة المحسوسة"[(1)].

كما ظلت الصورة الشعرية تفرض شروطها على النقاد وهـــم يحاولون جاهدين تتبع ممرات ما حققه الشعراء من ابتكار أو ابتداع.

1- الإتجاه التقليدي الوجداني في شعر مفدي زكريا:

لقد عرفنا فيما نثر سابقا، بأن ثقافة مفدي زكريا تقليدية، وكان معينه الأساسي، التراث العربي بكل ما يتضمنه من مقومات وخصائص، هذا التراث العظيم الحافل بالفنون المتعددة، والحضارة الغنية بالمآثر، كان أهم مصادر شعره وفكره، فإن الحديث عن الصورة الشعرية في هذا الإتجاه، يتناول المصادر نفسها التي وظفت واعتمدت، في ابراز طبيعة اللغة الشعرية وملامـــحها في ظاهرة الغربة عند مفدي زكريا : وخاصة القرآن الكريم، ثم ذكر بعض أعلام الشعر العربي القديم.

2- أثر القرآن الكـــريم في شعر مفدي زكـــريا:

وفيما يخص القرآن الكريم، فهو المصدر الأول والأساسي الذي نهل من حياضه مفدي زكريا، فقد استلهم من آياته الكريمات مختلف الصور واستخرج من معانيه المؤثرة ألوان التعابير الشعرية" فهو يعتصر ما في المفردة القرآنية من دلالات نفسية بعيدة، قد لا يدرك كنه أبـــــعادها سوى الملتقى الحافظ للقرآن الكريم"[(2)]. إلى درجة استخدامه لألفاظه، وتوظيف تعابيره، إلى حد أن هـــذه الظاهرة الفنية أضحت متكأ يستند عليه بناء قـــــصائده، وإبراز آهاته وغربته وثورته.

ويمكن أن نرجع ذلك والى وعيه الديني المبكر، وادراكه وقناعته التامة، بأن لغته العـــربية غنية لا نظير لـــها من النـــاحية الفنية والبلاغية، فهي لغة قد ملئت بشتى أنواع الإيحاءات،

1- جاشتويا شـــلار : كتاب الأقدام، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة و الاعلام، بغداد، 1980 ، ص.29

2-محمد ناصـــــر : مفدي زكـــــريا شاعر النضال و الثورة، ص113.

وأن صوره بليغة ودقيقة ومؤثرة في النفوس قبل القلوب، وهي الأداة المناسبة والمحببة والمفضلة لتأدية أسلوبه القوي، بالاضافة أن آيات القرآن الكريم واضحة، لذا جاء القرآن الكريم " يعبر بالصور المحسة المتخلية عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الاإنـــساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يـــرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهبي هيئة أو حركة، وإذا النموذج الانساني. شاخص حي، وإذا الطبيعة البشـــرية مجسمة مرئية، والمتتبع للصورة الشعرية المأخوذة والمستلهمة من آيات القرآن الكريم"[1] وفي قـــصائد مفدي زكـــريا نجدها في شكل أساليب متنوعة ووفق استخدامات متفاوتة في السطحية والرمز وعند التلميح والتصريح.

ومن أبرز الصور التي إستلهم منها مفدي زكريا، الآية القرآنية، التي تعبر عن غربته وحنينه إلى بيئته الأصلية "الصحراء"، وطبيعتها الفـــريدة المملوءة بالـــذكريات، ومرتع الصبا ومساكن الأهل والأحبة، متغنيا بفضائها الرحب، وجمالها، وهو حبيس موثق في سجن "البرواقية"، فجاءت زفراته تحمل صور المتناقضات التي تعزز ظاهرة الغربة والاغتراب معا فيقـــول :

وفي صحرائنا، الكبرى، كنوز نطارد عن مواقعها الغُرابـــا
وفي صحرائنا، تبر، وتمـــــر كلا الذهبين : راقَ بها وطابا
وهـــزّت مريم العذرآ نخيـــلا فأسقطت الفلوذج و الرضا با[2].

هذه الظاهرة اقتبسها مفدي زكريا من القرآن الكريم، عند قوله تعالى : " **وَهُزِّ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**" (مريم الآية 25)· إذ تمثل مفدي زكريا الصورة دون أن يصوغها بما يلائم وضعه الحزين، لأن الصورة في الآية الكريمة توحي بالأمن والإطمئنان – رغم حالة العذراء المضطربة الحائرة أمام الحدث العظيم – ولكنها ظلت في أبياته الشعرية مجرد إعجاب بالنص القرآني. اقتبسه ليدلل به علىحالته المغتربة الحزينة، على حنينه للوطن المسلوب المحتل، دون أن يكون

1- سيد قـــــطب : التصوير في القرآن الكري،م دار الشروق، القاهرة، ب ت، ص 32.
2- مفدي زكريـــــا : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، ص ص33-37.

للآية أثر يذكر في توجيه الصورة الشعرية التي جاء بها، كما نجده في موطن آخر يقترب من التصوير الجيد حين يقـــول :

و رسالة صاغ (الشهيد) بيانــها و زكا بها، في الخالدين (عصام)
أسرى بها من "بربروس" خـــياله و هفت به لحماكـــم الأحلام
و القلب، بالأنات يقطع بحـــرها دقّاته: الأوزان، و الأنغـــــام (1).

فهو استمد لحنينه إلى أرض الكنانة مصر، هذه الصورة الحزينة، التي اقتبسها من الآية القرآنية الكريمة عند قوله تعالى : " **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**"(الإسراء الآية 1)

ومن خلالها عبر عن معاناته، واشتياقه، عما يعانيه وحيدا داخل السجن من وحـــشة بين جدرانه، ونفس معذبة، تتطلع اشتياقا إلى مصر التي يناشدها أن تخلصه من آلامه وغربته.

وهناك العديد من النماذج الشعرية، التي استوحى من أجوائها وأفنانها، آيات القرآن الكـــريم والتي تبرز دلالات ألـــفاظه، هذا التنفيس الذي حل محل الكبت فدحضه، عند قـــوله وهو في حالة غضب شديد وثورة، معٌددًا ألوان العذاب والمآسي التي لحقت بالشعب الجزائري من طرف العـــدو الدخيل الفرنسي، وأن ســـاعة الخلاص قد دقت، وأن لغة البيان قد تعطلت وحل محـــلها لغة أخرى هي :

نطق الرصاص، فما يباح كلام! و جرى القصاص، فما يتاح ملام!
و قضى الزمان، فلا مرد لحكمه و جرى القضاء، و تمت الأحكام...
و سعت فرنسا للقيامة، وانطوى يوم النشور، و جـــفت الأقـــلام
ما للقيامة، في الجزائر أرعدت ؟ فغـــدا لها في الخـــافقين غـــمام؟
لا النار، لا التقتيل، يثني عـــزمه لا السجن، لا التنكيل، لا الإعدام!

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام..)، ص52

لا الذاريات، الماحقات، هواطـــلا لا الشامخات، تدكها (الألغام)
لا القاصرات، الغافلات، كواعـــبا ديت قداستها، و فضّ ختـــام[1].

فالشاعـــر قد أعطى للدلالة القرآنية- كما هو وارد و وأضح من ســـياق شـــعره- ، منطلقا له دلالة جديدة رمزية، ولكنها مستمدة من الأولى، فكلمات مثل القصاص، القيامة، النشور، النار، الذاريات، الغافلات والكواعب، كلها لها دلالتها الدينية العميقة، المؤثرة المعروفة في القـــرآن الكريم، إلا أنها في هذا النص الشعري على عكس ذلك، فإذا كانت كلمة مثل الذاريات التي يراد بها في القرآن الكريم الرياح العاتية أو العاصفة، فإنها في البيت الشعري عند مفدي زكريا، تعني الطائرات المقاتلة المدمرة، وهكذا يقاس باقي الكلمات.

ويستنجد مفدي زكريا في سجنه ووحدته الطويلة، بآيات القرآن الكريم، ليستمد منها قوته، في شكل صور بيانية حزينة، عن طريق الاقتباس، فيوظفها في شعره، خاصة عندما يصف ليلة أول نوفمبر1954، الليلة المباركة التي انطلقت ساعة الصفر فيها، أول رصاصة معلنة بداية العـــد التنازل لمظاهر الغربة وألوان الظلم والجهل والتشريد والقتل والقمع والإضـــطهاد، لتضـــع المحتـــل الدخيل، وسنين القهر والإبادة حدا فاصلا، فكانت هذه الليلة العظيمة، بالنسبة للشاعر المضـــطهد المعذب، بعثا جديدا، شبيه في وقعه وحدته بليلة القدر المباركة التي أنزل فيها القرآن الكريم، على نبيه خير الآنام (ص) هدى ورحمة، ونهجا يخرج الناس من الظلمات والظلم، الى رحاب الخـــير والمحبـــة والعدل والسلام، وتنفيسا لمكبوتات المظلومين المستعبدين، فيقـــول :

دعا التاريخ ليلك فاستجابـــا " نوفمبر!" هل وفيت لنا النصابا؟
وهل سمع المجيب نـــداء شعب فكانت ليلة القـــــدر الجـــوابا؟

1- **مفدي زكريـــــا** : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام ..)، ص ص ص 42-44-45 .

تـــبارك ليلك، الميمـــون نجما	وحل جلالـــه، هتك الحجابـــا!
زكت و ثباته عـــن الف شهر	قضاها الشعب، يلتحق الســّرابا
تنزل روحها، من كل أمر...	بأحرار الجـــزائر، قد أهـــــابا[1].

نلحظ من خـــلال هذه الأبيات الشعرية، أن الشـــاعر قد دعـــته الضرورة الـــمعنوية إلى الاستنجاد" بالجملة القرآنية، ما دامت هذه الجملة موزونة عرضا، ليجعلها شـــطرا أو بعـــض شـــطر في شعره، وفي ذلك تحقيق للهدف المعنوي والتنغيم الموسيقي، والشاعر زكريا يلجأ إلى هذا التوظيف في المـــواقف العظيمة، والأحداث الجسام، التي يخيل إلينا فيها بأن التاريخ يتوقف لحظتها جلالا وروعة "[2].

لقد هام مفدي زكريـــا عشقا، بظاهرة الإسراء التي وردت في القرآن الكـــريم، كمـــا أحب كل آيات ســـورة القـــدر، والتي أوردها كاملة تأثـــرا وإعجابا، لأن أياتها تضمنت حركية معاناته الداخلية بدقة، وسايرت مواطن إنفعالاته بصدق قال تعالى : " **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ومَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَـــدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّـــهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**"(سورة القدر الآيات 1،2،3،4،5)

ويقارب مفدي زكريا، واصفا عزم وإقدام أبناء الجزائر من المجاهدين البواسل، عند بناء صوره الشعرية، وهم يجتثون من ديارهم جذور البؤس والظلم، الذي سلطه عليهم العدو الـــدخيل، وإصرارهم على العودة الى بلادهم وتحريرها من القيود وتحطيم قلاع الاستعمار ومدارسه، يقـــول مفدي زكريـــا :

بشباب، تخشى لقاه المـــــنايا	ونفـــوس، لا تعرف الإحجامـــا
ونسور، مثل الصواعـــق تنقـــّ	ض فتذروا المستعمرين حطامـــا[3].

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، ص ص 30-31.

2- **محـــمد نـــــاصر** : مفدي زكريا، شاعر النضال و الثورة، ص.118
3- **مفدي زكريـــــا** : اللهب المقدس، (يوم الخلاص)، في ذكرى عيد استقلال تونس، 20 مارس 1956-1961، ص 210

فهو قد اعتمد على صوره الشعـــرية، وعمل على إظـــهار ما تتضمنه من مـــعاناة، ومن قـــوة وصبر واقـــدام، على آيات القرآن الكريم، التي اقتـــبسها لأبـــياته الشعـــرية، عند قوله تعالى : " **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح، و كان الله على كل شيء مقتدرا".(الكهف الآية 45)**

فهو قد شيد بناء الصورة الشعرية التي نثرها في البيت الثاني من الفعل " يـــذرو" كما هو الحال في الآية القرآنية الكريمة.

ويبدع مفدي زكريا في ابراز الصورة الشعرية المأثرة المغتربة، في اقتباسه من القرآن الكريم، عندما يرافق في حسرة وألم، وزهو وكبرياء وشموخ وتجلد، رفيق دربه في غربته داخل غياهب السجون، إبن الجزائر البار الشهيد أحمد زبانة، وهو ينقاد إلى مقصلة الشهادة، مواجها الموت بكل شجاعة وتحدي ونكران للذات، متقدما ثابتا متحديا غطرسة الزبانية القائمين عليها، أعـــداء الحرية والانـــسانية، ومن بين الأيـــات القرآنية الكريمة التي وظفها مفدي زكريا لهذه الصورة الرهيبة الشعرية، والظاهـــرة الإنسانية المآساوية، في قصيدته الشهيرة الـــخالدة خلود الحق فوق الأرض " الذبيح الصاعـــد" إذ اقتبس عبارة " وأقض يا موت في ما أنت قاض" أو كما ساغها شعرا عند قـــوله :

" أشنقوني، فلست أخـــشى حبالا   واصلبوني، فلست أخشى حديدا"
"و اقض يا موت فيّ ما أنت قاض،   أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا"[1]

وجاءت دعائم الصورة الشعرية التي اقتبسها، مفدي زكـــريا من القرآن الكريم، عند قولـــه:" **قَالُوا لَن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا**" (طه الآية 72)

1- **مفدي زكـــــريا** : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص10 .

عندما آمن السحرة برب موسى عليه السلام، وعندما أدركوا سر فعله، وتـــبين لهـــم البرهان العظيم، أيقنوا أن فعله مصدره حق، وأن رسالته ومعجزته حق، إذ تحداهم في سحرهم فلم يستطيعوا عليه ردا، فتوعدهم فرعون بالعذاب الشديد، عن طريق الصلب الى جذوع النخل، وقطع أرجلهم وأيديهم من خلاف، فلم يثنهم ذلك التهديد وألوان الوعيد على التراجع عن إيمانهم برسالة ربهم، أوالضعف والركوع لغير الله، وكـــذلك كان الأمر بالنسبة لشهيد الحـــق والحريـــة أحمـــد زبانة الذي آمن بربه ووطنه وبحقه في العيش على ظهر الأرض حرا كريما، فلا الصلب ولا الشـــنق والتعذيب المتواصل داخل السجون، يثنيه عن المطـــالبة بـــحقه، أو يـــوقفه عن النضـــال والكفاح من أجل عزة وطنه، وبناء على هذه الظاهرة البائسة، أسس مفدي زكريا الصورة الشعرية الموافقة، ومقتبسا معالمها الأصلية من الآية القرآنية الكريمة السابقة الذكر، وكان مفدي زكريـــا مـــن بـــين الشعراءالذين كانوا أكثر توفيقا في استغلال صور القرآن الكريم واستيحائها بالإعتماد على التكثيف والتركيز والإبتعاد عن التفسير*، ومنح المتلقي فـــرصة الإكـــتشاف والمعايشة الوجـــدانية وربـــط هذه الصور بحالاته النفسية، واستغلال الطاقة التعبيرية في المفردة القرآنية، ووعي الـــدلالات المختلفة التي يتوفر عليها المشهد القرآني وإشـــاراته، وبناء صور فنية من مفردات لا تثير في أصلها أية صورة شعرية، إلا ما يحاول الشاعر إيجاده وتوفيره ببراعته الفنية.

يمكن أن نوجز أن مفدي زكريا قد تأثر في صوره الشعرية بآيات القرآن الكريم، ويعود ذلك إلى ثقافته التراثية العربية القديمة، التي تلقاها منذ نعومة أظافره، كما ترجع في أصولها إلى تلك التربية الاقليمية التي ثقفها وتعودعليها منذ صباه، ثقافة تراثية عربية إسلامية أصيلة.

3- أثر الشعر العربي القـــديم في شعر مفدي زكريا :

يمثل الشعر العربي القديم الرافد الثاني، ومصدرا حيا يستقي منه مفدي زكـــريا الصورة الشعرية، بعد القرآن الكريم، إذ تأثربقصائده تأثرا كبيرا، حيث اتخذ لقصائده منه، تارة شكل اقتباس

---

* **ينظر : محمد ناصر بوحجام** : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، (1925 – 1976)، ج2، ط1، المطبعة العربية، غردايـــة، الجزائـــر 1992، ص 378 وما بعدها.

أو تضمين، وأخرى تكون على شكل استيحاء للجو العام لهذه القصيدة، أو في المعنى والمبنى، وأحيانا أخرى تأتي الصورة الشعرية عنده، على شكل إشارة إلى صورة شعرية في بيت ذاعـــت شـــهرتها، وكثرترديدها على الألسنة.

وحين نبحث عن الصورة الشعرية الحسية في زاوية الإتجاه التقليدي، عند مفدي زكريا نجدها قد تقشبت لباس الحزن والمعاناة والغربة، وهو يستحضر لآهاته وآلامه العديدة، مـــن معـــين التراث الشعري العربي، الظاهرة المناسبة المؤثرة والمعبرة عن هذه الأوجاع، فيأتي - مثلا - أبي تمام عند قصيدته المشهورة " فتح عمورية"* فيعمد إلى نسج صورته الشعرية، وفق ظلالها ومعاناتها، وأبعادها النفسية فتكون قصيدته الخرساء" وتعطلت لغة الكلام"....

والذي يهمنا في هذه القصيدة بالخصوص أن مفدي زكريا، قد أتى بما قصده أبوتمام* قي افتتاحيته المعروفة(1).

إذ أنه قدم لنا الظاهرة والفكرة نفسها في الصورة الشعرية عدة مرات، حتى وأن جانبت بعض الشيء من حيث معمارية النص وهندستها اللغوية، فإن الانفعال والإضطراب النفسي يتلاقيان في النص الشعـــري، ويـــبرز أن قـــوة المثيـــر، أمـــا الصورة الفنية فهي في عمومها تكاد تكـــون هي في مطابقتها للأحداث، ومواكبة للإضطرابات النفسية، وحتى لا نكرر النص الذي قدمناه، عند تعرضنا الى طبيعة اللغة الشعرية، ونكتفي بذكر البيت الشعري الذي قلد فيه مفدي زكريا أبي تمام، حيث يقـــول :

السّيف، أصدق لهجة من أحرف كتبت، فكان بيانه، الإبهـــــــام(2)

كما يوجد في قصائد مفدي زكريا إشارات متطابقة من ناحية الشـــكل والمضـــمون والصورة الشعرية، فها هو يعمد إلى التعبير عن مكانته الاجتماعية عندما يجد الجد، فهو يشبه موقف أبي نواس من قومه، مستعيرا أحواله البائسة، وظروفه المعقدة، وما أصابه في ســـجنه مـــن ويـــلات العذاب، والاحساس بالغربة المضنية، فيقـــول :

---

* **مطلع القصيدة قول أبي تمام : السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد و اللعب .**

1- الـــوناس شـــعبان : تطور الشعر الجزائرى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ت، ص 106.

2- مفدي زكريـــــا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص 43 .

سيذكرون، إذا الليل الـــرهيب سجى وجـــلجل الخطب، أنّي في الدجى فلق
حسبي وحسب أناسي، أن غدوت لهم عـــودا، يعطِّرهم، ذكـــــري وأحترق[1].

فهذه الصورة التي رسمها مفدي زكريا داخل لوحته الشعرية المغتربة، تحمل بصـــمات إنفعال الشاعر أبي فراس الحمداني في وحدته وغربته، عندما يقـــــول :

سيذكـــرني قومي إذا جد جدهـــم وفـــي الليلة الظلماء، يفتقـــد البـــدر[2].

فنلاحظ أن الصورة الشعرية التي رسمها مفدي زكريا، هي التي جسمها أبو فراس، بغض النظر عما تعج به من إشارات ودلالات فنية جديدة، فهو كالبـــدر الذي يمضي ويتوارى في الليلة المظلمـــة، بينما نجد مفدي زكريا يكتفي بتشبيه نفسيته المعذبة، بالعطـــر المعطر تـــواضعا، الذي لا ترتقي أهميته إلى أهمية البدر تقـــديرا وعرفانا، عند ضياعه وفـــقدانه.

كما أن عبارة" **ذكرى وأحترق**" عند مفدي زكريا تفيدنا بالحالة النفسية الحزينة الغريبة التي تحترق من أجل مبادىء مقدسة لا تمحى مع الأيام، عكس المبالغة اللغوية التي وظفها أبو فراس في عبارة " **يفتقد البدر**" ومع ذلك يمكن أن نقول، إن مفدي زكريا في تعبيره هذا يكون قد وقـــع تحت تأثير الضرورة الشعرية، حيث عمد إلى هذا التعبير- حتى تستقيم له القافية- فأوصله إندفاعه هذا إلى أن يكون في خدمة الصورة التي حاول الشاعر نسجها على غرار صورة أبي فراس الحمداني، وبالتالي يمكن القول أن مفدي زكريا شاعر تقليدي توفرت لديه المقدرة على الجمع والتنسيق لفـــن الأولين الذي لا تخلو منه قصيدة في قصائده العديدة، حيث حملت أشعاره بعض مصطلحات فنيـــة للمعجم الرومانسي الذي كان ممزوجا بغربة وحسرة الشاعر، كما أن الصورة الشعرية عنده " ظلت تعمد على الاقـــتباس والنقل للأشياء، ثم أنها في الأســـاس صور تقليدية جاهزة استوحاها مفـــدي

1- مفدي زكريـــا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص 29 .
2- أبو فراس الحمداني : الديوان، دار صادر، بيروت، ب ت ، ص15.

من النمط القديم الذي ظل مخزونا في ذاكرته، وهي في عمومها لا توحي إلا بمعان مكرورة مجتـــها الأذواق"(1)

أما الصورة الشعرية عنده في الاتجاه الوجداني، فهي تأتي في قصائده عادة وليدة الشعور الذاتي المضطرب، وهذا بإعتبار أن موطنها بواعث الانفعال، التي تعد مصدر التجربة الشعرية، كما أن للعاطفة دور أساسي في خصوصيات ومميزات هذه الصورة، لكون العاطفة طاقة شحن وإمـــداد للعمل اللغوي والتصويري والموسيقي عند الشاعر الرومانسي بكل ما يجعل صوره الشعرية الملتحمة مع انفعالاته النفسية تتسم بالصدق الفني والحيوية لأن العاطفة جزء لا يتجزأ من شخصيته وشعوره وتفكيره(2).

ويعتبر مفدي زكريا من عداد الشعراء الجـــزائريين القلائل الذين نجحوا في نقل معاناتهم وتجربتهم الـــذاتية إلينا بذكاء حاد وعبقرية منقطعة النظير، رغـــم الظروف الصعبة، وما تعرضوا له من بـــطش داخل غياهب السجون، وبعيدا عن الوطن في ديـــار الغربة، فقـــد استـــطاع مفدي زكريا أن ينقل إلـــينا بعض الصور الرهيبة التي سلطها عـــليه الزبـــانية، ثم صور في غربته الإنفرادية داخل زنزانة العذاب رقم 73 تصويرا أنموذجيا لحالته النفسية الحزينة المشحونة بإنفعالات الغربة والإشتياق إلى ديار الأحبة، إذ مزج في قصيده ألوانا عديدة لظواهر مركبة بناها الإنفعال، وحققتها النفس المتألمة البائسة، فجاءت مملوءة " بالحنين وبالشكوى، بالتذكير وبالتطلع، والعاطفة الوطنية وبالعاطفة الذاتية"(3) .

لـــذا يعمد - مضطرا- الى توظيف تشبيهات حسية متتالية في صوره الشعرية، فنجده في غربته داخل السجن، إذ يعمد إلى ما يسمى بالحال في الشعر العربي، فحاله كحال الليل، وحب سلوى مثل حب الله، وأنفاسها كالصهباء، ويكتفي في مثل هذه الصور بالربط بينه وبين من يماثله ربطا موجزا سريعا، لأن هدفه الايقاع القوي، كهذه الظاهرة المغتربة التي خاطب فيها حبيبته معذبا وحيدا من وراء القضبان، فيقول :

1- **أعـــزوز شعيب** : الاتجاه القومي في الشعر المغربي الحديث، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط1، 1988- 1989، ص288 .

2- **محمـــد ناصـــر** : الشعر الجزائري الحديث، ص499 .

3- **المرجـــع نفسه** : ص ص 22-25

سلوى، حديثك يا سلوى، يباغمني والطرف يختان،لايدري به الحدق
أنفاسك الطهر، كالصهباء تغمــــرني دفئا، ويسكرني من فرعك العرق[1].

فهذه الصورة الشعرية التقليدية، القائمة على تماسك علاقات حسية مثل الرشف والثغر والعرق والأرق، إنما هي صور شعرية منقولة بدقة عن مناظر سلوكية مبنية على رؤية الأحـــــداث في علاقاتها بالأشياء، وهي تعمل على ايضاح مركبات الفكرة، أو الصورة وبيانها، ونمذجيتها، وغاية الظاهرة المعذبة المغتربة، هي نقل نفس المشاعر والانفعالات عند تقاربها وتشابهها و توافقها وتلاقيها فيقول محترقا غربة واشتياقا إلى أهـــله :

سلوى! أناديك سلوى! هل تجاوبني سلوى ؟؟ فإن لساني باسمها ذلـــق
سلوى! أناديك سلوى! مثلهم خطأ لو أنهم أنصفوا، كـــان اسمك الرمق
هل تذكرين، إذا ما الحظ حالـــفنا إليك أهـــتف يا سلوى، فنتفـــق ؟
أم تذكرين، ولحن المـــوج يطربـــنا إذ نفرش الرمل في الشاطىء ونعتنق؟
أنفاسك الطهر، كالصهباء تغمـــرني دفئا، ويسكرنـــي من فرعك العرق
سمراء! خدُّرها الباري، وصورهـــا إن ارتشف ثغرها، يفتك بي الأرق[2]

بين سطور هذه المقطوعة المشحونة بالأرق والغربة والشوق القاتل، إنها أبيات نارية، لا تنزع الإنتباه، والاعجاب والاشفاق فحسب، وإنما تنزع برؤيتها الفنية التي تستخدم هذه اللغة الشاعرية، الصور الايحائية العفوية المتأثرة إلى حد بعيد بعوالم الرومانسيين[3].

أما إذا أردنا تتبع، الأبيات الشعرية وما تحمله من صور وظواهر، نثرت داخل الأبيات الشعرية، فإننا نصادف أحاسيسًا، ومناظرا للظواهر الطبيعية، وصورة وصوت" أبو القاسم الشابي" تتناثر هنا وهناك بين أبيات القصيدة، وتنساب زفراته الحزينة تحمل الكلمات بعيدا إلى أعناق السماء

1- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص 25
2- **المصدر نـــفسه** : ص ص 22-25

3- محمـــــد ناصر : مفدي زكريا شاعر النظال و الثورة، ص 126 .

" وكأنها تتصاعد لاهثة من أعماق "بربروس " أو ساحات الإعدام ولكنها تنطلق من الأودية والسهول الخضراء، ومزمار الراعي، لا من سلاسل السجن، وصرخة الشهيد، فالصباح الجديد، والثغر الباسم، والملاك والطفل، والخلاخل المزغردة، والأناشيد المهدهدة والفضاء البعيد والفجـــر والغســـق، والانسياب في ملكوت الله، أليست أقرب إلى الأودية والهـــضاب منها إلى زنزانة العذاب؟ أليست أصـــدق على الشاعر التـــائه على الشاعر السجين "[1]. **.....**في عرف الـــرومانسيين؟ وفي انفعالاتهم الروحية و الفكرية؟**.**

ومفـــدي زكريا عندما يميل إلى إبراز الصورة الشعرية ويفضلها، إنما يعمد الى ذلك لكي " يوفر للنص الشعـــري عنده إيقاعـــا قويا، فهذه خصيصة من خصائص مفدي يلجأ إليـــها في الحزن والغربة وفي الضعف والقوة والفرح، وهي لا شك بلاغة موروثة، كما أنها تعبر إلى حد ما عن تلاقي غربته وغربة غيره ممن أخذ عنهم الصورة أو الفكرة، بالرغم أنها لا تضيف كثيرا للتعبير الشعري في مثل المواقف الذاتية التي تتحاشى البلاغة البهرج والتلاعب بفن القول، فهذان العيبان يلحقان الأذى بالحقيقة الطبيعية الداخلية، ويبعدان الفن عن طابع العفوية"[2]**.**

التي تصادف المرء في مثل وحدته القاسية والطويلة، كما أنها تتصف بالتكامل لما تحمله من ظواهر عديدة، رغم قلتها في التركيز على أصول الظاهرةالمسببة للانفعال الحقيقي، كما أنـــها في الأساس صورة شعرية تعود الى خلفية ثقافية وبلاغية تقليدية جاهزة، في فهم الصورة الشعرية التي تفيض على نسيج القصيدة، ظلت مخزونة في بواطن وعوالم ذاكرته**.**

ثالثا : الموسيقى الشعرية طبيعتها و شكلها

لقد اهتدى الانسان البدائي إلى الموسيقى، وهو في حركته محاكيا الظواهر الطبيعية المختلفة والمشكلة بمظاهرها وصورها العديدة، عن طريق الأنغام والأصوات التي أفرزتها الـــذبذبات داخـــل محيط الأرض، الذي يعيش فيه الكائن، والذي يسمى عند البعض بالحـــيز أو المكان، هذه

1- صـــالح خـــــرفي : الشعر الجزائري ، ص 237.

2- عبد الفتاح صالح نافع : عضوية الموسيقى في النص الشعري، مكتبة المنار، ط1، الأردن، 1985، ص 35.

الذبذبات المجتمعة والمركزة، والتي تحدث ضرباتها المتصادمة في الكون، أصواتًا وأنغامًا، تدغدغ المشاعر الانسانية، وتبعث الحبور في المحيط الكوني وترسل ايقاعات عديدة، وألحانا عذبة تدفع إلى الانفعال واهتزاز أوتار القلوب، ولعل السر في أننا نستجيب حركيا وإنفعاليا للموسيقى استجابة تكاد تكون فطرية غريزية، أن النفس الانسانية ليست في حقيقة الأمر، إلا جزءًا صغيرًا، وذبذبة من مركبات هذا الكون الفسيح، الذي تشمله حركة منتظمة موقعة(1) .

وهناك دلائل دامغة وشواهد قاطعة، دالة على أن الكون وما يجري بداخله من أجرام مــركبة سابحة في فضائه الرحب، قائم على نظام محكم وايقاع موسيقي دقيق، لقــوله سبحانه وتعالى : " **وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ، وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ، لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ، وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** " (يس الآيات 37-40)

وعندما كان الفلك يدور في حركة دقيقة منتظمة موقعة، فإن أجسادنا أيضا تشابه وتناظر هذه الأفلاك السيارة، فهي عبارة عن نبض وحركة وإيقاع مستديم، وما ضربات القلب عند الكائن الحي، وما خلجات الروح عنده، وما حركة اليدين والرجلين، وما غمض العين وانتباهها، وما يقظة الانسان ونومه إلاّ نوع من الموسيقى الموقعة، كتلك التي نشاهدها في دوران الفلك، وانتظام الفصول واختلاف الليل و النهار"(2).

إن المراد من وراء هذا "التمهيد" والتوطئة، هو أن ظاهرة الموسيقى، تعد لغة فعالة، نفثت في عوالم الكون، لأن تكون مساكنها الأصلية القلوب، واستقرارها الكامل أعماق الوجدان. كما يراد من ورائها- أيضا- إدراك هذه الأجراس والنغمات التي تأتي على درجات من القوة والشــدة، أو الضعف واللين، أو السرعة والبطء، إدراكا واعيا و فهما دقيقا سليما، وما يترتب عن ذلك من" الصفات التي تصحبها آثــار وجدانية وألوان عــاطفية، من نــشاط أوفــتور، وحــزن أو سرور،

1- محمد زكي العشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1974، ص185 .
2- المــــرجع نفســــه : ص185.

وثبات أو اضطراب، إلى غير ذلك من ألوان وأنواع اليقظة النفسية التي تجيء عن طريق حاسة السمع والحواس الأخرى التي تتصل بها وتتأثر بمؤثراتها وتدور في فلكها"[1].

وكل هذه الصفات المجتمعة تؤول بالموسيقى إلى التأثير التلقائي في مركبات الجهاز العصبي، لما هنالك من علاقة وثيقة بين الأصوات وتأثير الأعصاب، " فيتحول ما ينبعث من النغم، من رنات إلى مؤثرات في الأوتار العصبية للإنسان، فتسري فيها الإهتزازات و تصل إلى مركز الحي، فتوقظ العواطف وتثير الكامن من ضروب الإنفعال، وتبعث في النفس إطارا تبدو فيه مظاهر مختلفة من المعاني و شتى التصورات"[2].

1- المـــوسيقى الشعريـــــة :

.بمرور الزمن وتقادم الأحوال والأحداث، أصبحت الموسيقى الشعرية عنصرا إلزاميا هاما من عناصره الأساسية، وأداة من أعظم الأدوات التي ينشيء على دعائمها الشاعر هندسة بناء قصائده، ثم هي من ناحية أخرى، تمثل المعيار الحقيقي من المعايير التي " تميز الشعر عن النثر وإن لم تكن هي المعيار الوحيد بينهما"[3].

والموسيقى الشعرية التي نود الوقوف عند مظاهرها الإغترابية الحزينة، هي هذه الموسيقى الشعرية التي تبعث فينا عند سماعها " ميلا غريزيا في كل كلمة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار أو تسمعها الأذن فتلتقطها كتلا من المقاطع تطول أو تقصر، فإذا ترددت في آواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع بعينها شعرنا بسهولة ترديدها، وأحسسنا بغبطة وسرور، حين سماعها، و بعث هذا فينا الرضا والاطمئنان إليها"[4].

عند هذا ندرك أن الموسيقى في الشعر لها مكانة هامة وأكثر من ضرورية، لأنها"ليست زخرفة خارجية تضاف إليه، بل هي وسيلة من أبرز وسائل الإيحاء وأقدرها على التعبير عن كل ما هو عميق وخفي في عالم النفس وفي أغوارها، مما لا يكون في وسع ومقدرة الكلام التعبير والإفصاح

1- **عبد الحميد حسين** : الأصول الفنية للأدب، مكتبة الانجلو-مصرية، القاهرة ،ط2، 1964، ص23 و ما بعدها .

2- **المرجـــــع نفسه** : ص23 و ما بعدها.

3- **على عشري زايد** : عن بناء القصيدة العربية الحديثة، دار الفصحى للطباعة و النشر، القاهرة، 1978، ص162.

4- **إبراهيم أنـــــيس** : (موسيقى الشعر)، مكتبة الانجلو-مصرية ، ط5، القاهرة، 1981، ص11.

عنه، ولـــهذا فهي من أقوى وسائل الإيحاء تأثيرا وسلطانا على النفس وأعـــماقها تأثيرا فيها، بل هي من بنية الشعر لدى أية أمة من الأمم "(1).

أما الشعر العربي القديم، فقد نشأ نشأة غنائية موسيقية، أخذت من الظواهر الطبيعية والظواهر الحيوانية، خاصة الإبل، وعلى نماذجه الشعرية الغنائية التليدة، أسس العروضيون قـــوانين أوزانـــهم، وبذلك تعزز شأن الموسيقى الشعرية، وإزدادت القيمة الفنية المعقودة عليها "لأنها تحينا بالكلمة، وتقرب الألفاظ إلى نفـــوسنا وترسخ الأبيات في أذهـــاننا، فنطرب لسمـــاعها، ونشوق إلى تكرارها دائما... ولا ريب أن الموسيقى في الشعر هي التي تميزه عن النثر..وحين نقول ذلك فلا نعني أبدًا أن النثر لا يحتوي على موسيقى، فإن فيه موسيقى ونـــغما، ولـــكن موسيقاه تتبع خطا مستقيما، بينما موسيقى الشعر تكرر في حركة دائرية حول نفسها، لأنها تقوم على وزن معين يتكرر طيلة القصيدة"(2).

2 - التشكيل المـــوسيقي :

يمثل التشكيل الموسيقي، باعتباره، الحركة الإيقاعية في موسيقى الشعر، أهم عنصر من مقومات القصيدة الغائية العربية على الإطلاق " لأنه مأخوذ من البيئة، فـــــإنه إلى جانب إلحاح النقاد على هذا العنصر في كل عملية إبداعية، فإن إهتمام الشعراء به يفوق جل إهتمامهم بإعتبار أن الموسيقى هي أهم فارق بين الشعر والنثر"(3).

وإذا تصفحنا الأعمال والدراسات النقدية الحديثة، نلحظ أن معظم النقاد إن لم نقل جلهم في العادة يطرقون " موسيقى القصيدة من بابين مختلفين، وعلى مستويين متباينين هما : مستوى الموسيقى الداخلية، ومستوى الموسيقى الخارجية، وإذا كان إجماع النقاد واقعا على أن الموسيقى الـــداخلية تتاتى من عنصـــرين، هما الوزن والقـــافية، فإن الخلاف بينهم ظل قـــائما حول تحديد

1- **علي عشري زايد** : عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص162 و ما بعدها.
2- **عبد الحميد جيدة** : الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، 1980 ، ص352 .
3- **الشريف الربيعي** : **عبد الكريم العقون شاعرا**، رسالة ماجيستير، "مرقونة"، معهد الآداب و اللغة العربية ، جامعة الجزائر، 1988-1989، ص159 .

ماهي الموسيقى الداخلية والعناصر المكونة لها، وهل هي ناتجة عن تقارب الحروف وتجانسها داخل اللفظة الواحدة، أم عن تآلف الألفاظ داخل العبارة الشعرية، أم هناك شيئا آخر يولد النغم الموسيقي ويعطي جرسا معينا للجملة الشعـــرية؟ ولكل رأيه وحجته التي يدافع بها عما يراه هو عين الصواب"[1]. وعلى أي حال، ومهما تباعدت الأفكار، وتباينت الآراء، وتكاثرت البراهين وصطعت الحجج، وتعـــدت واختلفت النظريات حول هذا الأمـــر أو الموضوع، واحتدى" الصراع الفكري والنقـــدي، فإن النتيجة المقبولة والمرجحة، ترى أن الموسيقى الـــداخلية هي أفـــضل وخير مـــعبر عن التجربة الشعورية وأن الأخيرة لا تدرس إلا على أساس الموسيقى الداخلية للشعر، لأنها هي التعبير الموسيقي الداخلي الوحيد عن عواطف الشاعر، ومعاناته وتجاربه الشعورية والإنفعالية، كما أن الموسيقى الداخلية للقصيدة لا تـــدرك إلا بقراءة الشعر بصوت مسموع، وتختفي عند الإنتهاء من القصيدة، ولا تستعاد إلا بإعادة القراءة مرة أخرى" [2]..

ونخلص إلى أن النغم الذي يوحد بين الألفاظ والصورة، وبين أثر وقع الكلام والحالة الإنفعالية للشاعر، إنما " متزاوجة تامة بين المعنى والشكل، وبين الشاعر والمتلقي. وهي في آخر الأمر تعبير عن الانفعال الداخلي كما توقعه نفس الشاعر، فتتردد نغماتها في أعماقه"[3]

والمتتبع لشعرمفدي زكريا، يلحظ أن شعر الغربة عنده، في معظمه إستمرار وإمتداد للشعر العربي القديم، والذي يهمنا في هذا الغرض هو الوقوف عند طبيعة الموسيقى الشعرية في قصائد الغربة و المعاناة.

3 - موسيقى الشعر في إطارها التقليدي عند مفدي زكريا:

الدارس الحويط، المهتم بموسيقى الشعر عند مفدي زكريا، في إطارها التقليدي يلحظ أن نظرته الموروثة المحافظة، بقيت مرتبطة، بنظرة النقد العربي، الذي يعطي أهمية وأولوية، بارزة إلى جانب الموسيقى في العامل الشعري، كما ظلت نظرته إلى الابداع الشعري تقاس بالمعيار التقليدي،

1- إبـــــراهيم أنيس : موسيقىالشعر، ص14 .

2- أحمد ناصف الجباني : موسيقى الشعر ، مجلة الأقلام، ج4 ، السنة1 أكتوبر1964 ، ص.125

3- عبد الحميد جيدة : الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، ص 354

الذي يفهم الشعر، ويعرّفه على أنه " قول موزون مقفى يدل على معنى، مع مـــراعاته لعناصره الأربعة[1]: اللفظ والمعنى والـــوزن والقافية والتي تمثل الموسيقى عنصرين منهما، هما الوزن والقافية هذه الظاهر، ليست عند مفدي زكريا فقط، بل تكاد تكون ظاهـــرة عامة عند الشعراء الجزائريين التقليديين، والسّر في إعتمادهم الواسع علىالإطار القديم " يكمن في أسباب منها فكرة النموذج القـــديم : فقد عدت هذه القصائد عندهم نماذج فكرية وروحية وفنية، يجب الإحتذاء بها والاعتناء بأصولها وقواعدها، فلم ينظروا إلى التراث نظرة نقدية بقدر ما نظروا إليه في تقديس وإنبهار، فلم يتخلصوا من تأثيره فيهم، ذلك أن نماذجه سيطرت على أذهانهم وعلى ما أنشأوا من قصائد، وغاية الأمر أنهم طوعوا هذه النماذج لأغراض تتفق وظروفهم ومشاكل بيئتهم "[2].

وقد يعود اعتمادهم على النموذج الموروث، الى الحالة الشعورية التي يعانونها حين تضن عليهم بالوقت الكافي لاختيار نموذج مبتكر جديد فيه جهد و عناء، فكان همهم الوحيد صب تلك الشحنات العاطفية التي تبدو في حالة قلق و حيرة، أو مرح وحنين.

كما اشتد حرصهم- على غرار اهتماماتهم بالوزن ودعوتهم الى العناية المفرطة به-على العناية والاهتمام بموضوع القافية " لأنها عنصر بارز في موسيقى الشعر، وقد ألحوا كثيرا على سلامتها، واعتبروا إطرادها عنصرا هاما من عناصر النجاح، وانكروا تعددها في القصيدة الواحدة، ولو طالت، وأعدوا عيوبها أثرا من آثار الضعف في الشاعرية"[3]

وما يؤكد تمسك مفدي زكريا بالموسيقىالشعرية الموروثة، هو اعتبارها قالبا صارما بالغ الأهمية والاحكام والدقة، لا ينبغي تجاوزه، لأن هناك مجموعة من القواعد والالتزامات المطلوبة اللازمة التي يبنى على دعائمها الشكل الموسيقي للقصيدة المنشودة عنده، وإذا كان الإحساس بموسيقى الشعر يولد من إدراك الانسجام الناشىء من تردد ظاهرة صوتية معينة وتكرارها على نمط خاص،[4] فإن الشكل الموسيقي الموروث، نجده في مختلف قصائد مفدي زكريا خـــاصة وشعـــراء

1- علي عشري زايد : عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص16

2- المرجع نـــــفسه : ص 165

3- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص633

4- محمـــد مصايف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ص68.

الجزائر عامة، قد التزم بمجموعة التكرارات، لا تخرج عن الإلتزامات الأربعة :

1- تكرار وحدة صوتية معينة هي " وحدة الإيقاع " التي تتألف مما عرف في العروض العربي بإسم " التفاعيل"، وتتألف التفعيلة من توالي مجموعة من السواكن والحركات عن نحو معين، وقد تكون وحدة الايقاع تفعيلة واحدة وقد تتركب من أكثر من تفعيلة، ومن تكرار هذه الوحدة يتولد الإيقاع الموسيقي الأساسي في القصيدة.

وعـــند الضرورة الشعـــرية يسمح عند تكـــرار هذه الوحدة بتنويع محـــدود ومحكم ينظمه ما عرف في العروض بإسم " الزحاف والعلل"، هذا التنويع المسموح به لا يترتب عليه تغيير جوهري في بنية وحدة الإيقاع.

2- تكرار عدد معين من وحدات الايقاع يؤلف بدوره وحدة موسيقية جديدة مركبة هي"البيت" الذي يتشكل من عدد محدد من "التفاعيل" أو وحدات الايقاع، لا بد من إلتزامه في كل بيت على امتداد القصيدة.

3- تكرار صوت معين أو مجموعة من الأصوات-الساكنة و المتحركة- في نهاية كل بيت، بحيث يلتزم هذا الصوت بعينه- أو هذه الأصوات بعينها- في أبيات القصيدة كلها، وهذه هي "القافية".

4- تكرار ثانوي ليس في أهمية الأنواع السابقة، وصرامتها، وهو إلتزام بتكرار صيغة محددة من صيغ التفعيلة الأخيرة في البيت – وقد سماها العروضيون "الضرب" فإذا جاءت

هذه التفعيلة في البيت الأول على صيغة معينة- سواء أكانت صحيحة أو معتلة- وجب أن تلتزم هذه الصيغة بعينها طوال القصيدة، بخلاف الزحافات التي تعرض لصيغ التفعيلة في حشو البيت فإنها لا تلتزم [1].

وفي حـــقيقة الأمر، أن اهتمام مفدي زكرياء في الاطار التقليدي، بالـــجانب الموسيقي في شعره، لم يتوقف أو يقتصر على الموسيقى الخارجية للقصيدة، بالمحافظة على الإيقاع المتكرر حسب الأنـــماط السالفة الذكر، التي عرفها شعرناالعربي القـــديم، في كل بيت من أبيات القصيدة،

1- **محمد مصايف** : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ص ص 166-167 .

ايقاعا ووزنا وقافية ورويا، انما تجاوزت عنده الى مراعاة التركيب اللغوي للقصيدة- التفاعيل، التكرار التوازي، التنويع، اللازمة.....- أو ما يسمى بالموسيقى الداخلية – سواء تعلق الايقاع بالظلال النغمية الدلالية بمفرده، أم بموضعه في سياق الجملة والمقطع، أم قيامه في النص بأكمله[1].
بناء على هذا التقييم والتقديم، سنعرج إلى دراسة بعض الشواهد الشعرية، المتأثرة بالنموذج التقليدي في البنية الايقاعية عند مفدي زكريا، في ممرات حياته المأساوية الطويلة.

رابعا : الموسيقى الشعـــرية وأثرها التقليدي عند مفدي زكريا

الموسيقى، ظاهرة عجيبة وفريدة في دنيا الناس، فهي مزيلة الأتعاب، ومهونة الملل من أعماق الذات المنكسرة، وهي التي تبث في بواطن النفس الروح والحياة المرحة التي يستوي عليها الشجـــون والحبور. لـــذا أحبها الإنسان منذ الوهلة الأولى، وعرفها في معجمه اللغوي على أنـــها **" مجموعة من الأصوات التي يتألف من ضرباتها الموقعة نغم يلمس المشاعر، ومن إيقاعها لحن يهز أوتار القلوب"** [2]. فجاءت الموسيقى ظاهرة فريدة، ميزت الشعر عن غيره من الفنون العديدة من الأجناس الأدبية، بصفة البقاء والتغرد والديمومة والخلود، لما تحمله – أيضا – في أصولها من صدق الانفعال وعمق التجربة الإنسانية، تجاه الظاهرة وأنواعها – المنعكسة في أعماق الذات المتأثرة، كما يرى مفدي زكريا " إذا ما خلا الشعر من الموسيقى المتجاوبة مع دقات القلب، فقد خلا من عنصر الخلود"[3]، لذا إهتم النقاد بالموسيقى الشعرية، وكانت (القافية) أكبر شغلهم في الكثير من دراساتهم، حيث اعتبروها عنصر بقاء الشعر وخلوده : كما يرى (ابن قتبة) عندما تناولها بالدراسة فقال : " الشعر لا يبيد على مر الزمان، وجرسه بالوزن والقوافي، وحسن النظم، وجودة التحبير من التدليس والتغيير. فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه" [4]، هذا الاهتمام بالقافية في الشعر، مرده إلى وجود ترابط قوي بين تناغم الأثر الانفعالي عند الكائن الانساني، وبين الايقاع الموسيقى.

1- محمـــــــــد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، ص194، ينظر أيضا : **إبراهيم أنيس** : موسيقى الشعر، ص207
2- محمد زكي العشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة، ص 434
3- جريدة الجمهورية الجزائرية :(شاعر الثورة أمام الجمهور) 1984/11/5
4- ابن قـــــــتيبة : تأويل مشاكل القرآن، تحقيق، السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1954، ص142.

1- التنويع في القافية :

الانفعالات والاضطرابات التي تعكس محتوى الحدث، عبارة عن مصادر تنويع القافية في بعض قصائد مفدي زكريا، فهي تبرز كثرة الظواهر الأليمة التي تنعكس من عالمه الباطني، جراء ما ترسب فيها من سلوكات مأساوية تناثرت في مجال المحيط الذي يتلقاه ويتفاعل فيه ومعه، من ذلك قصيدته الشهيرة التي رصـــد فيها مأساة شعب بكامـــله، إثـــر اقـــدام المحتل الفرنسي على تجـــربتها الذرية في الصحراء الجـــزائرية ســـنة 1956، فجاءت قصيدته تحمل ألوان المعاناة، وأبياتها تتضمن مشاهد رهيبة أحدثتها القنبلة في المحيط الطبيعي وشكل الإنسان معـــا، حيث كانت الصور البشعة التشويهية، التي لحقت بأطفال الـــجزائر، وكيـــف رسمتهم في أشكال غريبة تتنافى وصور الخالق في خلقه .. فأدماه المنظر، فصاح ألما وحزنا وثورة على الفاعل الظالم، وإغترابا لفعل الانسان الذي يدعي المدنية والتحضر، في تناقضه وعدم احترامه لغيره من البشر، ومتسائلا في حزن بليغ عن ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء، فيقول :

ما دهاه؟ ويل أمه مادهـــاه ؟؟ ويلتـــاه، من جـــيله ويلـــتاه !!
ما له في الحياة، يولد أعـــمى ؟ لم تر الكـــون، باســـما مقلتاه ؟
ما له مقعدا، يدحرج رجليـــ ـــه؟ .. وماذا جنى، فشلت يداه؟
ما لـــه، لم تزل تهد هذه الأ... مُّ، و لم تستمـــع لـــها، أذنـــاه؟
ما له أخرسا، تناجيه في المهـــ ـــد، و لم تبتســـم لها، شفتـــاه؟
ولـــماذا لم يبك، بين ذراعيـــ ـــها دلالاً،...و لم يقل : أمـــاه؟
آلـــهذا الوجود، جاء وحيدا؟ أم لـــه من زمـــــانه أشـــباه؟
ويـــلتاه من جيلـــه ويـــلتاه! [1]

هذه الصور المرعبة، ضمنها (حرف الهاء) وأعطاه أبلغ الأثر عند السامع، فهو يحمل حالة الاضطراب النفسي الحاد، من تأوه وأنين وجراح، كما أنه حرف جرفي، ضمنه الشاعر حرقته،

1- **مفدي زكريا** : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية!)، قيلت بمناسبة تفجير فرنسا لقنبلتها الذرية في الصحراء الجزائرية، صبيحة يوم السبت 13 فيفري 1960، ص ص 161–162.

وصورا ترفضها الأخلاق والأعراف الإنسانية قاطبة، ثم يربط هذا المشهد الرهيب، بمشهد ثان، جعل قافيته حرف (الألف) للاستغاثة والنداء، وحمله حرف (العين) الحلقي رويا، دلالة على مرارة الموقف ومأساة الحدث، وحتى تتناغم وتتداخل الأجراس الموسيقية المؤثرة، فتتضح أكثر صور المشهد المرعب الغريب.

فيتعجب من قدر هـــذا الطفل، ويتقطع حزنا لما آل إليه شكله وحاله ومصيره المجهول، فيقول :

قـــذفته إلى الحياة، يد المـــو ت، فلم يقض في الحياة ربيعـــا
وسقته السموم، في عالم الغيـــ ب، فرنسا...فجاء شكلا مريعا
إبن إفريقيا الشهيد، وقد خـــ ـــر على مذبح الطغاة صـــريعا
تخذت منه " للتجارب" قـــربا نا، فرنسا، فحطمته رضيـــعا
شوهت خلقه، جريمتها الكبـــ ـــرى : وجرته للخراب سريعا[1]

مشاهد مرعبة حملتها أبيات القصيدة وصدى حرف العين أعطاها جرسا صوتيا مـــؤثرا أظهر الجدة في الانفعال النفسي، وتنوعه يدل على عظمة الظاهرة، وسخط الشاعـــر. ويتابع الشاعر انعكاسات المشاهد الرهيبة، حيث يقدم لنا في المشهد الثالث الصور المأساوية التي تركتها آثار، وإفرازات القنبلة الذرية، على أجسام أطفال الجزائر، فكان حرف (الراء) الروي، معبرا عن قوة الانفعال اتجاه المصاب الجلل، وتأكيدا على عمق الأثر النفسي الدرامي، فيقول :

شبح كالخيال، لم يك بالـــحـــ ي، فيرجى ... ولم يمـــت فيوارى
عاش حيران، في عـــذاب وبؤس بـــين قـــوم، معـــذبين حيـــارى
ظل يسعى، إلى الفنـــاء رويـــدا يـــــائسا، لا يغـــالب الأقـــدارا
طحن الداء جسمه، وأحال السُّـــ ـــقـــم ذراتـــه هـــباء، فـــطارا
نبتت من فـــطامـــه، لـــعنـــات كالصواريخ، نـــقمة وانـــفجارا[2]

1- **مفدي زكريا** : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية!)، ص 162
2- **المصدر نفسه** : ص 162

ثم ينهي الشاعر المشاهد المأساوية، دون أن ينتهي من المعاناة، فنجده قد قيد القافية حفاظا على الظواهر والمشاد الرهيبة، وجعل رويّها ساكنا، ليظهر حالة الرفض والتذمر وعدم الحيلة، أمام هذه المنعكسات المأساوية الفريدة في دنيا الناس، فيقول :

شعب إفريقيا، أحاط به المكـــ ـــر فأمسى للمجرمين، ضحية
ورمته عبر القـــرون، فـــرنسا طــــعمة للقنابـــل الـــذريـــة
وسرى الموت فيه، جيلا فجيلا يـــوم هزت شعـــــوية الحيوية
وسيحكى هذا الزمان، ويروي للبـــــرايا، فضائح، المـــــدنيّة(1)

إن هذا التنويع في بعض قصائد مفدي زكريا، مرده الحالة النفسية المغتربة، التي تصاحبه بإستمرار، وانعكاساتها تجاه الحياة، وشكل من أشكال الإبتعاد عن الرتابة التي تصاحب القصيدة الموحة للقافية المعتادة فالحالة النفسية المنفعلة، تصور رسوم المشاهد المروعة، وتظهر الانفعال الكبير لدى الشاعر، ودقة في اختيار الحروف المناسبة والمؤدية لتيار الإضطراب القوي في أعماق الذات المتأثرة، مما يجعل المتبع لظواهره المأسوية **" يتمهل في قراءة كلماتها تمهلا شديدا يكاد يقف عند كل كلمة، بل عند كل حرف من حروفها وحركة من حركاتها"** (2) المثيرة التي تنقل جزئيات الصور المأساوية للمشهد المقصود.

2- إختيار الكلمة :

ينتقي مفدي زكريا الكلمة المناسبة والمعبرة عن انعكاس مصادر الإنفعال، حتى تؤدي بأمانة الظاهرة المأساوية بصدق ودقة، فالكلمة الدالة على الحدث تبرز وتوضح صور المعاناة عند الشاعر، في مجال العمل الفني، وتظهر قدراته وزاده اللغوي، وتعرض أمام المتبع دون عناء، سرٌ تفوقه وصدق اختياره ونعد إدراكه في تعامله مع الظاهرة اللغوية، التي تعطي في النهاية " الانسجام العفوي

1- مفـــــــدي زكريا : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية!)، ص 165

2- إبراهيم عبد الرحمن : الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية، القاهرة، مكتبة الشباب، 1979، ص 289

الداخلي الذي ينبع من هذا التوافق الموسيقى بين الكلمات ودلالتها حينا أو بين الكلمات بعضها وبعض حينا آخر[1]". فالكلمة عنـــد مفدي زكريا، تحمل بين حروفها الرسالة الصادقة الحـــقيقية إلى القارىء، لأنها تحقق عن طريق دلالتها الغاية المرجوة، والأمنية المنشودة، وتحدث في انـــسجام أجراس موسيقى حروفها الأثر النفسي : لذا نجده في قصيدة*، يضمن الكلمـــة حرف (السنين) الذي ينبعث من مصدر الزفير والمواكب للحركة الإنفعالية المؤدية لظاهرة الغربة والحرقة ... ويكشف للمتتبع عن نفسية الشاعر المضطربة المتأسية، ويتضح ذلك في اختياره الدقيق للكلمات المناسبة، فيقول :

عادني من ظلال أمسك أمسي	بين مـــاضي الأسى وأحلام أنســـي
وشـــجاني من ذكرياتك كون	عـــلوى السمات، أرهـــف حـــسي
نرجسي الهـــوى، ندى التصابي	كـــالأماني الطراب، في ليل عـــرس
خافق الوجد، في حنايا ضلوعي	خـــفقان الجوى، بأعـــطاف قـــس
فتراءت للعين أطياف مـــاض	لم يكن للجراح – في العمق – ينسي[2]

نلحظ أن الكلمات، أمسك، أنسى، مسى، نرجسي، في ليل عرس، يوم نحسي. قد حفلت بحرف (السين) لتـــأكيد الحالة النفسية المتألمة، وتخرج من الأعـــماق الملتهبة شظايا الظـــواهر الراسبة في قاع الذات : وتتأكد هذه الانفعـــالات الحادة في بعض الألفـــاظ، مثل، وشجاني من ذكرياتك، أرهف مسى، نرجسي الهوى، خافق الوجد في حنايا ضلوعي، لم يكن للجراح في العمق ينسى، وتبرز قوة مشاعر مفدي زكريا، وكيف أحيت فيه الذكرى، أحداثا راسبة في ذاته أليمة وقاسية : ونباء على هذا، فإن الكلمة عند مفدي زكريا، تحمل معاناته، لأنها وليدة حالة نفسية مغتربة، إكتنفت الشاعر من خلال ظاهرة مأساوية ما، أو ناجمة من حدث أوقف أليم،

1- **إبراهيم عبد الرحمن** : الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية، ص 263

* **قـــصيدة** : إبن زيدون، (بين الحب والعظمة)، نظمها للمهرجان الذي كان سيقام بالجزائر 1975/10/15.. من طرف وزارة الثقافة، **ينظر** : ديوان من **وحي الأطلس**، ص 148

2- **مفـــــدي زكريا** : من وحي الأطلس، قصيدة : ابن زيدون، (بين الحب والعظمة)، مطبعة الأنباء، المغرب، 1976، ص 148

يبحث من خلاله عن كلمة دقيقة أمنية، لها دلالة معبرة، توافق نظم موسيقى معين وتتماشى والموقف، وتدل على معاناة الشاعر.

إن عناية مفدي زكريا بالكلمة وأبعادها ادلالية غايته المنشودة، التوضيح ظاهرة الغربة وصور المأساة التي يعيشها الانسان الجزائري تحت ظلال الحكم الفرنسي، فجاءت هذه الكلمة سلسلة سهلة دقيقة وناصعة، فيها جزالة بيانية، وفخامة تثير بدوي أحرفها المشحونة بالانفعالات النفسية، إيقاعا فريدا يلحم بين التجربة والتعبير.

3- المعـــارضـــات :

إن ميل الشعراء منذ القدم الى حب المعاضة، وحب إبراز قدراتهم الشعرية، ومعارضة أعمالهم الفنية غيرهم، ظاهرة انسانية قديمة قدم هذا الفن المؤثر فوق الأرض، ومعارضة القصائد العربية التقـــليدية شكلان، معارضة سلبية مقيتة حيث " يكرر فيها الشاعر ما قيل، بنفس التعبير والمعنى، أن يمضغ الممضوغ كما يـــقال، وحاشا أن يوصف مفدي زكـــريا بهذه الأوصاف، أو أن يقال عنه بأنه يكرر الأسلاف حتى وإن سار على سننهم وهو المعـــروف بالتعصب الكبير للقديم (1) ومـــعارضة إيجـــابية ذات إضـــافات عديدة، وشخصية شاعرية واضحة المعالم، إذ يعمد الشـــاعر إلى ميادين" جو أو طقس شاعر سابق، من باب الاعجاب، فقد يعجب أحدنا بجرس موسيقى هذا أو ذاك ويحاول أن يقلده في أجوائه العامة التي هي أصلا مشتركة بين الجميع"(2) .

إن هـــذه الظاهرة ذاع عودها في الشعر العربي الموروث بكثرة، ويمكن أن نرجعهـــا إلى عصور الانحطاط خاصة، التي عرف فيها الأدب العربي مثل هذه الظواهر والخصائص، وهي ظاهرة منتقـــدة في كثير من الأحيان بشدة في الأدب العربي، لما نثر فيها من عيوب وتقليد سلبي، لأن الشـــاعر الذي يقلد أو يعارض القصيدة الموروثة، يلزم نفسه باتباع الممرات الفنية التي كتب على أسسها الشاعر القديم من حيث " البحر والوزن والقافية، كما يصبح مكبلا بنهج الشاعر الذي

1- **بلحيا الطاهر** : تأملات إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص 134

2- **المرجع نفسه** : ص 134

يعارضه حتى في أحاسيسه الخاصة ومشاعره المميزة، فضلا عن أسلوبه في التعبير، وبذلك يصبح مقيدا لا يستطيع أن يرسل نفسه على سجيتها، لأنه ملتزم بالإطار الذي يستوحيه ويعارضه"[1] ويمكن أن نجتز من قصائده، المعارضات التي تمثل ظاهرة الغربة في شعره، والمبرزة للأشكال الموسيقية المناسبة :

أ- الوزن دون القافية :

إن هذا اللون من المعارضات الذي يعتمد علىالوزن دون القافية، نجده كـــظاهرة فنية في شعر مفدي زكريـــا، مركزا عند قصائده المأساوية والثورية، التي تتخذ ظاهرة الغربة وابراز ألوان الألم وأصناف العذاب والوحدة داخل السجن، أوبعيدا عن الوطن والأهل، كقصيدته الدامية الحزينة التي تحمل عنوانا كئيبا " زنزانةالعذاب " التي يرسل من وراء قضبانها هذه الزفرات الحارة التي ملأت حرقة ووحدة، يقـــول :

أنـــام مـــلء عيوني، غبطة ورضى — على صياصيك، لا هم ولا قلق
طوع الكرى، وأناشيدي تهدهدني — وظلمة الليل، تغريني فـــأنطلق[2].

فالشاعر قد أعجب بظاهرة فنية، هي الوزن الذي تضمنه البيت الذي عارض من خلاله أحد أعمدة الشعر العربي أبو الطيب المتنبي عندما قال :

أنـــام ملء جفوني عن شواردهـــا — ويسهر الخلق جرّاها و يختصم[3].

إن ثبوت ظاهرة المعارضة عند مفدي زكريـــا، وبروز أثر المتنبي في البيت الشعري واضح المعالم، هذه المعارضة تجسدت في" شيئين أســـاسيين، في الـــوزن من البحر البسيط- متفعلن فعلن مستفعلن فعلن- ونأكد في الصياغة الرصينة الجزلة التي عمد إليها مفدي زكريا جريا على طريقة المتنبي، وجعلها منهجا له في سجنياته، وغاية، مما أفقدها قدرة التعبير عن حقيقة ما يعـــانيه من غربته وعزلته بين جدران السجن"[4] . وفق صياغة رصينة جزلة، والتي عمد اليها مفدي زكريا نهجا على سنن المتنبي، وجعلها صراطا يمضي على هداه في كتابة سجنياته.

1- **ب. الصـــــديق** : أطلس المعجزات ، (دراسة نقدية)، المجاهد الثقافي، العدد 17، 1971، ص74
2- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص .21
3- **أبو الطيب المتنبي** : الديوان، شرح ناصف اليازجي، دار صادر، بيروت، ب ت، ص 120
4- **عمر بو قـــرورة** : الغربة و الحنين في الشعر العربي الحديث، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1987 ، ص ص 325-326 .

ب - التكـــرار التقليدي:

تعد ظاهرة التكرار من بين التي تؤدي وظيفة تعبيرية واضحة، فتكرار لفظة أو عبارة ما، بشكل أولى الى سيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أولا، ومن هناك لا يفتا ينبعث في أعماق رؤياه من لحظة لأخرى، وقد عرفت هذه الظاهرة اللغوية الإيحائية المكـــررة في القصيدة العربية الموروثة، " منذ أمد بعيد، لم تكتمل وتؤد شكلها النهائي الواضح إلا في العصر الحاضر، لأن ظاهرة التكرار في حد ذاتها ليست ظاهرة جمال يضاف إلى القصيدة العربية، بحيث يحس صنعا بمجرد استعماله، وإنما هو كسائر الأساليب يحتاج إلى أن يجيء في مكانه من القصيدة وأن تلمسه يد الشاعر، تلك اللمسة السحرية التي تبعث الحياة في الكلمات لا بل إن في وسعنا أن نذهب أبعد، فنشير الى الطبيعة الخادعة التي يملكها هذا الأسلوب، فهو بسهولته و قدرته على ملء البيت، وإحداث موسيقى ظاهرية فيه، يستطيع أن يضلل الشاعر ويوقعه في مزلق تعبيري"(1)

وظاهرة التكرار في الحقيقة، تهدف إلى اظهار، وابراز ناحية مميزة هامة في العبارة المكررة، يعني بها الشاعر أكثر عنايته بغيرها، ويمثل هذا الأمر الضابط الأول الممهد البسيط الذي ندركه، كامنا عند كل تكرار يخطر على البال. فالتكرار في الأساس يسلط الضوء على نقطة حـــساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم، هـــو من جهة أخرى يخضع لحملة من القوانين الخفية التي تتحكم في العبارة، ومن بينها قانون التوازن(2) الحاصل في التكرار الذي ينقسم إلى قسمين، أحـــدهما يوجد في اللفظ والمعنى والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ، فـــأما الذي يـــوجد في اللفظ والمعنى. فكقولك لمن تستدعيه (أسرع أسرع) وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك (أطعني ولا تعصني) فان الأمر بالطاعة نهيه "عن المعصية"(3)

وظاهرة التكـــرار في بعض قـــصائد مفدي زكريـــا، المبرزة للمعاناة والغـــربة، هي التي متكأ، والكلمات التي يوظفها عبارة عن مفاتيح لأبواب الانفعال وخروج ألسنة الهبته الداخلية،

1- نـــازك المـــــلائكة : قضايا الشعر المعاصر، ط8 ، دار العلم للملايين، بيروت، 1989 ، ص ص 276-.277

2- ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تقديم و تحقيق و تعليق أحمد الخوف،ي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، مطبعة الرسالة، القسم الثالث، 1962 ، ص3

3- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة في الأدب المعاصر، ص485.

ناحية أخرى، فهو يعتبر هذه الظاهرة ضرورية لما تتضمنه من إيقاعات حركية دفاقة داخل أبيات القصيدة، وهو عنـــدما يعمد إلى" توظيف هذا النمط المـــوسيقي يقصد من ورائه – في العـــديد من المرات- أن يبرز معاناته وآلامه، ويعمد إلى إثارة الحماسة من نفوس المتقاعسين، وشحنة إضافيـــة في عزيمة وقلوب الثائرين، إذ يستفزهم للمسيرة قدما في دروب الجهاد والنضال والقتال، وبذلك يضحى التكرار في قصائده أشبه بتكرار دق الطبول، وتناغم الصهيل تصايح الرجال وزمجرة الأبيات الحربية، ولا يخفى أن الموسيقى التي تصاحب مثل هذا النوع من الكلام، موسيقى حزينة الطبع"[1]

وإذا أردنا أن نقدم حول هذه الظاهرة نماذج من قصائد مفدي زكـــريا، فإنها منشورة في العديد من أشعاره، وتتخذ أشكالا ملونة بلون المثير وما يقابله من مضمون "ومن هذه المفردات اللغوية التي كرر توظيفها، كلمة " الصياصي" التي تعني لغويا، الحصون المنيعة، ولـــكنه يتجاوز هـــذا الاستخدام اللغوي، حين يضعها في سياق ثوري، فتشع بإيحاءات إلى معاني أبعد مما تعنيه دلالتها اللغوية المحددة، وذلك حيث يصف صمود الشعب الجزائري أمام عدة وعتاد الجيوش الاستعمارية.

وزلزل من صياصيها فرنسا... وأوقـــع في حكومـــتها انقلابـــا[2]

و يقول في قصيدة أخرى مستعملا المفردة نفسها :

و زلزل صياصيها بقوتـــك تسامت تشق الغيب في سيرها شقا[3]

" فالصورة الغالبة هنا، الإنتصار للحق في النهاية هي التي يريد الشاعر مفدي زكـــريا إثباتها في ذهن المتلقي"[4].

إن اللغة الشعرية عند مفدي زكريا، ذات جرس موسيقي حاد، يظفي على الكلمة مدلولا سويا، وهذا عن طريق اختيار الكلمة الـــدقيقة المناسبة، ثم يعمد إلى إبرازها وعن طريق التكرار الهـــادف، لإحداث الأثر البليغ لدى المتلقي، وإفضاء تجميع للكلمة وجـــرس الموسيقى، مما

1- **عبد الرحمان حوطش** : شعر الثورة في الأدب المعاصر، ص.485

2- **مفدي زكريـــا** : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، ص 32

3- **مفدي زكريـــا** : تحت ظلال الزيتون، ص .42

4- **محمـــد ناصـــر** : مفدي زكـــريا شاعر النضال والثورة ، ص 113

يكون جرس موسيقي حركي ذا أبعاد نفسية قـــوية مؤثرة يقول :

سمت "منستير" فلتسم الأغاريد وتندفق من حـــناياها الأنـــاشيد
وتبعث البسمة السكرى بزورقها كـــما تعابـــث نشوان وعـــربيد[1]

فإظهار حرف " السين" بين الحروف، وتكراره المؤثر والمقصود، غاية مفدي زكريا لتحقيق الانفعال النفسي المرغوب، وتثبيته في العوالم الباطنية للمتلقي : وإظفاء خط موسيقي مشحون بالحركية المأثرة عن طريق استعمال الكلمات الدقيقة المناسبة.

كما نجده في موطن آخر، يهتم بالظاهرة الحسية، التي توضح بدقة حالة الرعب، وألوان الظلم وآثار الخراب والدمار، التي تحدث في النفوس الهلع، جراء أصوات الصفير التي تنثره مختلفة أليات الحرب، وتلقي به في الظاهرة الحسية من شظايا وأشلاء يقـــول :

وسارت سرايا الجولان تلتقي بجولان عزرائيل في ليلة الأسرا
وتسبق إسرافيل ينفخ صوره فتصعق في سينا لرجفته الصحرا [2]

فقد أعطى مفدي زكريـــا، لإنفعاليته الحزينة، قوة بيانية، وأبرز للجرس الموسيقى النهج المؤثر وجودا قويّا داخل الأبيات الشعرية، وأظفى على الكل رونقا أسلوبيا خلاقا، فقد أفلح إلى حد كبير في اختيار الألفاظ المناسبة التي تؤدي الجرس الموسيقي المؤثر لتحقيق الانفعال وإبراز الظاهرة المقصودة والحالة المرجوة.

ومن يعد الى " **إلياذة الجزائر**" ملحمة مفدي زكـــريا الفريدة من نوعها في دنيا الأدب العربي والجزائري على وجه الخصوص، والتي تتطلب دراسة قائمة بمفردها، لما تتضمنه من تكرار، إذ " ليس من السهل أن تاتي صور(ألف) بيت شعري نسخة واحدة ومشاهد متنوعة، خاصة إذا كانت المشاهد هذه، متنوعة متداخلة والبطولات متعددة، والانـــسجام بين الأحداث قـــائم"[3] ....

1- مفدي زكريـــا : تحت ظلال الزيتون، ص 101

2- المصـــدر نفسه : من وحي الأطلس، ص 243

3- بلحـــيا الطاهـــر : الياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص 132

خالية من ظاهرة التكرار، لأن الشاعر يصعب عليه السير بتوازن لما ينتابه من مشـــاعر مختلفة لظواهر عديدة، لكل منها رصيد من الآثار والصور والمعانات يجانب في كثيرمن الأحيان هذا السير المنتظم، مما يضطره إلى تكرار بعض الإنفعالات والصور التي ترسبت عنده منذ زمن بـــعيد، في شجاعة وكبرياء وشموخ "(عبد الرحمان بن زياد) الذي إستشهد واقفا نتيجة معاندة بينه وبـــين ضابط فرنسي، وأبى أن يركع أمام قدمي الضابط، يتكرر هـــذا المشهد التـــاريخي مع جماعة كبيرة من الثوار، بداية من ماسينيسا الى آخر شهيد"(1).

هذه الظاهرة الإنسانية الأبية المملوءة بالعزة والكرامة، مكررة بكثرة في قصائد مفدي زكريا لأنها جزء من شخصيته، وعشق هذه الظاهرة السلوكية التي يدفعها للبروز دائما في حماساته الخالـــدة، وعن طريق "هـــذا الباب الخفي، دخل ما أسميه بالتكرار في المشاهـــد والصـــور.أمـــا بعض المفـــردات (البطـــولة، السيف، الرصاص، الدم، الموت، التقتيل....) وعشـــرات المفردات الأخرى، نجد بأنها مكررة عشرات المرات، ليس لفقر الشاعر اللغوي أو عجزه في البحث عن ألفاظ أخرى، بل لأنها كلمات مفتاحية لا يستطيع الإستغناء عنها"(2)....

ولو نظرنا الى 'اللازمة' المكررة في " إلياذة الجزائر" على سبيل المثال، بإعتبارها أكثـــر ظاهرة تكرار عرفت في شعر مفدي زكريا، والتي لازمت الملحمة من البداية الى النهاية، و تكررت مائة مرة في الملحمة الشعرية عند قوله: شغلنا الورى. وملانا الدنا.بشعر نرتله كالصلاة. تـــسابيحه من حنايا الجزائر(3) ...

فهذه اللازمة أفضت على ' إلياذة الجزائر' جدارا حصينا أحاط بالملحمة، وأعطاها ألوان الانفعالات القوية المناسبة، وأعادها كل مرة عند تنقله من ظاهرة إلى أخرى ومن حدث إلى حدث آخر. وحافظ بين جدرانه " الأجواء الحماسية العامة للنص، وكانت 'اللازمة' تلجم الشاعر من حين لآخر على أن لا يترك مجاله، وتبقي على النفس العام لجو البطولة"(4)

1- **بلحيا الطاهـــر** : الياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص ص 132-133
2- **المـــرجع نفسه** : ص .132
3- **المـــرجع نفسه** : ص 102
4- **المـــرجع نفسه** : ص 133

فـــجاءت هذه الزفرات والإيقاعات الملونة بالظواهر العديدة، التي تحمل قصة شعب ومـــأساته الطويلة، مجسدة داخل هذه النماذج المكررة الظواهر، المؤثرة في النفس، يعتقد المتسرع من ورائه أنه إيقاع " غير متجدد مظهرا ولكنه يستبدل نكهته وطعمه الداخل في عمق الحـــدث كلما تبدل الجـــو باستلحاق الصور الـــورائية الآتية للترميز أو الـــواقع كما أن...."[1].

إن هذا النسج في ظاهرة التكرار التي أخذها مفدي زكريا عن الشعراء القدماء، وحرصه وإلتـــزامه الشديد في إظهارها موزعة ومنثورة داخل قصائده، جعل من شعره وثيقة حية يـــحاكي من خلاله فحول الشعرالعربي، في مفرداتهم وتراكيبهم ومعانيهم، وموسيقاهم.

ج- الأوزان والقافية :

لا يختلف القدماء على أن الشعر لا يقوم قائمه سوّيا إلا إذا اعتمد على ركن الموسيقى، لذا نجده عند قـــــدامة بن جعفر" قول موزون مقفى يدل على معنى"[2] .

وينظر إليه عبد الرحمان إبن خلدون من زاوية أنه " الكلام الموزون المقفى..."[3].

ويأخذ أهمية كبيرة عند ابن رشيق القيرواني إذ أن " الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية و جالب لها ضرورة"[4].

أما القافية، فقد عرفوها على أنها "الحرف الذي يجيء في آخر البيت....."[5].

و لم يتوقف العديد من الدارسين عند هذا الحد، بل نجدهم يؤكدون على " أن المضمون ناتج عن الشكل، وأن الشكل ناتج عن الموسيقى المتكونة في نفس الشاعر قبل البدء بعملية الخلق الشعرية، وأن الشاعر يحاول أن يعطي 'النغم' أو 'الحالة النفسية' التي بدأت تتكون في داخـــله شكلا

1- **بلحيـــــا الطـــاهر** : الياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص133

2- **قـــــــدامة ابن جعفر** : نقد الشعر تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت دار الكتب العلمية ب ت، ص64 .

3- **ابن خلدون عبد الرحمان** : مقدمة ابن خلدون ط2 تحقيق عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي 1967 ج4 ، ص1405 .

4- **إبن رشيق القـــيرواني** : العمدة في محاسن الشعر و ادابه و نقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل بيروت ج1 ، ب ت ، ص 134 .

5- **الطـيب عبـــــد الله** : المرشد الى فهم اشعار العرب و صناعتها، ط2 دار الفكر بيروت ج1 1970، ص113.

مناسبا فيبحث في اللغة عن الأصوات التي تتفق مع هذا النغم الأصلي، أو تقترب منه، وترتبط الأصوات بكلمات وتتجمع الكلمات في بواعث أو دوافع... ينتج عنها في نهاية الأمر معنى أو مضمون..."[1].

والوزن والقافية عنصران أساسيان يمثلان بالنسبة للنقد القديم، قوائم الموسيقى الشعرية، ومحورا دراستها السوية.

وهـــذا الفهم هو الذي ذهب إليه شوقي عندما عرض الموسيقى حيث أشار إلى" أن موسيقى الشعر لم يضبط منها إلاّ ظاهـــرها، وهوما تضبطه قواعد علمي العروض والقوافي..."[2].

ويتضح حرص النقاد على أهمية ضبط وتأكيد عنصري الوزن والقافية، حتى يحافظ البيت الشعري على ترابطه مع القصيدة ككل، من حيث تكرارهمامن أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها وكما أنهما يحافظان على أبيات القصيدة ويضمنان وحدتها وتحديدها.

وعمد النقاد القدماء إلى الربط بين أوزان الشعر وأغراضه حيث جعلوا لبعض الأغراض ما يناسبها من أوزان معينة، وهذا ما ذهب إليه حازم القرطاجني الذي يرى " ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والـــرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم، ومـــا يقصـــد به الصـــغار والتحقيـــر، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان وما يخيلها للنفوس، فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وقصد تحقير سيء أو العبث به، حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كل قصد"[3].

والوزن عند " نازك الملائكة" الروح التي تكهرب المادة الأدبية وتصيرها...فلا شـــعر من دونه مهما حشد الشاعر من صور وعواطف، لا بل أن الصور والعواطف لا تصبح شعرية بالمعنى الحق إلا إذا لمستها أصابع الموسيقى و نبض في عروقها الوزن"[4]

1- **أحمد بسام الساعي** : حركة الشعر الحديث في سوريا، دمشق، دار المأمون للتراث، ب ت، ص259.

2- **شـــوقي ضيـــف** : في النقد الأدبي ، ط6 ، دار المعارف، القاهرة ،1981، ص97 .

3- **حازم القرطاجني** : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ط2 ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، ص266 .

4- **نازك المـــلائكة** : قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ص 238.

ولذلك عد الوزن تيارا سحريا مؤثرا في القصيدة الشعرية، وعنصرا هاما في أحداث الحركية النغمية بين السطور، فهو ضروري للشعر لأن " الوزن هزة كالسحر تسري في مقاطع العبارات، تكهربها بتيار خفي من الموسيقى الملهمة. وهو لا يعطي الشعر الإيقاع فحسب، وإنما يجعل كل نبرة فيه أعمق وأكثر إثارة وفتنة، ولذلك كان الشعر مؤثرا، بحيث كان القدماء يعدونه ضربا من السحر يسيطر به الشاعر على الجماهير."(1)

ولأن الوزن هو المحدث للعديد من التوترات اللغوية حيث نجد " خلق مسافة توتر بين المكونات اللغوية القائمة في وجودها العادي خارج الشعر ووجودها داخله"(2).

إن الشاعر عندما يصاب باضطراب أو يحس بمعاناة لمثيرات عديدة تحيط به وتعتريه " الحالة الشعرية يصبح ذهنه مشحونا بالموسيقى، هذه الموسيقى تجعل الألفاظ تنبعث في عقله الباطن وترتع إلى سطحه عشرات الكلمات المطموسة المعالم مما رقد في الذهن الجماعي للأمة وبعثته موسيقى الحالة الشعرية"(3).

وبناء على هذا الفهم فإن عناصر البنية الموسيقية ينبغي لها أن تقوم بدورها كـــاملا بحيث " تـــؤدي وظيفتها في التجربة الانـــفعالية تعبيرا وتوصيلا، بمعنى أن الموسيقى تسهم إسهاما فـــاعلا في إحلال الدلالة في فضاء متفتح على التجربة الشعرية"(4).

وانطلاقا من الآراء التي تقدمت، والتي عرضنا إليها نعرج على الظواهر التي توضح مسار مفدي زكريا في الغربة عبر قصائده، التي أفرزت معاناته الحزينة، من خلال ظاهرة الوزن و القافية التي برزت من خلالهما غربة الشاعر.

وعندما عمدنا إلى بحثنا عن ظاهرة الغربة في جانبها الموسيقي عند مفدي زكريا، تبين أنه كان يقصد إلى التنويع الذي يصاحب حالاته الانفعالية، خاصة من ناحية قوافي القصيدة الواحدة، ووجدنا هذه الظاهرة منشورة في قصيدة مأساوية رصدت نتائج القنبلة الذرية التي فجرتها الـــسلطة

1- **نازك المـــلائكة** : قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين ، بيروت، ص 225

2- **كـــمال أبو ذيب** : فن الشعر، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1987، ص87 .

3- **نازك المـــلائكة** : الصومعة و الشرفة الحمراء، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1979، ص147 .
4- **محمد راضي جعفر** : الاعتراب في الشعر العراقي، ص129

الفرنسية في الصحراء الجـــزائرية سنة 1956، وما أفرزته من آثار رهيبة على الأجنة والحياة .. يقول :

ما دهاه .. أويل؟ أمه .. ما دهاه ؟؟ ويـــلتاه، مـــن جيله ويـــــلتاه
ما لـــه في الحياة، يولـــد أعمى ؟ لم تـــر الكـــون باسمًا مقلتـــاه ؟
ما لـــه مقعدا، يـــدحرج رجليـــ ـــه؟ .. وماذا هي، فشلت يداه ؟ (1)

فالزفرات لجوفية الحزينة المحشونة بتأوه حار، تحمله صرف " الهاء" ويحدث في النفس الأثر المأساوي، ويثبت الظاهرة الانسانية الشنيعة.

كما وظف لمعاناته من جانبها الموسيقي، ظاهرة توزيع القوافي المواكبة تنوع معناته وألوان آهاته وأحزاته، يقـــول :

جزى الله عنا الخطوب الزواجر ولـــولا الخطوب لما هب ثائر
فـــلسطين يا مهبط الأنـــبياء ويـــا مهبة العـــرب الـــدّامية
جنحنا لمـــؤتمرات الســـــلا م ... امتحانا لأنا نحب السلام (2)

هـــذه الظاهرة في تنوع القوافي، هو ما يعرف " بقصائد المقاطع التي تتنوع القوافي فيهـــا في كل مقطع" (3). إذ أختار الكلمات الواضحة الدقيقة التي تقدم الظاهرة الإجرامية المأثرة.

فالمعاناة في الظاهرة الموسيقية الشعرية عنده " ليست وليدة الألفاظ المتراصة، وإنـــما هي نتيجة حالة نفسية تكشف الشاعر من خلال تجربة أو موقف اهتدى فيه الشاعر إلى ألفاظ لها دلالتها الموجودة في جرسها عند النظم" (4)

وقد تبين بواسطة إحصائية دقيقة قام بها الدكتور يحي الشيخ صالح أن أوزانا بعينها قد شاع استعمالها في قصائد مفدي زكريا " أي أن البحور المشهورة عند مفدي زكريا هي نفسها تقريبا المشهورة عند الشعراء العرب القـــدامى، وهي البسيط و الطويل والكامل، مع فارق ملحوظ

1- **مفـــدي زكريا** : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية !)، بمناسبة تفجير فرنسا لقنبلتها الذرية في الصحراء الجزائرية، 13 فيفري 1969، ص 161
2- **مفـــدي زكريا** : من وحي الأطلس، ص ص 199 – 200

3- عبد الله أحمد العفيفي : جريدة الرياض، (الموسيقى الخارجية في شعر علي محمود طه)، العدد 6437 في 6-2-1986م

4- مـــجلة عـــالم الفكر : الكويت، المجلد السادس عشر ، العدد 2، يوليو، سبتمبر، 1985 ، ص ص 9-10

وهو أن مفدي اعتمد كثيرا بحر الخفيف بحيث إحتل أكبر نسبة في التوارد في شعره، ثم بحر الرمل الذي ارتفعت وروده عند مفدي خلافا لما رأيناه عند القدامى"[1]

فــإختيار مفدي زكـــريا لهذه البحور والتركيز عليها، لأنها بحور صافية مزدوجة، تأخذ في معـــاناتها الـــذاتية، وتعبر عن الاضطرابات النفسية بسهولة، كما أنها تأخذ بالنظرية القـــــديمة التي تخصص لكل بحر من بحور الشعر، ما يناسبه من موضوعات، تتجاوب وارتدادات النفس المتألمة الحزينة أو الثائرة الغاضبة، فالشاعر " **حينما يلجأ الى هذا الوزن الذي يمكن أن نسميه وزنا قوميا** " إنـــما يفعل ذلك ليضمن التجاوب بينه وبين نفسه أولا، ثم بينه وبين جمهوره ثانيا"[2].

وحين نتابع القافية الحزينة في شعر مفدي زكريا، نلحظ الحروف المســـتعملة بكثـــرة، تثبت المعاناة الحادة عند الشاعر، لذا جاء حرف " الراء" محتلا أكبر نسبة في شعر مفدي زكـــــريا، يليه في ذلك حرف'الدال' و 'النون' و 'الميم' بنسبة واحدة تقريبا، ثم يأتي حرف' الهـــاء' في درجـــة ثالثة"[3].

ولإعتماد مفدي زكريا حرف " الهاء" الذي يناسب الحالة النفسية المنكسرة الحزينة عنده، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أنها لا تناسب الحالات الأخرى، كحالات الفرح وغـــيره...إن ضـــبط الحركة الانفعالية المواكبة للظاهرة الإجرامية، في شعر زكريا مقصودة، غايته نقل القارىء عبر ممرّات الأحداث إلى غاية الوقوف عند نتائجها، ثم التأثر بنتائجها يقـــول :

مـــا لـــه، لم تزل تهدهده الأ..   م، ولـــم تستمع لـــها، أذنـــاه ؟
ما له أخرسا، تناجيه في المهـــ   ـــد، ولـــم تبتسم لها، شـــفتاه ؟
ولـــماذا لم يبك، بين ذراعيـــ   ـــها دلالا،.. و لم يقـــل : أماه ؟
آلهـــذا الوجود، جاء وحيـــدًا ؟   أم لـــه في زمـــانـــــه أشـــباه ؟
ويـــلتاه - من جـــيله ويـــلتاه ![4]

1- يحي الشيخ صـــالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 298.

2- إبـــــراهيم أنـــيس : موسيقى الشعر، ص 188، وينظر أيضا : **محمدناصر** : الشعر الجزائري الحديث، ص250

3- يحي الشيخ صـــالح : شعرالثورة عند مفدي زكريا، ص299
4- مفـــدي زكـــــريا : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية)، ص ص 161-162

إن بطء الحرطة الانفعالية، راجع إلى ثقل الظاهرة الإجرامية، وما تركته في عـــــوالم الشاعر من اضطراب حاد، شلّ إلى حدّ بعيد أنفاسه، وجعلها تتأوه تحت وقع زفير متقطع مشحون بالغربة والألـــم والحزن.

فالهاء عنده قد "نالت من اهتمام مفدي ووردت في كثير من قصائده خـــلافا لغـــيره من الشعراء، فإن لها ما يفسرها، فهي من الناحبة الصوتية تتناسب مع مضامين التـــاوه والتحســـر، وعدم الرضى، والقصـــائد التي وردت فيـــها " الهاء" رويا عند مفدي تتناول مـــواضيع لا تبعـــث على الرضى والاطمئنان بصورة عامة"(1)

و لم يكتفي الدكتـــور يحي الشيخ صالح عند هذا الحد، بل عمد إلى تتبع هذه "الـــــهاء" من خلال ديوان مفدي زكـــريا "اللهب المقدس"، حيث يقول : " ففي اللهب المقدس ورد حرف 'الهاء' رويا للقصائد التالية :

- قصيدة (لا تعجبوا إن جاءكم برسالة): التي انشدها الشاعر ارتجالا أمام ملك المغرب إثر خروجه من السجن وهروبه الى المغرب، فبالرغم من موضوعها ليس مأساويا من الدرجـــة الأولى، إلا أن الفرار ومعايشة التبتع والاضطهاد الاستعماري وعدم الاستقرار النفسي، تقدم للقافية " الهاء" موضوعا مناسبا.
- ثم قصيدة (إلى الذين تمردوا) : التي قالها الشاعر إثر مشكلة تمرد الجيش الفرنسي بـــالجزائر وتسلطه على الأبرياء العزل بالتقتيل والذبح والنهب والحرق....وهي ذات طابع مأساوي رهيب.
- وقصيدة (إلا أن ربك أوحى لها) : التي قالها الشاعر إثر الزلزال الذي إجتـــاح منطقـــة الأصنام بالجزائر، وخلف آلآلاف من القتلى والمنكوبين، وغير خفي أن موضـــوعها هـــي الأخرى مأساوي حزين يتناسب مع "الهاء" رويا.
- والقصيدة الأخيرة ، ذات القافية "الهائية" هي (فلسطين على الصليب) : التي قالها الشاعر بـــمناسبة الذكرى الثالثة عشر لتقسيم فلسطين، حيث يتعرض لمأســـاة الشعب الفلسطيني

1- يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص299

وتـــخاذل الأمـــة العربية... ولا ريب أن الموضوع لايبعث على الرضى والارتيـــاح، بل يبعـــث على الشعـــور بالمـــأساة العميقة التي يعيشها العـــربي...مـــما يجعل روي "الهـــاء" يناسب أكثـــر أي حرف آخر"[1]

وحتى لا نبتعد عن ظاهرة الغربة من وراء هذه المحاولة، يمكن أن نوجز، في أن الشـــاعر لم يتجاوز النهج التقليدي في الموسيقى الشعرية، هذا التقيد المؤسس عنده، هوالذي أفرز ظاهرة التصريع والتكرار وأنواع المعارضات في قصائده، والتزامه الشديد بالبحور الخليلية، ومنها بحور شاع توظيفها بكثرة عند الشعراء القدماء، كبحر الرمل-مثلا- الذي إستحوذ على معظم شعره، وربما يعود سبب ذلك، إلى ميولاته الذاتية، وتغنيه بجـــراحاته وآلامه وغـــربته الفردية والجماعية، وأيضا إلى أن بحر الرمل تنساب فيه حالات النفس المنكسرة بسهولة وتتناغم، كما يتناسب وحركية الانفعالات المضطربة المتـــأججة داخل النفس المغتربة الحزينة، فجاءت أشعارهذا البحر في الغالب مطابقة للحالة الانفعالية وبعيدة عن التأمل الفكري و الفلسفي، لما يتوفر عليه بحر الرمل من درجة عالية من التوتر وحدة إيقاعه.[2]

ونلحظ بوجه عام أن الموسيقى الشعرية في ظاهرة الغربة عند مفدي زكريا، رغم ما أصابتها من تنويع في القوافي، فإنها بقيت مرتبطة بعرى الموسيقى الشعرية التقليدية، بكل أشكالها ومضامينها، وكان في نهجه هذا ينير سبيلا توحي بالجديد، الذي يتطلب نظرة أخرى مستقلة.

وبالتالي نجد أن ظاهرة الموسيقى التي عرفها الانسان، واهتدى إلـــيها عبرالزمن، تمثل فنا قديما عريقا، ومع مـــرور السنون أضحت عنصرا هاما ملازما للشعر وآداة فعالة من أدواته الأساسية، التي يؤسس عليها الشاعـــر هرمه الانفعـــالي الشعري، وقد لاحظنا أن شعر الغربة عند مفدي زكريا – من خلال بعض النصوص - لم تتجاوز في هذه الظاهرة، النمط التقليدي للموسيقى الشعرية التي عرفت عند القدماء من الشعراء العرب.

الخـــــاتـــــمة

1- يحي الشيخ صـــالح : شعرالثورة عند مفدي ز دريا، ص300

2- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة في الأدب المعاصر، ص493

كانت رحلتي مع ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، داخل غياهب عوالمه الباطنية جد ممتعـــة، بالقـــدر الذي كانت فيه مـــضنية. فلقد تحسست طويلا بين أمواج هذا البحر الـــمائج من الإفرازات الشعرية المتعالية والمتلاطمة، التي ضمتها دواوين وأشعار مجهولة متناثرة هنا وهناك. وأدركت يقينا أن الثورة عند مفدي زكريا ولدت من رحم أحـــزانه وغـــربته.

وكنت أصاحب الشاعر في غربته، ومعاناته، وأشاركه ماساة شعبه التي كانت أساس محنته الحقيقية وانفصامه الحقيقي المرير عن الأهل والوطن، فـــشعرت بين لهيب إفرازاته الحارة، قوة بيانية تلفظها حمم الاضطرابات الحزينة، فأدركت حجم عمق البركان الذي لا يظهر في الحقيقة لدنيا الناس إلا لشظايا قليلة، أما الحمم الملتهبة المركبة الراسخة فـــي القاع، تتآكل دون أن يدركها أحد، فتحسست عظمة هذه الإنفعالات، وانتابني شعور كبير بقوة المثير المنعكس، وأنني مقدم على أعظم بركان لا بداية لفوهته ولا نهاية لقاعه.

لقد أدرك مفدي زكريا أن مواد التاريخ وأحداثه، كالمآسي، والتضحية أو البطولة، يمكن أن تكون أفضل مادة للشعر، وهذا من حيث مآسيها، وانسجام ملامح المعاناة الانسانية معها...إنها منطقة صراع، ميدانها الشعر. لذا حول مفدي زكريا مهمة الشعر الجزائري، التي كانت موضوعاته القديمة ذات الطابع السلفي الوعظي الاصلاحي، إلي شعر مضامين نفسية تأملية إغترابية، ولم تخرج المضامين النفسية الثائرة والحزينة عن البواعث الأساسية التي كان مصدرها الشعب القتيل والوطن المغتصب، وهي بواعث تركت ملامحها في شعر الغربة بمفهـــومها الزماني والمكاني .

لقد تمخض شعر الغربة عند مفدى زكريا عن مأساة طويلة، وما كان لها أن تأتى هذه الأشعار الملتهبة الحزينة، لولا إحساسه بالظلم والغربة والضياع الذى نال من شعبه ووطنه.

لقد تناولت هذه الدراسة ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكـــريا، فاقتضت ضرورة البحث تحديد مفهومها لغة واصطلاحا، ومن ناحية أبعادها اللغوية والفكرية، والاجتماعية والفلسفية والدينية، وأيضا في مجال الشعر وبعض موضوعاتها وأبـــعادها.

وكان أهم ما لوحظ هو اتساع وتشعب معانيها ومعالمها، واختلاف وتنوع الآراء ووجهات النظر فيها، فمن خلال العودة والاسقصاء التاريخي للنصوص الشعرية، تبين أن ظاهرة الغربة تتحدد بعلاقة التأزم بين الإنـــسان ذاته والكون المحيط به، فتبعث به إلى الاضطراب وينتابه شعـــور بالتوتر واليأس واللوعة والحسرة، فهي بالنسبة للشعر الإنكسار الذي يعجز الشاعر عن ترميمه أو التصرف فيه، فينشده شعرا داميا بالآهات والألم والنكبات التي تلقى به — في كثير من الأحيان — في غياهب متاهات السقوط و الإندثار.

وقد ارتبطت ظاهرة الغربة في الشعر العربي الحديث ببعض الأفكار الرومانسية الغربية، وتتمثل رومانسية مفـــدي زكريا من خلال الحنين الجارف إلى الماضى العـــربي التليـــد، وتذكر أيام العزة والسيادة، وهو نزوع تعويضي عن الواقع الحزين المؤلم الذي يعيشه الجزائري تحت الإحتلال الفـــرنسي، كما أنها رومانسية معاناة شاعر في غربته الطويلة وتشرد شعبه واضطهاده، كما كانت تمثل بكاء وتعـــــاسة فرد وشقائه وعبودية مجموع، فـــجاءت الرومـــانسية نـــابعة من واقع معاش مملوء بالمتناقضات، والجراحات. من هذا المنطلق فإن رومانسية مفدى زكريا حزينة لحزنه وكئيبة لكآ بته....لأن شعبه محزون الفـــؤاد، مكبل بالحديد، ضائع المصير، وما شعره إلا آنات هـــذا الشعب البائس يطلقها ويصعدها أبياتا شعرية مـــوزونة حزينة صادقة، فعبرت عن هذه الإضطرابات الحزينة المغتربة أحسن تعبير، وكانت الرومانسية الحزينة مواكبة لمآسي الفرد والجماعة، واحتجاجا صارخا على فساد الحياة وترديها فأينما عثرت على ظواهر الحب، وجدتها عناقا للعذاب والحسرة مشبعة بالدموع والألم حنينا داميا إلى الأوطان والأهل والأبنـــاء...

كما ظهرت الطبيعة في مناظر رهيبة تنضح بالسواد والخراب والشقاء والحيف، وتعبد طريق الغربة والانفصام أمام الشاعر، ثم كان الاغتراب والضياع الذى واجهه الشاعر، مخذولا ومنكسر الوجدان، خائر الفكر منهك الروح والجسد.

وارتبطت ظاهرة الغربة كذلك ببعض الأفكار الواقعية، وأخدت منهجا إجتماعيا، تمثلت في ملاحقة السلوكات الخبيثة لرجال الطريق والانحرافات الدخيلـــة الشاذة والدخيلة بصفة عامة، والعمل على كشف مسبباتها ، والتي أدت بالاتسان الجزائري إلي واقع مزر بائس عمه الجهل والتخادل والتواكل،...كما أخذت طابعا إقليميا مغاربيا، وقوميا وإنسلنيا، إذ تجسدت المبادئ والقيم

الإنسانية المهدورة في أشكالها ونماذجها العديدة والمختلفة ، وأكدت ضرورة تجاوز الإنسان للمعاناة والمأساة التي تصاحبه عن طريق الــوعى ومحاربة منابع الجهل، والرجوع إلى الفكر، والعمل الجاد لمحاربة الظروف التي قادت إلى حدوثها ووجودها، فكانت صرخة حزن عميقة المنابت والجـــذور، في وجه الظلم والظلمة المستبدين، والبؤس الاجتماعي والتسلط الإستغلالى. فالمعاناة هنا لا تكون ذات قيمة وغاية، ومعنى وهدف، ما لم تكن صادرة عن حياة الناس، ومعبرة عن آلامهم، وخادمة للصالح العام، فهى أولى خطوات الوعى المدرك الثوري، وأصول النضال الإنساني الحقيقي في الشعر الـــواقعي.

وقد جمعت – إلى حد ما – ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا بين الإتجاه الرومانسي الحزين والاتجاه الـــواقعي الراصد للانـــحرافات الواقعية، كما تجاوزتهما – في كثير من الأحيان – إلى إبراز محنة الانسان فوق الأرض بدقة في علاقته بالوجود كله، وذلك عبر قـــصائده الفدائية المؤثرة ومن خلال دواوينه الملتهبة العـــديدة التي تتغذى كلها من رحم الأحزان والغربة.

ويمكن القول أن مفدي زكـــريا قد أفلح بفراسة، أن يزاوج بين التراث القـــديم متمثلا في أغنى مصادره، وبين الحداثة بمنهجها، التي تجسدت في أنصع مذاهبها .

منذ مطلع شبابه ذاق مفدي زكريا صعوبة الحياة، ومرارة العيش والكدح في سبيل الحصول على عنصرالبقاء ولقمة الاستمرار، ولقي في سبيلها ألوان الإرهاق وأنواع التعب، حيث عمل أجيرا، وممثلا متجولا، وأقدم على مشاريع تجارية عديدة لم يكتب لها النجاح، وصاحبه الفشل في كل مسعى تجاري ، فأصبح يقاسي مقاساة شديدة، ويعاني معاناة مزدوجة، حبه لتحقيق الثراء والرخاء الذين كان يحلم بهما، وحبه للأدب الذي لم يرغب أن يكون حرفته الدائمة، إلا أنه فشل فشلا ذريعا في الأولى، على الرغم من المحاولات العديدة، والعرق الغزير، ومع كل محاولة كانت تترسب المعاناة، وتكبر وتتبرم نفسه الأبية، وتنمو في عوالمه الباطنية، ويقوى معها الإحساس بالخيبة، والثورة على الواقع التعيس.

واقع مرير لونته الممارسات اللاإنسانية التي وظفها العدو المحتل الفرنسي طوال وجوده فوق هذه الأرض الغالية على أهلها، أعمال إجرامية لا يمكن وصفها، فهي ممارسات إستئصالية ضد الانسان، سيظل التاريخ يحتفظ وحده ببشاعتها وانحطاط ممارساتها. وهو الوحيد الذى يبقى شاهدا

أحيانا على بشاعتها، إذ تفوق جرائم الفاشية، وخراب النازية، حيث تمثلت – من خلال بعض النمادج – في التجهيل والمسخ والإبادة الجماعية ...والتمثيل بالجثث والعبث بالمحارم ...والتـــدمير الكلي للقرى والمداشر....والتفنن في التعذيب الجسدي والنفسي ونحوها ... وقد بينت الشواهد الشعرية، مدى فضاعة الجرائم التي ظل السجناء والمعتقلون يتعرضون لها، وأهوال التعذيب المسلطة عليهم، منذ لحظة دخولهم إليها إلى غاية مغادرتها شبه أحياء أو أموات.

واقع آخر للظاهرة الاجتماعية، ظاهرة الفقر والحرمان، التي أنتجت الجهل والتخلف، كانت مخططات العدو الدخيل ، الذي سعى منذ أن وطئت أقدامه أرض هذه الديار، إلى التفقير والتحقير والنهب للخيرات، واستعباد كل من على هذه الأرض، فقد وضح بدقة مفدي زكريا هذه الأعمال، وكشف نوايا المخططات في أكثر من قصيد...

واقع الظلم والتنكيل بالأبرياء، في غياهب السجون والمعتقلات، أفرز المأساة الجزائرية، وأبرز أنـــواع الوحشية وضروب الشقـــاء. وكانت الغربة عنوة إلى خارج الوطن، من المـــآسى التي خطط الاحتلال الفرنسي لها تماشيا لاضطهاده الشعب، وقد وجدنا الكثير من الجزائرين - ومنهم شاعرنا- فارين بسبب أعمال الإبادة التي شرع في تطبيقها المحتل الفرنسي، ومغادرة ديارهم وأرضهم، والهروب سريا إلى البلدان العربية الشقيقة المجاورة حيث ظلوا هناك يتجرعون مرارة الغربة والشوق، ومرارة فراق الأهـــل والوطن، رغم أنهم بين أشـــقائهم العرب.

وقد سجل مفدي زكريا أكثر من ظاهرة حزينة، كلما دفعت به الظروف إلى تلك الأقطار. إذ وصف ما كان يمر بعوالم الجزائري من شوق وحنين ولوعة الغربة إلى أرضه، واقع بائس يعتريه الأسى، تجاوز فيه الشاعر المحنة ومأساة شعبه، إلي تعاسة الأمة العربية والافريقية والانسانية بصفة عامة، حيث استوعبت نظرته ظواهر كلية، وأضحى الشاعر أكثر الشرائح الإجتماعية إلتصاقا بمآسي وأحزان وهموم الانسان وآلامه، وهذا ما وسع من معالم التجربة الشعرية عنده وعمقها، وخلص إلى أن الخروج من التعاسة وبواعثها، من غربة وظلم وعبودية ...يتم عن طريق الثورة والرصاص، فبهما يتم بعث الحياة الانسانية الحرة المطمئنة، وعن طريق الجحافل من الشهداء، الدماء الزكية الطاهرة، تطهر الأرض من اليرقات المؤذية للحياة، ويتخلص الاحياء من مسغبة العيش الذليل.

لإبراز ظاهرة الغربة، وظف مفدي زكريا، أدوات الاتصال الواضحة والدقيقة، حيث ركز على الصورة الشعرية البليغة المؤثرة المستمدة من التاريخ الإسلامى والتراث القديم والقرآن الكريم والشعر العربي القديم، فجاءت صوره الشعرية حزينة ثائرة وليدة شعور صادق وذات متألمة، كما وظف لغة بليغة مؤثرة حماسية ثائرة، استخدمت الكلمة لتعبر عن الإنفعالات وعميق المعاناة ...فكانت لغته الفريدة أداة قوية لتوصيل الشحنات والأفكار والمظاهر التعيسة ...

رغم ما عرف عنه من أصالة تراثية، إلا أن الاندفاع لاظهار ظاهرة الغربة والواقع المأساوي جعلها لغة ذات خاصية فريدة مميزة ...وأظف على هذه اللغة وصورها، أنغاما موسيقية مؤثرة مناسبة لكل اضطراب أو حالة تعتريه ...رغم التزامه الشديد بالقـــواعد الموروثة الصـــارمة التي صطعت في قصائده. بالوفاء للقديم.

مفـــدي زكريا الملحمي الحزين غير بعيد عن النصوص العربية القديمة العظيمة ، لقـــد كان وفيا لتراث أمته، سار عليه على نهجه، وترسم طقوس فحول الشعراء الأقدمين، وكتب بشغف ولهفة في حيزهم وعارض بعضهم، ونهج نهجهم، ووظف في شعره العديد من معانيهم وخط بدمه صورهم البطولية وأيامهم الخالدة وأخد عزهم وترديدهـــم، لكنه لم يكن في هذا مقلدا بليدا، بل كان يهمس في ظواهر وأحداث التاريخ فيستسلم له التاريخ فيأخد منه ليقرب بين الماضي المجيد والحاضر التعيس، ثم يستخرج العبرة التي كانت غايته من ذلك بدل العبرة – بفتح العين –.

ولعلني بهذه المعالجة النفسية التاريخية التوثيقية الشعرية، والمعاناة التي عايشتها بين قصائد مفدي زكريا، تبين لي أن الشاعر، قد عايش الأحداث وعانى جزئيات الظاهرة والتجربة الاغترابيـــة في عمق صـــورها، ورسم بقلمه الدقيق أجزاءها، من حيث صفاء الشور وسمو الروح، إذ مـــكنته من أن يحدث فيها الأثر ذاته، وهذه قدرة وظاهرة فريدة يتميز بها عظماء الشعراء.

تلك كانت رحلتي، التي استطعت أن أسجل من خلالها مظاهر الغربة في عوالم الرجل، الذى مات غريبا عن الأهل والوطن، وأحبه حبا منقطع النظير، وما يزال شعره وثيقة إيدولوجية للأجيال والتاريخ، لما حواه هذا الشعر من ظواهر ومضامين عميقة .

إذا وفقت، وأرجو ذلك، أكون قد وضعت لبنة في هرم نريده أن يكون متجددا حيا، وإذا تعثرت، فهذا من طبيعة الأمور، ذلك أنني في بداية الطريق.

أولا : المـــصادر

- القرآن العظيم.

- الكتاب المقدس : انجيل يـــوحنا، الإصحاح 3، (18)، باب طـــــوما، دمشق 1919

أ- الـــدواوين والمجموعات الشعرية :

1- **ابن الـــرومي :** تحقيق حسين نـــصار، الهيئة العامة، بـــمصر، ج2، 1973.

2- **أبـــو تـــمام :** الديـــــوان، المـــــركز العربي للبحث والنشر، القـــــــاهرة، ب ت.

3- **أبو فراس الحمداني :** الديـــــوان، دار صـــادر، بـــيروت، ب ت.

4- **أبو الطيب المتنبي :** الديـــوان، شرح ناصف، اليازجي، دار صادر، بـــيروت، ب ت.

5- **أبو القاسم الشابي :** " الأعـــمال الكاملة"، دار العــــودة، بـــيروت، 1972.

6- **أبو علاء المعـــري :** " اللزومـــــيات"، تحقيق عبد العزيز الخانجي، القـــــاهرة، ب ت.

7- **أبو ذئب الـــهزلي :** تحقيق حـــسين نـــــــصار، الهيئة العامة، بمـــــصر، 1969.

8- **أحـــمد سحنون :** الديوان، الشركو الوطنية للنشر والتوزيع، الجـــــزائر، 1977.

9- أحمد زكي أبي شادي : " الشفق البـــاكي "، المطبعة السلفية، مـــــصر، 1926.

10- إلياس أبو شبكة : المجموعة الكـــاملة في الشعر، دار الثقـــــافة، بـــيروت، 1979.

11- خليل مـــطران : الديوان، " حكاية عـــاشقين "، ج1، دار الطـــليعة، بيروت، ب ت.

12- سعدي يوسف : الديوان، الأعمال الشعرية الكاملة، المطبعة العصرية، دار العودة، بيروت، 1972.

13- صالح الشرنوبي : الديوان، جمع وتقديم، علي أحمد باكثير، الدار المصرية للطباعة،ب ت.

14- صـــالح خرفي : أطـــلس المـــــعجزات، ش و ن ت، الـــــــجزائر، 1974.

15- صالح عبد الصبور : الـــديوان، الأعمال الكاملة، " أقول لكم "، دار العودة، ط2، بيروت، 1972.

16- عبد البديع صقر : شاعرات العرب، منشورات الكتاب الإسلامي، ط1، 1971.

17- عبد الله شريط : الرمـــاد، ش و ن ت، الجـــزائر، 1969.

18- عبد الوهاب البياتي : الديوان، مجلد 1، دار العــودة، بــيروت، 1972.
19- علي محمــود طه : الــديوان، الأعــمال الكاملة، " أقــول لكم "، دار العــودة، بيروت، 1972.
20-عبد المعطي حجازي : الــديوان، " يقظة عملاق "، دار العــودة، بــيروت، 1974.
21- فــدوى طــوقان : الأعــمال الكاملة، " وحدي مع الأيام "، دار الأدب، ط4، بــيروت، 1973.
22- كيلاني حسن سند : الــديوان، " قبل ما تسقط الأمــطار "، دار الكتاب العربي، مصر، 1985.
23- كمال عبد الحليم : الديوان، " اصــرار "، دار الفن الحديث، القــــاهرة، 1979.
24- مفدي زكريا : اللهب المقــــدس، ش و ن ت، الـــــجزائر، 1983.
25- مفدي زكريا : تحت ظـــلال الــزيتون، دار الـــــنشر، تــونس، 1965.
26- مفدي زكريا : من وحي الأطــلس، مــطبعة الأنـــباء، المغـــرب، 1976.
27- مفدي زكريا : إليـــاذة الجزائر، وزارة التربية الـــوطنية، الــجزائر، 1986.
28- مفدي زكريا : أمجــــادنا تتكلم، مؤسسة مفدي زكـــريا، الجــزائر، 2003.
29- محمد الأخضر السائحي : الــديوان، همسات وصرخات، المطبــوعات الـــوطنية، الجزائر، 1965.
30- محمد العيد آل خليفة : الـــــديوان، ش و ن ت، الـــجزائر، 1965.
31- محمد مهدي الجواهري : الـــــديوان، الجزء1، مــــطبعة بــــغداد، 1949.
32- محمد سيد شريف : الديوان، " أوراس "، دار العــــودة، بــــيروت، 1974.
33- محمد الفيتوري : " أغــــاني إفريقيا "، مكتبة المــعارف، مــــصر، 1956.
34- نازك الملائكة : الأعمال الكاملة، " قرارة الموجة "، دار العودة، ط1، بيروت، 1982.
35- يحي بن زيــاد : الــديوان، جمع وتقــديم أنور حسين الشوفي، دار إحياء الثرات، بيروت، 1962.

ب - المصادر العامة :

1- **أبو الفرج الأصفهاني** : أدب الغرباء، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديدة، بيروت، 1972.

2- **أبو عثمان الجاحظ** : الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الثرات العربي، ط3، مج3، بيروت، 1969.

3- أبو هلال العسكري : الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، مطبعة الفجالة الجديدة، بيروت، 1981.

4- الزمخشري : أساس البـــلاغة ، دار الكتب المصرية، ط1، بولاق 1300 هــ، مـــــصر

5- **الـــطيب عبد الله** : المرشد، إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ط2، دار الفـــكر، ج1، بـــيروت، 1970.

6- **التبـــريـــزي** : شرح القصـــائد العشر، مـــطبعة المدني، القــــاهرة، 1965.

7- ابن مـــنظور : لـــــسان العرب، المطبعة الأميرية، ط1، بولاق 1300 هــ، مــــصر.

8- ابن قيم الجوزية : مـــدارك الســــالكين، ج4، مـــطبعة القـــاهرة، مـــصر، 1892.

9- **ابن قـــــــتيبة** : تأويل مشاكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار احياء الكتب العـــربية، بيروت، 1954.

10- ابن حزم الأندلسي : طوق الحـــمامة، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط3، القـــاهرة، 1985.

11- إبن خلـــــدون : مـــقدمة ابن خلدون، ط2، تحقيق عبد الواحد وافي ، لـــجنة البيان العربي، ج4، مـــصر، 1767.

12- ابن رشيق القيرواني : العمدة، في محاسن الشعـــر وآدابه ونقـــده، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل، ج1، بيروت، ب ت.

13- ابن سيـــــدة : المخصص، تحقيق لجنة احياء الثرات العربي، دار الآفاق الجديدة، ج1، بـــيروت، ب ت.

14- ابن كثير : تفسير ابن كثير، مكتبة النهضة الحديثة، الفجالة الجديدة، القاهرة، 1968.
15- أرسطو طـــاليس : من الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973.
16- أفــــلاطون : كتاب الفيدون، ترجمة وتحقيق علي ساطي النشار، وعباس الشربيني، دار المعارف، مصر، 1965.
17- حازم القرطاجي : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط2، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، مكتبة النهضة، مصر، ب ت.
18- ســـوفوكليس : أديب ملكا، ترجمة محمد صقر خفاجة، الهـــيئة العامة، مصر، 1984.
19- سيـــد قـــطب : التصوير في القـــرآن الكريم، دار الشرق، بـــــيروت، ب ت.
30- ضياء الدين بن الأثير : المثل الســـائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد الحرفي وبدوي طبانة، مكتبة، مصر بالفجالة، 1963.
31- قـــــداحة بن جعفر : نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة، دار الكتب العلمية، بـــــيروت، ب ت.
32- كـــارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1987.
33- محمد علي بيوض : الأحاديث القدسية الصحيحة، جمع وإعداد الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2002.

ثانيا : المراجع

أ- المراجع العامة :

1- **أبو القـــاسم سعد الله** : تاريخ الجـــزائر الثقافي، ج2، ش و ن ت، الجـــزائر، 1981.
2- **إبـــــراهيم أنـــيس** : مــــــوسيقى الشعر، ط5، مكتبة الأنجلو، القـــاهرة، 1981.
3- **إبراهيم عبد الرحمان** : الشعر الـــجاهلي، قـــضايا الفنية والموضوعية، مـــكتبة الشباب، القـــاهرة، 1979.

4- **إبراهيم الســـــولامي** : الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، 1974.
5- **أحمـــد هـــيكل** : تطـــور الأدب الـــحديث في مصر، دار المعـــارف، مـــصر، 1968.
6- **أحمد الطريسي أعراب** : الرية الفينة في الشعر العربي الحديث بالمغرب، المؤسسسة الحديثة، الدار البيضاء، امغرب، 1987.
7- **أحمد بسام الساعي** : حركة الشعر الحديث في سوريا، دار المأمون للثرات، دمشق، ب ت.
8- **أحمد فتحي بهنسي** : العقوبة في الفقه الإســـلامي، دار الرائد العربي، بـــيروت، 1983.
9- **أحمـــد النكلاوي** : الإغتراب في المجتمع المصري المعـــاصر، ط2، دار الثقافة العـــربية، القـــاهرة، 1989.
10- أدونـــــــيس : ســــياسة الشعر دار الأدب، ط1، بــــيروت، 1985.
11- الشريف المريـــبعي : عبد الكريم العقون، شاعر، ديوان المطبوعات معهد الآداب جامعة الجزائر 1988-1989
12- الهـــاشمي علوي : من أين يجيء الـــحزن، دار العـــودة بــــــيروت، 1972.
13- الوناس شعبان : تطور الشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الـــجزائر، ب ت.
14- أعزوز شعيب : الاتجاه القومي في الشعر المغربي الحديث، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1988-1989.
15- أنـــس داود : التجـــديد في أدب المهجر، دار الكتاب العربي، مــــصر، 1967.
16- إحسان عباس : إتجاهات الشعر العربي المعاصر، مجلة المعرفة الكويتية، العدد8، 1979.
17- إليزابيت دور : الشعر، كيف نفهمه ونتدوقه، ترجمة، محمد ابراهيم الشـــوش، مـــطبعة عيناني الجديدة، 1961.
18- بلحيا الطاهر : إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
19- جـــريدة العلم : الــــرباط، 1957/06/30.
20- جون فون زيلسكي : الـــمأساة والخوف، ترجمة، عـــارف حذيفة، وزارة الثقـــــافة، دمشق، 1982.

21- **جابر أحمد عصفور** : الصورة الفنية في الثرات النقدي والبلاغي، دار المعـــارف، مطبعة القـــاهرة الجديدة، ب ت.
22- **جاشكويا سلار** : كتاب الأقدام، ترجمة، غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، 1980.
23- **حاتم عبد الحبوب الساعي** : الإمام الحسين في الشعر العربي الحديث، كلية دار العلـــوم، جامعة القاهرة، 1984.
24- **حـــسين تـــريكي** : هذه هي الجزائر، القـــاهرة للطبـــاعة، مـــصر، 1981.
25- **خيري حماد** : الجزائر الثائرة، " لجون تملسي "، تعريب، دار الطليعة، بيروت، 1961.
26- **رشيدة مهران** : الواقعية واتجاهاتها من الشعر المعاصر، الهيئة العامة، اسكندرية، 1979.
27- **ريتشارد شاخت** : الإغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للـــدراسات والنشر، بيروت، 1980.
28- **سمير الحاج شاهين** : لحظة أبدية، الزمان في أدب القرن العشرين، المؤسسة العربية، ط1، بـــيروت، 1980.
29- **ســـامي الدهان** : الأمير شكيب أرســـلان، حياته وآثاره، دار المعارف بمصر، 1980.
30- **شـــارل روبير أجرون** : الـــجزائر آخر خط للنفوذ الفرنسي، منشورات، جـــــامعة قـــسنطينة، 2004.
31- **شلتاح عبود شـــراد** : حركة الشعر في الجزائر، المـــؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
32- **شـــوقي حـــــنيف** : في النقد الأدبي، ط6، دار المعـــارف، القـــــاهرة، 1981.
33- **صالح حسين اليظي** : الفكر والفن في شعر أبي العـــلاء، دار المعـــرفة، مصر، 1981.
34- **صالح خـــــــــرفي** : الشعر الجزائري الحديث، ش و ن ت، ط1، الجزائر، ب ت.
35- **صـــدقي اسمـــاعيل** : المؤلفات الكاملة، ج1، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، 1977.
36- **عـــباس محمود العقاد** : ابن الرومي، حـــياته وشعـــــره، مـــكتبة التجـــارية، ط5، القـــاهرة، 1963.
37- **عبـــاس محمود العقاد** : ســـاعات بين الكـــتب، دار النهضـــة، ط3، مصر، 1950.

38- عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة، " مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية "، دار غريب للطباعة، القاهرة، ب ت.

39- عبد الله حمادي : الحركة الطلابية الجزائرية، (1962 – 1971)، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1995.

40- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ش و ن ت، ط1، الجزائر، 1981.

41- عبد الله الركيبي : قضايا عربية ي الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1977.

42- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1971

43- عبد الرحمان بدوي : الزمان الوجودي، دار النهضة، مصر، 1945.

44- كمال نشأت : أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.

45- كمال أبو ذيب : فن الشعر، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1987.

46- ماهر حسين فهمي : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970.

47- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار النهضة، مصر، 1982.

48- محمد مصطفى بدوي : كولردج، نوابغ الفكر العربي، دار المعارف، مصر، 1957.

49- محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، 1986.

50- محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

51- محمد مصايف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

52- محمد البشير الإبراهيمي : عيون البصائر، ش و ن ت، ط2، الجزائر، ب ت.

53- **محمد نـــاصر** : مفـــدي زكـــريا، شاعر النضــــال والثورة، نشر جمعية الثرات، ط2، - العطف - ، غرداية، الجزائر، 1987.

54- **محمد زكي العشماوي** : الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1974.

55- **محمد راضي جعفر** : الإغتراب في شعر العراقي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.

56- **محمد منـــــــدور** : الشعـــر المصري بعد شـــوقي، الحلقة الثـــالثة، مـــصر، 1973.

57- **محمد الطاهر الطمار** : تـــــاريخ الأدب الجزائري، ش و ن ت، الجـــزائر، ب ت.

58- **محمد هـــدارة** : تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، دار الثقافة، بيروت، ب ت.

59- **محمـــد زغـــينة** : شعر السجـــون والمعتقلات في الجزائر، منشورات جـــامعة بـــاتنة، الجـــزائر، 1990.

60- **محمـــد فـــارس** : تاريخ الجزائر الحديث، (مطبعة ألفباء الأديب)، دمـــشق، 1969.

61- **محمود الـــربيعي** : في نقذ الشعـــــر، دار المعـــــارف، ط2، مـــصر، 1975.

62- **محمـــود رجب** : الإغتـــراب مـــــنشأة المعارف، ج1، اسكنـــدرية، 1978.

63- **محمـــود إحسان الهندي** : الحولـــيات الجزائرية، العربي للإعلام وللنشر والطبــــتاعة، دمشق، ب ت.

64- **محسن أطميش** : دير الملاك، (دراسة نقذية)، منشورات وزارة الثقافة، بغداد، 1982.

65- **مـــصطفى سويف** : الأسس الفنية للإبــــداع الفني، دار المعـــارف، مـــصر.

66- **مفـــدي زكـــــريا** : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، المجاهد، العدد 48، تـــاريخ 1959/08/10

67- **مفيدة محمد قميحة** : الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجـــــديدة، بـــيروت، ب ت.

68- **مـــــيشال سليمان** : السمو في الشعر بوصفة مقولة جمالية، مجلة الفكر المعاصر، عـــدد أوت، 1981

69- **نـــايف بلـــو** : عـــــــالم الجمال، المـــطبعة التعاونية، دمـــــشق، 1981.

70- نـــازك الملائكة : الصومعة والشرفة الحمراء، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1979

71- نـــازك الملائكة : قـــضايا الشعر المعـــاصر، ط8، دار العلم للملايين، 1989

72- نـــاجي نجيب : كـــــتاب الأحزان، دار التنـــوير، ط1، 1983

73- نـــعيم اليـــافي : الشعـــر العـــربي الحـــديث، وزارة الثقـــافة، دمـــشق، 1981

74- نفيسة داخلي عبد الرزاق : الـــحزن في الشعر الســـوداني، جامعة الاسكندرية، كلية الآداب، 1989

75- نور السلمان : الأدب الجزائري، في رحاب الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، ط1، بـــيروت، 1981

76- هـــاري ليفن : انكسارات، " مقالات في الأدب المقارن "، ترجمة عبد الكريم محفـــوظ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980

77- وهيب طنوس : الوطن في الشعر العربي في الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، منشورات، كلية الآداب، جامعة حلب، 1979

78- يحي الشيخ صالح : شعر الثـــورة عند مفدي زكريا، ط1، دار البعث، قـــــسنطينة، الجـــزائر، 1987

ب - المجـــــلات :

1- **أحمـــد رحماني** : لغة الضاد، معهـــد الآداب واللغة العربية، جامعة قسنطينة، العدد 6-7، أكتوبر، 1983

2- **أحمد ناصف الجنابي** : موسيقى الشعر، مجلة الأقـــدام، ج4، السنة 1، أكتوبر، 1964

3- **ب. صـــديق** : أطـــلس المعجـــزات، الـــمجاهد الثقافي، العـــدد 17، 1971

4- **تـــوفيق برو** : جنون الاستعمار وجرائمه ف الجزائر، مجلة سيرتا، العدد 6-7، الـــسنة 4 جويلية 1982

5- **حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي** : الجزائر بين الأمس واليوم، المؤسسة العـــربية للأنبـــاء والنشر والتوزيع، العدد 272، ب ت

6- **حنفي بن عيسى** : المستشرقــون وتاريخ الجزائر، مجلة المعرفة، وزارة الأوقـــاف، العدد 3 مارس 1982.

7- **عبد الله أحمـــد العـــفيفي** : جريدة الرياض، الموسيقى الخارجية في شعر علي محمود طه، العدد 6437 ، في 6-2 – 1986

8- **محمد ناصر** : المحافظة والتقليد في الشعر الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 4، السنة 7 أوت، سبتمبر 1977.

9- **محمد الصالح الجابري** : الوعي القومي والديني عند الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس مجلة الفكر، العدد 7، السنة 30 أوت – سبتمبر 1977.

10- محمد الأسعــد : اشكـــاليات التجربة الشعرية، مجلة الفكر المعـــــاصر، عـــدد أوت، بيروت، 1981.

11- محمـــود أمين العالم : مـــــجلة الفكر التـــــونسية، العـــدد9، 26 جـــوان 1981.

12- مفدي زكريا : جريدة الجمهورية، شاعر الثورة أمام الجمهور، الجزائر، 5/11/ 1984

13- مولود قاسم نايت بلقاسم : إلياذة الجزائر، مجلة الثقافة، وزارة السياحة، السنة السادسة عشر، العدد1، 9 فبراير 1986.

ج- المراجع الأجنبية :

1- Abdel Ghari Maguerbi, la paysannerie face à la colonisation (Edition Enape) Alger 1973

*** Actes** des XIV Congrès International d'Algérie 1905 3ème Partie.

2- Charles Herni Ferand « La Révolution Algérienne » (Plon), Paris 1959.

3- Charles Robert Ageron, histoire de l'Algérie Contemporaine (presse universitaires de France, Paris, 1964)

4- Jules Roy, «la guerre d'Algérie» Edition bernard, Paris, 1950.

5- **Jeanson Colette et Francis**, «l'Algérie Hors la loi», Edition du Juil- Paris, 1955.

6- **Ibrahim Ahmed Taleb**, de la Colonisation à la Révolution culturelle (S.N.C.D) Alger, 1973.

7- **Le courrier d'Afrique,** 26 Juin, n° 216 , 1845

8- **Nietzsche,** ainsi parlet, Zamoustra, George Arthur, Edition Générale Française, 1972.

9- **Paul Gaffarel**, «l'Algérie, Histoire, Conquête et Colonisation de Hiemien – bielot et Cie, Paris, 1983.

10- **Roland Barthes** « Le degré Zero de l'écriture » Coll – Brint, Pari, 1970.

فهـــرس المـــوضوعات

ملخص باللغات الثلاث (العربية، الإنجليزية، الفرنسية)

يمثل **مفدي زكريا، ظاهرة** كبرى في حركة الشعر الجزائري الحديث، فقد استقطب اهتمام العـــديد من البحوث، إذ تناوله الدّارسون من زوايا عديدة ومختلفة. ورغم هذه الدراسات القيمة فإن شعره المتنوع الأغراض، لا يزال كالبركان المتدفق لا يتوقف، يفتح آفاقا جديدة أمام الدارسين.

من هذه الرؤى (**ظاهرة الغربة**)، لا تزال ميدانا واسعا، في حاجة إلى دراسة نفسية.

وإذا كان في شعر مفدي زكريا، كثير من الأحزان، فإن هذه الدراسة تأخذ أشعاره التي تبرز الظاهرة الاغترابية، وتهدف إلى معرفة الأصول المركبة للظاهرة، في أبعادها النفسية والتاريخية، والفنية، عن مرحلة عصيبة في تاريخ الجزائر، تمتد من الحرب العالمية الثانية حتى وفاة الشاعر في ديار الغربة. هذه الدراسة تقوم على ثلاث مناهج، هي **المنهج التاريخي التوثيقي** لمعرفة بواعث الظاهرة، و**المنهج النفسي** المدعم بالاستقراء، لفهم انعكاسات الظاهرة المثيرة، و**المنهج الفني**، المحلل لآثار الصورة الشعرية واللغة، وأعماقها من الناحية الموسيقية في تأثيرها الشعري.

هذه الدراسة قسمت إلى ثلاثة فصول : تناولنا في الأول **ظاهرة الغربة في الأدب العربي الحديث**، وفي الثاني **ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا**، أما الثالث فخص **للخصائص الفنية**.

وخلصنا إلى أن الميزة الجوهرية للشعر العربي الجزائري - بعد الحرب العالمية الثانية — تتضح في التحول الجذري للشعر من موضوعات لها طابع سلفي وعظي وإصلاحي، إلى مضامين، ذات طـــابع نفسي استقرائي تأملي واغترابي، رغم أن مضامنها ومصادرها لم تبتعد عن بواعثها الحقيقية التي كان مبعثها الوحيد الوطن المغتصب من طرف المحتل الفرنسي، هذه البواعث التي تركت ملامحها وآثارها في شعر الغربة عند مفدي زكريا.

تلك كانت رحـــلتي مع **ظـــاهرة الغـــربة في شعر مفدي زكريا** التي استطعت أن أسجل من خلالها، مظاهر المعاناة والتشرد والغربة الفريدة في عوالم الرجل الداخلية، الذي عاش غريبا في عالم كله مآسي وظلم وعذاب، ومات غريبا عن الأهل والوطن، وبقي شعره وثيقة إيديولوجية، وأنشودة للأجيال، وحقائق للتاريخ.

رحم الله مـــفدي زكريا، وشـــهداء الجزائر والانسانية.

RÉSUMÉ

Moufdi Zakaria représente « un phénomène particulier » dans la littérature Algérienne contemporaine, il a suscite un certain nombre de recherche en ce sens ou de nombreuses études ont été faits sur des aspects particuliers d'œuvre poétique.
Ses œuvres poétiques très diversifiée du point du contenu, reste bouillonnante comme volcan avec tint a qui représente un volcan comme énergie et risque d'explosion.

La fécondité de ses œuvre, ouvre de nouvelles perspectives d'étude et recherche, de tous les centre d'intérêt que représente ses œuvres.

Le phénomène de l'aliénation reste un domaine très large et pas suffisamment exploité, dans la dimension psychologique.

La tristesse qui émane de ses œuvres poétiques , représente une période noir de l'histoire de l'Algérie coloniale qui commence à la deuxième guerre mondiale jusqu'à sa mort en exil.

Cet étude repose sur un choix méthodologique particulier qui englobe en même temps trois méthodes d'approche, historique, psychologique et artistique (littéraire).

Nous somme arrivés enfin de compte a conclure à l'issu de cette étude ; que la littérature Algérienne avant la deuxième guerre mondiale avait un caractère classique et réformiste, et puis s'est transformé en littérature à caractère sociale et psychologique, sans s'éloigner des ses buts initiaux qui sont la libération du pays du colonialisme.

Tel a été mon voyage a travers les profondeurs de l'âme du poète, à travers ses œuvres lesquelles j'ai extorqué toutes les formes d'aliénation d'un chi, qui a vécu (étranger) à lui –même- et à son peuple.

Ses œuvres restera un document idéologique, et source particulière pour les études historiques pour les générations future.

Que Dieu bénisse Moufdi Zakaria et nos martyres.